الأدب الإسلامي

المفهوم والقضية

تأليف

الدكتور
علي علي صبح

الدكتور
عبد العزيز شرف

الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي

دار الجيل
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
0118283

الأدب الإسلامي

المفهوم والقضية

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

تصدير

الأدب الإسلامي فكر يتمثّل روحَ الإسلام وجوهره، وروح حضارة الإسلام ومضمونها، وروح تراث الإسلام وتاريخه وثقافته ومدنيته.

والأدب الإسلامي جوهر أصيل في تراث الإسلام وفكره ونهضته وتاريخه. فهو الذي سجّل انتصارات الإسلام، ونضال أبطاله، وجهاد روّاده، وكفاح مفكريه، وهو الذي نطق بمآثره، وتحدث عن مفاخره، وصوّر أيامه وسجّل أروع بطولاته، وامتداد نهضاته..

الأدب الإسلامي هو الذي غذّى مشاعر الأمة الإسلامية على امتداد العصور بكل قيم الإسلام، وفكر الإسلام، ومثل الإسلام... وهو الذي كان نشيد المسلمين في كل مكان، وحداءهم في كل زمان.. ليعملوا ويكافحوا من أجل شعوب الإسلام، ومن أجل نهضتها ورفاهيتها وتقدمها وقوّتها...

وهذا الكتاب حلقة جديدة من حلقات الأدب الإسلامي الرفيعة، ونقصد منه إضاءة السبيل أمام دارسي الأدب الإسلامي، والراغبين في الوقوف على كل ما جاش في صدور الأدباء الإسلاميين من فكر رفيع، ومضمون جليل، وقيم عالية، ومُثُلٍ سامية.

إننا نقدّم هذا الكتاب إلى القراء، مع الاعتزاز الكبير بالغاية التي دفعتنا إلى إصداره، وبالهدف الجليل الذي نَنْشُدُه من ورائه، وبالله التوفيق، وهو العون والنصير.

المؤلفون

في رمضان المبارك ١٤٠٨ هـ/ مايو ١٩٨٨ م

الباب الأول

معالم الأدب الاسلامي

د. علي علي صبح

عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة

مفهوم الأدب الاسلامي

تمهيد

يتميز الأدب من بين العلوم والفنون الأخرى كالرسم والنحت والتصوير «الفوتوغرافي» وغيره بخصائص لا توجد في غيره، تجمعها غايتان كبيرتان، وهما:

١ ـ التأثير على النفس والوجدان.

٢ ـ الإقناع للعقل والفكر بالقياس والبرهان الحسي.

وماعدا الأدب ليس له إلا غاية واحدة، فالعلوم غايتها الاقتناع بالأدلة والبراهين العقلية والمنطقية فقط، والفنون الأخرى كالرسم وغيرها لها غاية واحدة فقط، وهي التأثير بالاستمتاع الوقتي المحدود بقدر الرؤية للمنظر أو التمثال، أثناء التمتع بالنظر والعين. وتأسيساً على ذلك تميز الأدب بكثرة معابره ووسائله التي تجيد الوصول إلى الغايتين السابقتين، وهذه الوسائل هي منافذه المتعددة التي تستقبل الأدب وهي: العاطفة، والوجدان، والشعور، والإحساس بالحواس الكثيرة، والخواطر، والعقل، والخيال.

بينما العلوم ليس لها إلا طريق واحد فقط للإقناع وهو العقل، وكذلك الفنون الأخرى ليس لها إلا معبر واحد فقط، فالرسم والتصوير والنحت وسيلته للتأثير هي النظر والرؤية بالعين، ووسيلة الموسيقى هي الأُذُنْ والسمع.

بهذا تميَّز الأدب بفنونه عن سواه، وصار ولا زال أخطر المعارف تأثيراً وإقناعاً في النشاط الإنساني، ما دام الأدب قد تميز بهذه الحظوة فالواجب علينا أن نتعامل معه بحذر شديد، فالخطر الداهم المدمِّر حين يساء استخدام الأدب، فيوجه في غرس الشر ونشدان القبيح، وحينئذ يكون أداة للهدم والتدمير، وحينما يستخدم الأدب لنشر القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة يبنى المجتمع ويسمو به إلى مدارج الرقي والتقدم، فالقصة المعاصرة التي تقوم على التغنِّي بالجنس ووصفه المكشوف وتصويره الهابط، وإيقاظه في النفس البشرية أدَّت إلى انهيار الشباب وانحلاله خلقياً، والقصة التي تقوم على تمجيد القيم الفاضلة، وتصوير الحضارة الإسلامية تبني جيلاً قوياً أصيلاً يحافظ على أمجاده وتراثه.

هذاما أقصده من خطورة الأدب إيجاباً أو سلباً، وفي ضوء هذه الخطورة يتحدد مفهوم الأدب الإسلامي، وعلى النقيض يتحدَّد مفهوم الأدب الهابط المنحرف، فإن استخدمت الكلمة استخداماً نافعاً صالحاً وجادًّا وبنَّاءً في الأدب، كان أدباً إيجابيًّا، وإن استخدمت الكلمة استخداماً خبيثاً ومنحرفاً كان الأدب سلبياً مدمراً، ومفهوم النفع والإصلاح والجدة والبناء يختلف من أُمة إلى أُمة ومن بيئة إلى أخرى، فهذا المفهوم في أُمتنا الإسلامية له معالم تختلف عن مفهوم الأدب لنشر القيم النبيلة الفاضلة، يبني المجتمع ويسمو به عن الدرك المادي.

وإذا كان النقاد القدماء جعلوا الأدب الإسلامي قاصراً على أدب عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، فإننا لا نفرق بين عصر وعصر، حتى العصر الحديث في مفهوم الأدب الإسلامي، فشوقي شاعر إسلامي، وحسان كذلك، ومصطفى صادق الرافعي أديب إسلامي، والإمام علي بن أبي طالب بليغ من أعظم بلغاء الأدب الإسلامي... والمهم أن يكون مضمون أدب الأديب ـ شعراً ونثراً ـ حكمة وقيماً إسلامية..

حقيقة الأدب الاسلامي

هي التجربة الشعورية التي تنبع من الوجدان والخواطر المفعمة بالقيم الإسلامية في بناء غنيّ يعتمد على وسائل التأثر والإقناع: من الألفاظ الفصيحة، والأسلوب البليغ، والنظم الدقيق والتصوير المحكم بالخيال والعقل معاً، والاتساق في الإيقاع المتدفق بأشكاله المتعددة سواء أكان وزناً وإيقاعاً في الشعر، أو نموًّا وتطوراً في الأحداث كالقصة والأقصوصة، أو قصراً في العبارات والجمل كأنواع المقالة الأدبية.

وبهذا المفهوم تتحدد معالم الأدب الإسلامي وأسسه على النحو التالي:

١ ـ التجربة الشعرية إزاء موقف إنساني معين.

٢ ـ الخواطر والأفكار التي تمتد جذورها إلى شريعة الإسلام.

٣ ـ العاطفة الصادقة التي تعبر عن إخلاص الأديب وصدقه.

٤ ـ اللفظ الفصيح الصحيح المجرد من الخطأ واللحن والسوقية والعامية.

٥ ـ الوجدان المفعم بالقيم الإسلامية الثري بخلق القرآن والسنة.

٦ ـ الأسلوب البليغ والنظم الدقيق، الذي يتخذ القرآن مثله الأعلى.

٧ ـ التصوير الأدبي المحكم بالخيال والعقل معا، فلا يترك العقلُ الخيالَ منطلقاً في جموحه ومبالغاته، ولا يترك الخيالُ العقلَ يعتمد على مقاييسه المجردة وبراهينه الجافة المترتبة على المقدمات والمسلمات، وإنما يتعاون العقل والخيال معا في توازن واتزان لصَوْغ الصورة الأدبية المتنوعة من استعارة وكناية وتشبيه ومجاز، أو غير ذلك من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، واسمية أو فعلية وما شابهه من أبواب «علم المعاني» وروعة النظم.

٨ ـ الإيقاع والموسيقى، وهذا يختلف حسب اختلاف الفنون الأدبية فالموسيقى في الشعر تنصرف إلى الوزن العمودي من البحور العروضية والقافية، والإيقاع في القصة والأقصوصة والمسرحية النثرية وفن السيرة

الأدبي ينصرف إلى جمال النسق في التعبير، وتسلسل الأحداث ونموها وتطورها تطوراً واقعياً، يترتَّب الحدث على الحدث حتى تأزم الأحداث في العقدة والأزمة مما يدفع القارئ إلى تشوق الحل واستعجاله. والإيقاع في المقال الأدبي ينصرف إلى روعة التصوير الأدبي، وقصر الفقرات والجمل، ووضوح المعاني وجلاء الأفكار.

وهذا المفهوم للأدب الإسلامي، على النحو السابق، يلزم منه ارتباط الأدب بمضمون معين يستمد روافده من التشريع الإسلامي، وهذه قضية على جانب كبير من الأهمية في تحديد نظرية الأدب الإسلامي لضرورة مناقشة عدة قضايا، لا بد من التعرف على خصائصها، وارتباطها بالأدب، وهذه القضايا هي:

١ ـ التجربة الشعرية في الأدب الإسلامي.
٢ ـ التمييز بين التقليد والتجديد والأصالة والعراقة والمعاصرة، ومواقف المستشرقين والمستغربين من ذلك.
٣ ـ المناسبات الأدبية.

وبتوضيح هذه القضايا والوقوف على معالمها ومناقشتها وتفنيد آراء المستشرقين والمستغربين حولها وردِّ دعواهم الباطلة، تتجلَّى نظرية الأدب الإسلامي وتتضح معالمها الأدبية وأسسها الفنية.

أولا: التجربة الشعورية

والتجربة الشعورية في الأدب الإسلامي لها خصائصها التي تتميَّز بها عن التجارب الشعورية العامة، فهي، وإن اتفقت معها في جوانب، فإنها تختلف عنها في جوانب أخرى.

فأما الجوانب التي نتّفق فيها التجربتان، أنهما تحدثان نتيجة لمفجر خاص عن نفس الأديب، وهذا المفجر إما أن يكون فكرة، أو حدثاً، أو مشهداً، أو فاجعةً، أو إعجاباً، أو تقديراً وتأملاً، وما أشبه.

وأنهما معاً نتيجة افتعالٍ لهذا المفجر، يتجاوب مع العاطفة القوية، التي تتخذ الشكل المناسب للمفجر، والغرض الأدبي الذي يتلاءم معه.

وأن موطنها واحد وهو نفس الأديب حين تتحرك الخواطر والمشاعر من منطقة اللاشعور في النفس إلى منطقة الشعور موطن العقل والخيال.

وأما الجوانب التي تختلف فيها التجربتان: التجربة في الأدب الإسلامي والتجربة في الأدب العام، فتكون على النحو التالي:

١ ـ ما يتصل بالتراث الإسلامي العربي هو غني بعلوم الإسلام ومعارفه، وحضارة الشريعة وقيمها، وثراء اللغة والاشتقاق والعروض والقافية، التي ترجع في النهاية إلى المصدرين الكبيرين القرآن الكريم والسنة الشريفة.

أما حقل التجارب الأدبية العامة فهو عامر بغير ذلك من الثقافات والمعارف الغريبة عن الإسلام، وعن لغته العربية لغة القرآن الكريم، كما هو الشأن عند المستشرقين وتلامذتهم من العرب الذين كانوا ولا زالوا أبواقاً لهم في عالمنا العربي والإسلامي، أو كالشأن في المتغربين الذين طعموا من فتات الغرب وفضلاتهم الزائفة، وكرعوا من سمومهم القاتلة ليكونوا جميعاً وسيلة من وسائل الغزو الفكري للإسلام والمسلمين في العصر الحديث.

٢ ـ الخيال متزن ومتوازن في الأدب الإسلامي، لأنه مشدود إلى عقل المسلم، يضبطه ويوجهه ويسدد خطاه، ويحدد انطلاقه، فليس خيالاً جموحاً ولا محلقاً في برج عاجي بعيد عن الحياة والناس، ولكنه خيال يسير مع العقل جنباً إلى جنب، ليعيش مع الواقع ويساير الناس في اتجاهاتهم، ويتجاوب معهم في قضاياهم ومشاكلهم.

لكن الخيال في التجارب العامة قد يكون شروداً ينطلق بصاحبه إلى آفاق بعيدة عن الحياة والناس، ويجعل الأديب من طبيعة أخرى فوق الأحياء جميعاً، كما جنح بالشعراء الغربيين في مذاهبهم: «السيريالية» و«البرناسية» وغيرها من المذاهب التي تجافت مع الواقع والناس.

٣ ـ مقياس الصدق الفني أيضاً يختلف في التجربتين، فالتلاؤم في تجربة الأدب الإسلامي يتم بين المشاعر والعواطف والخواطر، وبين البناء الفني للنص الأدبي القائم على:

- اللفظ العربي الفصيح والصحيح، والأسلوب المحكم والنظم الدقيق.
- الصورة المتوازنة الموحية القوية.
- المعاني والأفكار والأغراض التي تنبعث من القيم الإسلامية في شتى المجالات بعد امتزاجها بوجدان الشاعر وعواطفه.
- الإيقاع والموسيقى العمودية التي تنبعث من تراثنا العربي الأصيل.

بينما الصدق الفني في التجارب الأدبية العامة غير ما سبق؛ فالتلاؤم فيه قد يتم بين المشاعر والخواطر والعواطف وبين البناء الفني للنص الأدبي الذي قد يتصف بما يأتي:

* اللفظ العامي الخاطئ الملحون والأسلوب المبتذل الركيك.
* الصور المجنحة المسرفة في المبالغة والإغراق.
* الإيقاع الهابط مثل الشعر الحر وشعر التفعيلة.
* المعاني والأغراض الهابطة عن القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة كالإلحاد والبوذية والمارقة والمادية والمسرفة.

ومع ذلك يتحقق الصدق الفني في التجربة، لأن هذه الأخطاء والسقطات تتفق تماما مع حقل الشاعر في الأدب العام في مشاعره ووجدانه ولا حيلة له في هذا الأمر، لأنه يفرغ ما في جعبته، ويعبر بصدق عما في نفسه.

هذه هي أهم خصائص التجربة في الأدب الإسلامي كما نراها لكي يتميز أدبها عما سواه من الأدب العام، وبذلك تكون له شخصيته المتميزة التي يستقل بها، لنقيم أدباً إسلاميًا جادًّا له، يكون له دور كبير في أداء رسالته نحو شريعة الإسلام ونشرها والدعوة إليها والجهاد في سبيلها وتثبيت القيم والخلق الإسلامي لتتمكن من قلوب المؤمنين.

ثانيا: بين الحرية والالتزام وموقف المستشرقين والمستغربين

لكي تتضح نظريةالأدب الإسلامي ومعالمها في العصر الحديث، كان من الضرورة أن نوضح مدى ارتباطها بتراثنا العربي الإسلامي القديم، ومدى تجاوبه معه، والتزامه بقواعده وأصوله وأسسه، وتحرره من كل ذلك، وهذا يؤدي إلى توضيح الموقف من التقليد، والتجديد والأصالة، والعراقة والمعاصرة.

ويقتضي تحديد علاقة الأدب الإسلامي بالعصر ومعاصرة الأحداث الإسلامية، وصداها فيه، وهذا يؤدي إلى توضيح قضية الالتزام والحرية والتحرر، وقضية المناسبات الأدبية.

وفي هذه القضايا دسَّ المستشرقون أنوفهم كعادتهم وتبعهم تلامذتهم من الغرب المستغربين، ليدلوا برأيهم فيها بنظرات مغرضة مسمومة، تطل منها العداوة والحقد على الإسلام، وهذا أيضاً يقتضي تعرية مواقفهم وتجلية الأخطاء في آرائهم ووجهات نظرهم المغلفة المدمرة.

١ ــ التقليد

في التراث العربي الإسلامي أدب إسلامي غزير بشقَّيه الشعر والنثر الأدبي، يصور الغزوات والفتوحات الإسلامية مثل شعر عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت الأنصاري، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، وعمورية أبي تمام وغيرها.. ومن النثر الأدبي أحاديث الرسول ﷺ وخطبه وخطب الصحابة رضوان الله عليهم ووصاياهم المتعددة الأغراض والفنون مثل وصية عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنهما، حين وجَّهه على رأس الجيش الإسلامي في فتوحاته، وغيرها من الصور الأدبية التي تعبر عن قيم التشريع، أو الحضارة الإسلامية، وقد اتسع لها الشعر والنثر الأدبي في مختلف العصور: الأموي، والعباسي، والدويلات حتى في خلال الحكم العثماني للأمة الإسلامية.

وحينما يلتزم الأديب هذا الأدب الإسلامي في التراث القديم ويسير على نهجه مقلداً، فهل يكون عمله الأدبي تقليداً؟ هذا يحتاج إلى تجلية وتوضيح.

فالتقليد الأعمى، الذي يجعل الشاعر يدور في فلك التراث القديم بلا افتعال ومشاركة بالوجدان للأحداث المعاصرة، وبلا تجارب مع اصدائها وإنما يقوم بنقل القديم في أسلوب هابط، يهيم فيه بالزخرف والتكلف والتصنع، مع ضحالة الفكرة وضعف المعنى وغموضه، فهذان الأدب والشعر مرفوضان في الأدب الإسلامي الحديث، وهو التقليد الأعمى الذي لا نقبله فيه بحال وسماه العقاد: التقليد للتقليد كما سيأتي.

وإذا كان التقليد محكماً، يتبع فيها الأديب منهج السابقين فيتناول المعاني بأسلوبهم وخيالاتهم، لكنه يفيض عليهم من شعوره إذا كان العمل الأدبي شعراً، أو يقوم بالتنسيق والتبويب مع قدم المعاني والأسلوب إذاكان العمل الأدبي نثراً، فهذا مقبول في الأدب الإسلامي الحديث، وسماه العقاد التقليد المحكم. وذلك مثل قصيدة البارودي «كشف الغمة في مدح سيِّد الأمة»، فهي شعر إسلامي يصور سيرة الرسول ﷺ منذ ولادته حتى وفاته، عارض فيها الشاعر بردة البوصيري، وهي وإن كانت من شعر المعارضات والتقليد، لكنها معارضة قوية للشعر القوي وتقليد محكم برزت فيها شاعرية البارودي، ودلت على قدرته في صياغة الشعر.

ويميز العقاد بين مراحل تطور الشعر عند البارودي فيقول[1]:

أولها: دور التقليد الضعيف، أو التقليد للتقليد،

وثانيها: دور التقليد الذي للمقلد فيه شيء من الفضل، وشيء من القدرة..

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، عباس محمود العقاد ص ١٢٠، الطبعة الثالثة، القاهرة.

وثالثها: الابتكار الناشئ عن شعور بالحرية القومية. . .

ورابعها: الارتكاز الناشئ من استقلال الشخصية أو من شعور بالحرية الفردية.

وعلى ذلك فالتقليد المحكم في الأدب الإسلامي الحديث للتراث القديم ليست مرحلة مرفوضة رفضاً كاملاً، وإنما يمثل في نظرنا المرحلة التي تسبق التجديد والأصالة والمعاصرة، ولها ميزانها النقدي، الذي يكون دون المستوى المطلوب، ومرحلة التقليد المحكم كان لا بد منها في أدبنا الإسلامي.

رأينا أن قضية الالتزام والحرية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحديث عن التجديد والأصالة والعراقة والمعاصرة؛ وهذه المصطلحات في الأدب والنقد تكاد تلتقي في مفهومها ومعانيها، إلا أن بينها خيوطاً رفيعة هي التي تميز الواحد عن الآخر. ويظهر هذا التمييز في ميزان المقابلات. فحينما نذكر التجديد يقابله التقليد، وحينما نذكر الأصالة يقابلها الوافد على ذات الشاعر وحضارته الإسلامية العريقة، وحينما نذكر العراقة يقابلها الغريب والمعاصر، ومن خلال هذه المتقابلات يمكن التمييز بين المصطلحات النقدية الأدبية السابقة على النحو التالي كما وضحنا التقليد.

٢ ـ التجديد:

التجديد أقدم المصطلحات النقدية في العصر الحديث بعد التقليد، لأنه كان ردَّ فعلٍ للتقليد الذي هو أول مراحل التطور في الأدب الحديث، ثم تتابعت المصطلحات الأخرى بعد التجديد مثل: الأصالة، والعراقة، والمعاصرة، والالتزام والتحرر، وغيرها.

والتجديد هو تطويع ما يجول في العصر الحديث بما يتناسب مع الموروث الحضاري عن الحقب السابقة، فالقديم الصرف ليس جديداً، إلا إنِ استمدَّ الشاعر من روافد القديم، وعمقها في حياته المعاصرة بما ينداح من

هـذه الروافـد، ويناسب متـلائما معهـا، ولا يناقضهـا، أو يختلف معها، حتى لا يصطدم مع التيار القديم في روافده وحينئذ يُسَمَّى تجديدا.

فالتجديـد تطور وبنـاء، وليس تقليداً ولا هـدماً، وهـذا ما قـام به النقـد الحـديث، فقد جعـل التجديـد يقوم على تـطويع القـديم ومـدى الاستجـابـة للمعاصر والجديد.

فـالمجددون حينمـا يثورون على القـديم لا يرفضـون، وإنما يـرفضـون الساقط منه والرديء، وحينما يهتمون به إنما يعنون بما هو جدير بالبقاء، وهم يتطلعون إلى التجديد لأنهم يحبون التطور والاستحالة، والجديد يـدفعهم إلى الاتصال بالغرب والأَخْذِ عنهم[1].

وهـذا قول غيـر مسلم به على إطـلاقـه، فليس معنى التجـديـد الأخـذ المطلق من الغرب، لأن الحضارة الإسلامية تختلف في قيمها واتجاهاتهـا عن ثقافة الغـرب، التي تختلف كثيراً في جـوانبها. «ولكن مسـار التاريـخ العربي والإسلامي يختلف عن مسار التاريخ في أمم الغـرب. إذا فلا يجب أن يكـون حاضر ثقافتنا صورة من ثقافة الغرب بل لا يمكن أن يكون كذلك»[2].

وهـذا أقـرب إلى قـول بعضهم: «وهـذه نتيجـة طبيعيـة إذا سلمنـا بـأن التجـديد تـطور واستحالـة، لأن التطور عملية حيويـة تسيـر وفق نمط خـاص بالكائن الحي، وليست نقلاً عن كائن حي آخر»[3].

ومن أشكال التجديد في الأدب الإسلامي، الذي اتَّخذ منهجاً جديـداً، وطريقة جديدة تتناسب مع العصر في العرض والأداء، مع الاحتفاظ بـالجوهـر والقيم في الحضارة الإسلامية، ورعاية التراث العربي الإسلامي القديم مثل: كتب فن السيرة التي سايرت عصر التطور والتجديد في الأدب كما حـدث في

---

(١) حديث الأربعاء، طه حسين، ص ١٣.

(٢) ثورة الأدب، محمد حسنين هيكل ص ٢٥، القاهرة ١٩٤٨ م.

(٣) الرؤيا المفيدة، د شكري عياد، ص ٢٥، القاهرة ١٩٧٨.

عبقريات العقاد: عبقرية محمد، عبقرية الصديق، وعبقرية عمر، وعبقرية خالد وغيرها.

وكذلك من الشعر «الإلياذة الإسلامية» للشاعر أحمد محرم، فليست مثل خرافات وأساطير هوميروس، ولكنها تقوم على حقائق الإسلام وبطولات الرسول ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم.

ومن الشعر الإسلامي الجديد أيضاً الشعر القصصي، مثل: قصيدة «هزيمة الشيطان»، وقصيدة «عام جديد»، وكلاهما من الهجرة الإسلامية للشاعر علي محمود طه، وكذلك الملحمة القصصية: «أمير الأنبياء» للشاعر عامر بحيري، والملحمة الإسلامية «دول العرب وعظماء الإسلام» للشاعر أحمد شوقي، و«ملحمة الجهاد» و«ملحمة النصر في ١٠ رمضان» للشاعر عمر بهاء الدين الأميري، وغير ذلك كثير في أدبنا العربي الإسلامي الحديث، الذي اتَّسم بطابع التجديد لكنه ما زال موصولاً بالتراث العربي والإسلامي وصلاً تاماً ومربوطاً به ارتباطاً وثيقاً.

ولا يعنينا قول المستشرقين ومَنْ تبعهم مِنَ العرب المستغربين أن هذه ليست ملاحم، ولا قصصاً، ولا فنًّا، للسير الأدبي لأن الخيال لم يسيطر عليها، ولم يخرج بها عن واقعها وحقائقها في الوجود التاريخي، بل غرب الخيال الأسطوري عنها، وسيطرت الحقائق على هذه الفنون الأدبية، لا يعنينا هذا الاتهام في شيء، ولا يعوقنا عن المضي في التجديد على النحو الذي يتناسب مع قيمنا وحضارتنا الإسلامية العريقة، التي من أَجَلِّ خصائصها أنها تعتمد على الحقائق لا الخرافات والأساطير والأوهام، لأن لكل مجتمع اتجاهه، ولكل حضارة سماتها وسموها وخاصة إذا كانت الحضارة هي للإسلام، التي جاءت لتبني الأمة الإسلامية في كل عصر، وفي كل جيل.

٣ ــ الأصالة:

هي التعبير عن ذات الأديب بالأصالة عن نفسه، وحينما يعبر عن ذاته ونفسه، لكي يكون أدبه أدباً أصيلاً، لا بدَّ أن تتشكَّل الذات والنفس في بناء

فـردي وقومي وإسـلامي حضاري يسـاير كـل عصر، يتـرسب فيهما، وتمتـزج بهما، فلا تنفك عنها، حتى تصير الذات والنفس هي القيم ذاتها، فهما خليط من شخص الشاعر وقوميته وحضارته الإسلامية، فـإذا عبر عن ذلـك في شكل أدبي صار فنًا أدبيًا أصيلا، وصحَّ أن نطلق على منشئه الشاعـر الأصيل، وعلى أدبـه الأدب الأصيل، هـذا هو معنى الأصـالة وهـو موصـول بالمعنى اللغـوي للكلمة كما وردت في معاجم اللغة: فالأصل: بمعنى أسفل كل شيء ومجـد أصيل: أي ذو أصالة.

وقد اختلف النقاد حديثاً منذ الخمسينات في تحـديد مفهـوم الأصالـة، فتارة يفسرونها بعدم التقليد، وتارة بـالابتكار، وتـارة بالـذاتية، وتـارة بالعـراقة وتارة باجتماع الذاتية والشخصية.

فـالدكتـور إبراهيم السـامرائي يعتبـر أن الأصالـة هي الابتكـار، وعـدم التقليد، حين يوضح أصالة الشاعر الجواهري فيقول: «وربما لا نعدم أن نجد في شعر الجواهري آثار هذه المدرسة الفنية على الرغم من أصالة الجواهـري في الشعر وقدرته على الابتكار في نطاق الشعر المعروف». ويقول في أصـالة الـزهاوي: «الـزهاوي يعتمـد في ثقـافتـه على مـا ثقفـه من الثقـافـة الشـرقيـة لا العربية والإسـلامية، وعلى مـا جد من أفكـار ونظريـات في العلم الحديث المنقـول إلى العربيـة، ومن هذا المـزيج تكـوَّن فكر الـزهـاوي، ولكنـه ظـلَّ محتفظاً بطابع الأخذ والتبعية، مفتقراً إلى الأصالة والطبع»(١).

وأمـا توفيق الحكيم فحينمـا يفسر الأصـالة بمعنى الابتكـار بعـد النقـل والمحاكاة وهي التقليد، فيقول عن فن التمثيل العربي هـو: «المسار الـطبيعي لكـل فن بشري. يبـدأ الفن دائماً من النقـل، وينتهي إلى الأصالـة، يبـدأ من المحاكاة وينتهي إلى الابتكار. . .»(٢).

---

(١) لغة الشعر بين جيلين، ص ٣٠ ـ ٤٧، بيروت.
(٢) قالبنا المسرحي، ص ١٠، القاهرة ١٩٦٧.

وحينما يفسر الأصالة بالعراقة يقول: «وإن ما يسمُّونه العراقة في شعب ليس أفضاله المتوارثة. . . وإن الأصالة في الأشياء والأحياء هي ذلك الاحتفاظ المتصل بالمزايا الموروثة كابراً عن كابر، وحلقة بعد حلقة. وهكذا يقال في شعب أو رجل أو جواد، وهكذا يقال في فن أو علم أو أدب. عراقة الأدب هو طابعه المحفوظ المنحدر إلينا من بعيد»[1].

ولست متفقاً مع الحكيم في إطلاق الأصالة بمعنى العراقة أو تساويها في المعنى تماما، بل الأصالة تتمثل العراقة من جانب واحد فقط، وتفترق عنها في جانب آخر، فأما الجانب الذي يلتقيان فيه حينما تستمد أصالة الشاعر روافدها من القيم النبيلة، والفضائل المتوارثة من الماضي العريق؛ وأما الجانب الذي تنفصل فيه العراقة، ولا تلتقي مع الأصالة، حينما تستمد أصالة الشاعر روافدها من تراث الأمة المنحل، فلا ينبغي أن نصف هذا العمل الأدبي بالعراقة، وإن صحَّ أن نطلق عليه أدباً أصيلًا، وعلى هذا فالعراقة أخص من الأصالة، وليست هي مساوية لها تماما كما ذكر ذلك الحكيم.

وفسر العقاد الأصالة بمعنى الابتكار الناشئ من شعورين:

أحدهما: الشعور بالحرية القومية. . .

وثانيهما: الشعور الناشئ عن استقلال الشخصية، أي الشعور بالحرية الفردية[2].

فالعقاد يميز بين الفردية والقومية، ويجعل كلاهما مرحلة، وتكوُّن الفردية عنده هو قمة الابتكار، وليس التمييز هنا من باب الاستبدال والمغايرة ولكن من باب الاستحالة والتطور، وإنّما تتحول إلى فردية وشخصية على

(١) الملك أوديب، ص ١٤، القاهرة.
(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ص ١٢٠.

حسب تعبيره، أو ذاتية على أساس تعبير الدكتور محمد حسين هيكل حين عبر عن الأصالة بقوله: «بروز الذاتية»(١).

فالفردية عند العقاد هي قمة الأصالة والابتكار، وهي تجمع بين التراث القومي والمؤثرات الوافدة، على أساس من الاستقلال والاعتداد بالرأي. يكشف العقاد عن هذا بقوله:

«وكان الأدباء المصريون، الذين ظهروا في أوائل القرن العشرين يعجبون بهازلت ويشيدون بذكره، ويقرأونه ويعيدون قراءته يوم كان هازلت مهملاً في وطنه مكروها من عامة قومه، لأنه كان يدعو في الأدب والفن والسياسة الوطنية إلى غير ما يدعون إليه، فكان الأدباء المصريون مبتدعين في الإعجاب لا مقلدين ولا مسوقين، وأعانهم على الاستقلال بالرأي، عندما يقرأون الآداب الأجنبية أنهم قرأوا أدبهم قبل ذلك وفي أثناء ذلك، فلم يدخلوا عالم الآداب الأجنبية مغمضين أو خلوا من الرأي والتمييز»(٢).

وهذا نفسه هو ما اتجه إليه الدكتور شكري عياد حينما وضح مفهوم الأصالة، ولا يفترق كثيراً عما وضحه العقاد سابقاً من أصالة الأدباء المصريين حين تأثروا بالتيارات الأجنبية، فقد احتفظوا بتراثهم العربي القديم، وقرأوا أدب هازلت بعد أن تمكنوا من تراثهم، وخرجوا برأي مستقل هو في نظر العقاد «الأصالة» بعينها. وهذا هو نفسه مفهوم الأصالة عند الدكتور شكري حين يقول عنها: «إنها تمت بنسبٍ قريب إلى الموقف الحضاري الذي تعيشه الأمة العربية الآن بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها». ويقول أيضاً في مكان آخر عن مفهومها: «ولكننا نرى أن القومية والفردية صفتان تجتمعان في الأدب المبتكر بنسب متفاوتة، والأدب المبتكر يوصف بالأصالة على الاعتبارين، فيكون معبراً عن الخصائص القومية للشعب الذي أنتج فيه واللغة التي كتب بها، كما يكون معبراً عن ذات صاحبه، التي تجعل ما ثقفه من تراث لغته،

(١) ثورة الأدب، ص ٩، القاهرة.

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ص ١٩٢.

وما أفادت من ثمرات الثقافة الأجنبية عناصر جديدة تذوب في كيان جديد مختلف عن سابقيه. . . فإننا نستطيع القول بأن الأصالة تلخص مشكلة الثقافة العربية المعاصرة»(١).

وواضح أن الأصالة بهذا المعنى الذي اتّجه إليه العقاد لا يتفق مع ما نبتغيه من الأصالة في أدبنا الإسلامي، لأنهم لا يقصدون بالقومية التي ذابت في الفردية، أو الذاتية هي القومية الإسلامية، وإنما يريدون بها القومية العربية، وهذا ما لا يصح أن نطلقه على أصالة الأدب الإسلامي، وإنما الذي ينبغي أن يطلق على الأصالة فيه هو ما وضحته منذ البداية، وهو أن تذوب الحضارة الإسلامية بقيمها ومبادئها السامية في ذات الشاعر ونفسه ويصير كل منهما مزيجاً من هذه الحضارة، وهي بطبيعتها تساير كل عصر وتتجاوب مع كل حين، لأنها قيم ثابتة صالحة لكل زمان ولكل جيل.

وبذلك نخرج بهذا المفهوم العتيق المحدود للأصالة عند النقاد إلى ما وضحته من المفهوم الشامل العميق الذي يتجاوب مع المكان والزمان، والشاعر هنا أيضاً يعبر عن الذاتية أو الشخصية أو الفردية التي يعنيها النقاد، ولكنها تختلف في تفسيرها وتوضيح معالمها وأسسها التي تقوم عليها فيما اتجهت إليه، وهذا التفسير يختلف عما اتجهوا إليه.

والأصالة في الحضارة الإسلامية تختلف عن الأصالة التي يعنيها «فيشته» في أدب الغرب فيرى أن الأدب الأصيل غير الزائف هو الذي يقف على آداب لغته، وأن يحيط بعلوم عصره وفلسفته وآدابه، ويحقق من الحق والجمال على قدر بلوغه منها. يقول فيشته: «والحق والجمال اللذان هما غاية الأدب بوصفه جميلاً ينكشف للناس من صورهما في كل جيل، ما لم يكن معروفاً في الجيل الذي سبقه، أو يختلف عما كان معروفاً في الجيل الذي سبقه، وعلى ذلك كان الخلاف في صور أدب الأجيال المختلفة في

---

(١) الرؤيا المفيدة، ص ٢٧ و ٢٤.

اللغة الواحدة، وصور أدب الجيل الواحد في اللغات المختلفة، ولذلك كان لا مفر لِمَنْ يريد أن يكون أديباً حقًّا، أديباً أصيلاً، غير زائف، من أن يقف على آداب لغته هو وقوفاً صحيحاً، وأن يحيط ما استطاع بعلوم عصره وفلسفته وآدابه في اللغات المختلفة، وكلما كان أكثر إحاطة كان أدنى إلى بلوغ ما في الحياة والوجود من حق وجميل، وإلى تبليغه للناس في صورة أقرب إلى الكمال، مما أُوتي مثل مواهبه ولم يؤت مثل علمه[1].

وهذا المفهوم للأصالة في الأدب الغربي لتحقيق الغاية منها، وهي الخير والجمال، تختلف في قيمها ومبادئها عما ننشده من تحقيق الأصالة في أدبنا الإسلامي، فلها قيمتها ومبادئها النابعة من حضارة الإسلام لا الحضارة الغربية، وتختلف أيضاً من حيث الأداة واللغة، فلا تعنيها اللغة وإنما تعنيها آداب اللغة، لتصل إلى الناس في صورة أقرب إلى الكمال نابعة من مواهبه لا من علمه وعلومه ولا من لغته الخاصة بقومه البليغة.

أما الأداة واللغة في أصالة الأدب الإسلامي فهي نابعة من فصاحة اللغة ودقة مخارجها ولطف أسرارها. وهذا يقتضي أن يكون الأديب عالماً باللغة العربية وأسرارها وبلاغتها، فلا يعتمد على الموهبة التي تأثرت بالوافد وحدها، لأن التأثير قد يكون باللغة الأجنبية مختلطة بالعربية، أو يكون باللغة العامية لا الفصيحة، وهذا ما يقع فيه المستغربون من العرب وغيرهم من المستشرقين، مثل الدكتور طه حسين فيرى أن التحرر من اللغة في مجال الأدب أمر متعارف عليه في الأمم الغربية، لأن للدين لغة وللأدب لغة ولهجة أخرى، وهذا القول يتنافى بالتأكيد مع الأصالة في أدبنا الإسلامي، لأنها مرتبطة بلغة الإسلام اللغة العربية البليغة الفصيحة. انظر إلى قوله:

«وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون، وليست أقل منّا إيثاراً لدينها، ولا احتفاظاً به، ولا حرصاً عليه، ولكنها تقبل من غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها، ولها في

(١) ثورة الأدب، د. محمد حسين هيكل ص ٢٧ و ٢٨.

الوقت نفسه لغتها الدينيةالتي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي منها صلواتها، فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر، والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع، وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية، ولا تفهمها، ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم، ولغتها الدينية هي اللغة العربية، ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيماناً بالإسلام وإكباراً له وذياداً عنه وحرصاً عليه. . .»[1].

فالدكتور طه حسين يرى أن للدين الإسلامي لغته وهي اللغة العربية وللأدب لهجة أخرى ولسان آخر غير العربية، ولا أدري أيريد بذلك غير لغة العرب من اللاتينية التي أحبها أو اللغات الأجنبية الأخرى، أم يريد لهجة الناس العامية الشائعة، لتصير هي لغة الأدب المعاصر، لا أدري ماذا يقصد؟ أحلاهما مرّ! . . كما يقولون.

٤ ـ المعاصرة:

والمعاصرة والقدم متقابلان، فإن تجاوب الأديب مع ثقافة العصر، واعترف منها بما يحقق رغباته الذاتية، ونبضت تجاربه الأدبية المعاصرة بثقافة العصر، التي يُثري بها تصويره الأدبي، أطلق على هذا الأدب أدباً معاصراً. فقد تجمعت فيه روافد المعاصرة، بعد أن امتزجت بالروافد الأصيلة في نفسه، واتخذت مجرى واحداً يغذّي الحياة والناس بما يتناسب مع عصرهم الجديد، وما يحدث فيه من تطور وتقدم ورقيّ.

ومفهوم المعاصرة هذا يلتقي مع الأصالة إذا ميز الأديب بين الغث والسمين، ليتجاوب السمين منه مع المخزون الأصيل في ذات الشاعر وينبذ الغث من التيارات المعاصرة، لأنها لا تنسجم مع أصالته وعراقته.

ويلتقي أيضاً مفهوم المعاصرة مع التجديد، حينما يحيل الشاعر

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ص ٢٣، دار المعارف ١٩٤٤.

التيارات المعاصرة إلى ما يستجيب مع الموروث الحضاري، فيظهر العمل الأدبي في شكل جديد، يجمع بين متطلبات العصر، لكنها من خلال القيم الموروثة من تراثنا القديم.

وعلى هذا فالمعاصرة محيط زاخر تنبع منه الأصالة والتجديد، والعراقة والتحرر وغيرها، لكنها، كما رأينا، تختلف فيما بينها حين تشكل المأخوذ من هذا المحيط بما يتناسب مع كل مصطلح من المصطلحات السابقة فيصير هذا الأدب أصيلاً، أو جديداً، أو متحرراً، أو غير ذلك.

وقد لاحظ الدكتور شكري عياد احتكاكاً أو تصادماً بين مفهوم الأصالة ومفهوم المعاصرة فقال: «لقد انتهينا إلى أن الأصالة تتضمن معنى الديمومة والاستمرار، أما المعاصرة فعلى الرغم من استعمالها المبهم من حيث التحديد الزمني، فإن معناها يتضح بملاحظة نقيضها وهو القدم، ومن هنا يبدو أن المعاصرة تمثِّل جانب الحركة التقدمية في مركب الديمومة الذي يكوِّن الأصالة... إذن فالتصادم الذي يبدو أحياناً بين الأصالة والمعاصرة إنما يرجع إلى نسيان عنصر الحركة في الأصالة، أو نسيان انتماء المعاصرة إلى مركب الديمومة، وعندي أن خير تحديد للمعاصرة هو البدء بالحاضر[1].

ويوم تقوم المعاصرة على هَدْم القديم كله، بل هَدْم الذي يسير على نمط القديم، تكون على هذا النحو هدماً لا بناءً، وتدميراً لا تطوراً وتجديداً، وهذا ما وقع في خطورته الشاعر خليل مطران، حينما تفاخر بمعاصرة الشعر الذي يقوم على أنقاض القديم يقول ما نصه:

«هذا شعر عصري وفخره أنه عصري، وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر، هذا هو شعر ليس ناظمه بمبده، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده[2].

---

(١) الرؤيا المفيدة، ص ٢٩.

(٢) ديوان خليل مطران ج ١، صدر عام ١٩٠٨ م.

٥ ـ بين الالتزام والحرية وبين التحرر

التمييز بين مفاهيم التقليد والتجديد والأصالة والمعاصرة يسَّر لنا الحديث عن قضيةالحرية والالتزام، وساعدنا كثيراً على توضيح معالم الحرية والالتزام أو التحرر، فكل منها لها ارتباط وثيق بالتقليد أو التجديد أو الأصالة أو المعاصرة.

وقضية الحرية والالتزام تناولها الكثير من النقاد العرب والمستشرقين انتهوا فيها إلى اتجاهين:

أولاً: إن الأدب الجيد هو الذي لا يلتزم فيه الأديب بشيء من واقع عصره، ولا يرتبط بمشاكله وقضاياه، بل يعبر فيه عن ذاته ومشاعره متجرِّداً عما يدور في الحياة من معالجة لمشاكلها ووَضْع الحلول لقضاياها العديدة، وعلى ذلك فلا ارتباط بين الأدب والحياة. ومن هنا نشأت المذاهب الأدبية الغربية الحديثة كالرومانسية والسيريالية والبرناسية، ومذهب الفن للفن، والأدب للأدب، فهذه المذاهب تجردت من معالجة المشاكل في الواقع، وعزلت الشعراء عن الحياة والناس، وحينئذ يكون الأدب حراً وليس مقيداً ولا ملتزماً.

ثانياً: إن الأدب ينبغي أن يكون ملتزماً، وليس متحرراً كالاتجاه الأول بل ينزل الأديب إلى الحياة والناس، ليعيش مع مشاكل العصر وقضايا الحياة، فيتجاوب معها، وتتردد أصداءها في نفسه الثائرة فيصورها، ويتجه الناس إليها، ويشترك معهم في وضع الحلول لمشاكلها ويبحث عن الدواء الناجع لها، وهذا ما يُسَمّى بالأدب الواقعي أو المذهب الواقعي أو الأدب للحياة، أو الفن للحياة، أو الأدب الملتزم.

ولكل من هذين الاتجاهين عشاقه ورواده، ولكني لست من هؤلاء ولا أولئك. فلا أعترف بالحرية في الاتجاه الأول، بل أسميه تحرراً؛ ولا أوافق الاتجاه الثاني في فهمهم وتفسيرهم للالتزام، لأنهم جردوه من الحرية للأديب. ولذلك وضعت عنواناً لهذا الموضوع يدل على مرادي، وهو

الالتزام والحرية هما معاً في مقابل التحرر، فالالتزام والحرية كُلٌّ لا يتجزأ، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر أمام التحرر من الالتزام والحرية معاً. وهذا ما ينبغي أن يقوم عليه التفسير للأدب الإسلامي في العصر الحديث: فهو أدب يقوم على الالتزام والحرية معاً ويسمو عن «التحرر» ويتجافى معه، وسنوضح القول في ذلك حتى يتميز هذان المتقابلان تميزاً فاصلاً من وجهة نظرنا.

قبل أن نحدد معنى الالتزام ينبغي أن نفرق بين الحرية والتحرر: فالتحرر هو الخروج على القيم والأصول، والتخلص مما يتّصل بالتراث القديم، ومما يَمُتُّ إليه من أصالة وعراقة، فيتحرر الأديب من الأسلوب والمنهج والتصوُّر الأدبي والوزن والقافية في التراث القديم، ويتحرر من كل الروابط التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان. ومن كل القضايا والمشكلات التي تربطه بالحياة وبالإنسان. فالمتحرر ينسلخ من ماضيه ومن حاضره، ليعيش في برجه العاجي مستغرقاً في (هيولاته) وأحلامه وآماله وهو يلهث من سراب إلى سراب، ويغوص في أعماق الأوهام والخيالات بلا قيود ولا ضابط، أو عقل يضبطه ويسدد خطاه، هذا هو أدب التحرر بِسِماته وخصائصه.

أما الحرية فهي على نقيض التحرر: فحقيقة الحرية لا تتشكل إلا في معيار العقل المضبوط والفكر السديد، ويوم أن يجمح العقل ويشرد الفكر، لا يتصف صاحبه بالحرية، بل بالتحرُّر والجنون، أما إذا انضبطت المشاعر والخواطر والخيالات في النفس بالعقل والفكر اتسم العمل الأدبي بالحرية، لأنه تحرر من الطيش والإغراق في الأوهام وتحرَّر أيضاً من الجنون والخروج عن المألوف في نظر العقول والأفهام، ومن هنا كانت الحرية مقيَّدة بالعقل والفكر السديد، بينما التحرر انطلاق عن حدود العقل، وجموح عن الخيال، والجموح شرود في الأوهام.

والحرية بهذا المعنى جزء لا يتجزأ من الالتزام، فإذا قلنا بأن الأدب الإسلامي ملتزم، ليس معناه أنه مجرد من الحرية، التي يجب أن تتحقق في

الشاعر عند النقاد، بل التزام الأديب في أدبه معناه: أن أدبه نبع من الحرية الملتزمة بواقع الحياة التي يعيشها الشاعر في إطار تجاربه الشعرية، التي تحررت من الجموح والشرود بالتوازن بين العقل والخيال.

والالتزام بالقيم والقواعد والأصول في التراث العربي الإسلامي، أو الالتزام بوضع الحلول وعلاج المشكلات المعاصرة، لا يتحقق إلا من خلال الحرية التي يسدد بها العقل والخيال معاً هذه المشاكل، ووضع الأمور في نصابها، كالحرية في عَتْق العبد الرقيق ترده إلى نصابه الطبيعي في الحياة، ليعود إنسانا ملتزماً بقيود الحياة ومعاييرها في ظل تسديد العقل وحكمته، وليس معنى ذلك أنه تحرر من هذه القيود وتلك المعايير، وإلا كان خارجاً عن حدود الإنسان الحر إلى صفة الجنون أو التحرر المطلق عن نصاب الإنسانية المتعارف عليها بقيمها وحدودها.

وبهذا المفهوم للالتزام والحرية معا يجب أن يكون الأدب الإسلامي ملتزماً بمعنى أن له قيمه ومبادئه وأصوله ومعالمه وأسسه وروافده التي بها يعيش مع الحياة والناس في قضاياهم ومشاكلهم وأحداثهم ومعاركهم واقتصادهم وجهادهم وسياستهم وعلومهم وتقدمهم وفكرهم وآمالهم وآلامهم، ليصورها من خلال هذه القيم، ويعالج مشاكلها ويضع لها الحلول، ويوجهها إلى الحق والصواب، ويحدد النتائج ويصور النماذج الإنسانية الرفيعة، التي تلتزم بأخلاق الإسلام وآدابه، لكي يكون نموذجاً سامياً وقدوة صالحة لغيره. وهكذا ينبض الأدب الإسلامي بما يجول في العصر من خواطر وأحداث ومشاهد ووسائل للتقدم والرقي والحضارة، ويتخذ من فنونه أسلحة ذات حدين يتوجه بأحدهما إلى المسلمين ليحثّهم على التعمير والبناء للأمة الإسلامية، والأخرى يصد بها أعداء الإسلام الذين يتربصون به الدوائر في كل حين، وبذلك يكون الأدب الإسلامي في التزامه الحر متنوعاً في أهدافه، وتحقيق المراد منه.

ففيه أدب البطولات الإسلامية والإشادة بأمجاد الأمة، وتاريخها العريق وحضارتها الراسخة مثل ديوان «دول العرب وعظماء الإسلام»، للشاعر أحمد

شـوقي، و«الأدب الإسلامي في القـرآن والحديث»، و«الحضـارة الإسلاميـة» للمرحوم سيد قطب والأستاذ محمد قـطب وغيرهم. وفيـه أدب السيرة النبـوية والسيرة للصحابة والتابعين ليكـون قدوة شـاخصة أمـام الجيل المعـاصر وكـل جيـل، يتخذون منـه نبراساً يضيء لهم الطريق مثـل ديوان «من وحي النبـوة» للشاعر محمد عبدالغني حسن...»[1].

وفيه أدب التشريع والقيم الإسلامية التي جاء بها الإسلام ليـطور الحياة ويسير بها قدماً دائماً لتحقيق العزة للإسلام والمسلمين ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] مثل: «ديوان الحق المبين» للشاعر خير الدين وانلي[3] وديوان «مع الله»، و«ألوان طيف» للشاعر عمر بهاء الدين الأميري[4].

وفيه أدب الأخلاق الإسـلامية الفـاضلة التي جاء بهـا الإسلام لتقيم بـه الأمة صروحها وحضارتها الحديثة، كما أقام السلف حضارتهم على أسـاسها، ولا زالت شاخصة في التاريخ على الرغم من تقادم العهد بها مثل شعر شـوقي وحافظ وأحمد محرم والرصافي خاصة في قصيدتـه «يقولـون» التي يصور فيـه حضارة الإسلام.

وفيـه أدب التقدم والبنـاء الاقتصـادي والعسكـري والاجتمـاعي لـلأمـة الإسلامية، لتكون أقوى الأمم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[5]، وخـاصة ونحن في عصـر القوة العسكـرية والاقتصـادية والسيـاسية والعلميـة، وما لا يتم الـواجب إلا بـه فهـو واجب، كمـا قال النبي ﷺ: «المؤمن القـوي خيـر وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير».

(١) نشر مكتبة الآداب، ١٣٦٩/ ١٩٤٩.
(٢) سورة المنافقون، الآية ٨.
(٣) منشور عام ١٣٩٩/ ١٩٧٩م.
(٤) منشور عام ١٣٨١/ ١٩٦٢.
(٥) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

وفيه أدب الاعتزاز باللغة العربية وفصاحتها، وأنها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، والشريعة الإسلامية، فالحفاظ عليها حفاظ على القرآن وعلى التشريع، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

وفيه أدب التضامن الإسلامي ووحدة الأمة الإسلامية، التي بها يتحقق النصر على أعداء الإسلام وخاصة الصهاينة والملحدين والشيوعيين والماديين الغربيين ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(٢).

وغير ذلك من مجالات الأدب الإسلامي، التي يلتزم بها في العصر الحديث، فقوة الكلمة مثل قوة السلاح والمال والاقتصاد والسياسة سواء بسواء، وسنوضح ذلك بالتفصيل عندما نتحدث عن مضمونه الإسلامي وأغراضه وخصائصه وسماته التي ينبغي أن تتحقق فيه.

أما التحرر فهو مرفوض كل الرفض في الأدب الإسلامي، لأنه يتنافى مع قيمه وآدابه واسمه وأصوله، ومن أخطر قضايا التحرر على الأدب الإسلامي قضية أثارها المستشرقون وتبعهم تلاميذهم من العرب المستغربين. . . وتلك ألعوبة مسمومة تبنَّاها المستشرقون وروَّجوا لها ووضعوا لها أصولاً وقواعد ونسبوها إلى مذهب أدبي ونقدي معاصر وهو «المذهب الواقعي» وغير ذلك مما سنراه.

ولاهتمام المستشرقين بالعامية واللهجات المحلية المحدودة وحرب اللغة العربية الفصحى أنشأوا لها المدارس والمعاهد، والمجلات والجمعيات وألَّفوا لها الكتب بلغات أجنبية ونقلوها إلى العربية، ووضعوا فيها القواعد والأصول للهجة العامة واللهجات المحلية، حتى تكون لغة مشهورة بأصولها وقواعدها.

واهتم الأوروبيون بذلك فقد أنشأوا في عام ١٧٢٧م مدرسة نابولي للدروس الشرقية باللغة العامية، وفي عام ١٧٥٤ أُنشئت مدرسة فيينا في

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

النمسا للغة العامية العربية، وفي عـام ١٧٥٩م أُنشئت مدرسـة باريس للغـات الشـرقية في فـرنسا، وحـدث مثل هـذا في انجلترا وروسيـا وألمانيـا والمجـر وغيرها.

وكـان أول مؤلف أجنبي بالعـامية هـو «قواعـد اللغة العـامية في مصـر» للدكتور ولهلم سبيتا في عام ١٨٨٠ م، وترجمـات بالعـامية العـربية لمؤلفـات شكسبير، وتراجم للإنجيل بالعامية المصرية، وكتاب «الأكل والإيمان» ورسالة بعنوان «سوريا ومصر وشمال أفريقيا ومالطة تتكلم اليونانية لا العربية»، وغيرها مما ألفه بالعامية وليم ولكوكس المبشر الإنكليزي[١].

وصنع مثل هـذا الصنيع المـدمر المستشـرق الفرنسي لـويس ماسينيـون وتبعه الآباء اليسوعيون في لبنان وسوريا، مثل الأب رافائيل نخلة، الذي ألَّف في الدعوة إلى العـامية، وإلى الكتـابة بـالحروف الـلاتينية لا العـربية، وتبقى العربية لغة المساجد فقط، كما أن اللاتينية لغة الكنائس[٢].

وبـاسم «مذهب الـواقعية» في الأدب العـربي نـادى المستشـرقـون ومَنْ تبعهم بالعامية لا العربية الفصيحة، لتحقيق أهدافهم الهدامة للإسلام وهي:

١ ــ القضـاء على لغة القـرآن الكريم، فـإذا ما اشتغـل العالم العـربي باللهجات العـامية المحليـة المحدودة شق عليهم فَهْمُ القـرآن الشريف وكتب التراث الإسلامي، لأنها تعتمد على اللغة العربية الفصيحة.

٢ ــ قَـطْعُ الصلات بين الشعـوب الإسلاميـة، لأن لكـل شعب لهجتـه الخاصة به، التي تتعلق أمام الشعوب الأخرى، فيتعسَّر عليه فَهْمُهـا والتعامـل بها، فتزداد الجفوة والتباعد بين دول الأمة الإسلامية الواحدة.

٣ ــ بَعْثُ النعرة الجاهلية والعصبية القديمة لكل دولة، فـإنها ستتعصب

---

(١) انظر كتاب التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ، مصطفى الخـالدى، بيـروت ١٩٧٠، كتاب تاريخ الدعوة إلى العامية د. نفوسة ذكريا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٠٤، وغيرهما.
(٢) نفس المراجع السابقة.

لحضارتها القديمة، فالعراق يمجد الحضارة البابلية والأشورية، وسوريا تشيد بالحضارة الفينيقية، ومصر بالفرعونية واليمن بالحميرية، والمغرب بالبربرية، وهكذا كل دولة تنصرف عن الأخرى بالنعرة القديمة.

٤ ـ اللغة العربية الفصيحة لا يستطيع المستشرقون أن يقفوا على أسرارها، ولا أن يصلوا إلى لطائفها ومكنونها البليغ، فهم عاجزون عن فهمها والكتابة بها كما ينبغي، فلا يحسنون التعبير عن أفكارهم وسمومها بها، لذلك لجأوا إلى العامية لسببين:

أولهما: إنها سهلة منقادة لأفكارهم المسمومة.

ثانيهما: إنها تمكنهم من تحقيق الصدارة لهم على العرب الذين يستعملون العامية في مؤلفاتهم، فيظلوا تابعين لهم ومقلدين لا مبتكرين، فهم عيال عليهم.

٥ ـ أنهم يغلفون دعوتهم باسم المذهب الواقعي في الأدب، لأن الواقعية في نظرهم أن يستخدم البطل في القصة لغته العامية في الشارع وكذلك بقية الشخصيات، فيستخدمون اللغة التي يتعاملون بها مع الناس لكي يكونوا واقعيين؛ فالحداد يتكلم بلغة الحدادين، والنجار يتكلم بلغة النجارين، والخباز يتكلم بلهجة الخبازين. . وهكذا.

وتلك مغالطة سافرة ومسمومة في فَهْمِ الواقعية، وليست الواقعية في الأدب كما يزعمون، فالمقصود منها في القصة مثلاً أن تعبر الشخصيات عن مواقفها من الأحداث والحكاية، فالفيلسوف يتحدث بلغته الفلسفية التي تعتمد على المقدمات والنتائج، والزارع بلغته الريفية السهلة المناسبة العذبة الرقيقة، والمهندس بلغة المثلث والمسطرة، والطبيب بأسلوب الوقاية والعلاج، والخادم بلغة التواضع والاستجابة، فلا يصح للخادم أن يتكلم بلغة الفيلسوف، ولا العكس، وكذلك بقية الشخصيات لا تتبادل في مواقفها من الحكاية وإلا تحطمت الواقعية في القصة. فينبغي لكل شخص أن يعبر عن

موقفه بلغة سهلة يفهمها المتعلم والجاهل، والقريب والبعيد، والمتقعر والبسيط، فلغتنا العربية غنية بألفاظها ومترادفاتها ومشتقاتها بما يتناسب مع كل مقام ومقال، فأدب نجيب محفوظ في القصة يقرؤه الجميع ويفهمه العامي والجاهل والمتعلم والمتخصص، وقصص علي أحمد باكثير يفهمها الجميع وهكذا.

والقرآن الكريم قد بلغ قمة الإعجاز والبلاغة، ومع ذلك يفهمه الجاهل والمتعلم، ويستقي منه كل المستويات كلٌّ على قدر إدراكه وفَهْمِه للغة وألفاظها، ولا يتعسَّر الفهم أمام سحر القرآن مهما تسفل في الجهل وعدم العلم.

ومن أخطر مظاهر التحرر في الأدب الإسلامي أيضاً ركوب السهل من الشعر الحر وهو هيام الشعراء المحدثين بشعر التفعيلة لأنه يتناسب مع عجزهم وتبلدهم، وهذا مركب سهل وطيء، ينحدر بهم بعد ذلك لاتباع الأسهل والقريب إلى التكاسل والتبلد، والأخطر من الأسهل استخدام العامية في شعر التفعيلة، ومخالفة الإعراب النحوي، فيلجأ الشعراء إلى تسكين آخر الكلمات هروبا من الإعراب النحوي آخر الكلمات إما عجزاً عن فَهْمِ النحو وتطبيقه، أوعجزاً عن فهم علوم الصرف والاشتقاق واللغة والالتزام بقواعدها وأصولها، حفاظا على استمرار التفعيلة الواحدة في القصيدة إلى آخرها، وسواء أكان هذا أو ذاك فهو انحراف عن الجادة، وإعلان الحرب على اللغة العربية الفصيحة لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والشريعة الإسلامية.

ومن العجيب أن إسرائيل تبذل الجهود والطاقات لإحياء اللغة العبرية، وهي لغة ميتة، ولغة اندثرت بالإسلام خاتم الديانات والرسالات، وكذلك الشعوب الأخرى تحيي لغاتها، وكلٌّ تدفع لغتها إلى أن تسود العالم لتكون لغة عالمية كالانجليزية، والفرنسية والألمانية والروسية وهي لغات رسالة انتسخت برسالة الإسلام، لأنه دين الحياة إلى قيام الساعة. إذا كانت هذه الشعوب تجاهد في سبيل تثبيت لغتها وإحيائها ونشرها، فإن لغتنا، نحن

العرب، وهي جديرة بالشيوع والانتشار والحياة والبقاء والخلود والقوة، ندفعها بأيدينا ونقبرها بألْسنتنا مع أنها لغة الرسالة السامية، والشريعة الخالدة ورسالة الإسلام العامة التي جاءت للبشرية كافة، ولكل الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. كل هذا يدفعنا إلى أن نحافظ على لغة القرآن فنقيم ألسِنتنا على الفصاحة والصواب لنؤدِّي واجبنا نحوها كما أُدت للسلف الصالح ما عليها من حقوق لهم، فردوا لها الصاع صاعين لكي يزدادوا إيماناً بها وحفاظاً عليها وحرصاً، وتركوها لمن بعدهم تحمل تراثاً ضخماً وحضارة راسخة يستقي منها الصديق والعدو.

٦ ـ شعر المناسبات

والمناسبات الأدبية في شعر قضية تناولها كثير من النقاد في العصر الحديث، لأنها ترتبط بالأغراض الشعرية من ناحية، وبالصدق الفني في التجربة الشعرية من ناحية أخرى.

تناول العقاد والمازني وطه حسين في مصر، وعبدالعزيز الرفاعي في السعودية، وغيرهم شعر المناسبات في معارك أدبية ونقدية مع الشاعرين الكبيرين شوقي وحافظ في مصر، وكذلك في مقدمة ديوان الشاعر زاهر عواض الألمعي للأستاذ عبدالعزيز الرفاعي، فقد عارض شعر المناسبات عند زاهر ووصفه بالخطابية، كما أسقط من قبل العقاد والمازني وطه حسين شعر حافظ وشوقي لارتباطه بالمناسبات، فهبط شعرهما عن ساحة الشعر الجيد، الذي يعتمد على الصدق الفني في التجارب الشعرية، والنابعة من ذات الشاعر ووجدانه المفعم بالأفكار العميقة، والمعاني الدقيقة في وحدة عضوية بين الشكل والمضمون.

ولكن العقاد بعد هذه المعارك اعترف بأنها كانت من حماقة الشباب، ولم يتنكر هو ولا غيره لإمارة شوقي في الشعر، ولا للتاج الذي خلع على جبين حافظ وهو «شاعر النيل»، الذي كان يذود عن قضايا مصر الوطنية

والإسلامية ضد أعدائها في الداخل والخارج[1].

والمناسبات في الشعر لا تضعف الصدق الفني في تجاربة ولا تهتـز بها القيم الفنية، لأن الشاعر حينما ينظم قصيدة لا يأتي إليها من فـراغ، بل لا بـد من دافـع يحث الشاعـر على نظم الشعـر ولا يستغني عن مفجـر يشعـل فتيـل العاطفة، حتى تشتد الحركة في المشاعر، وتهتز الأحاسيس، وتموج الخواطر والأفكار لتفيض في وجدان الشاعر بتجربة شعرية.

كانت المناسبات هي المفجر الأول للعاطفة، وهي السبب المبـاشر في بنـاء التجربـة الشعريـة، وتكوينهـا، وتنظيمهـا، واختيار الصـور لهـا، وانتقـاء الألفاظ والأساليب والإيقـاع والموسيقى، حتى تخـرج من النفس في بناء فني هو القصيدة.

فالتجربة الشعرية لا بد فيها من مفجِّر كما وضحنا، وهذا المفجر لا بـد أن يرتبط بمناسبة معينة، تختلف باختلاف الظروف والأحوال التي تتجاوب مع الشاعر في حياته، فيهتز الشاعـر لفكرة، أو مشهـد، أو تثيره مـواقف الإعجاب والبهجة والفرح، فيتجه إلى المدح والـوصف أو الفخر أو الحمـاس وغيرهـا، وقد تثيره مواقف الحزن أو الألم والمعاناة العنيفة في وجدانـه الملتهب، فيتجه الشاعر إلى الرثاء أو الشعـر الوجـداني، أو التأمُّـل الفلسفي أو النفسي وغيرهـا من الأغراض الأدبية.

ولا يستطيع الناقد أن يفصـل بين المفجر للتجـربة، وبين ارتبـاطها بهـا بـالمفجر والغـرض، فجميعها كـانت ثمـرة نـاضجـة للتجـربـة التي استمـرت بمفجـرها، فتقـوم القصيدة حينئـذ على الصدق الفني، ولن يتجـرد الشعر من الذاتية التي يعتمد عليها الشعر الجيد، فالمناسبة لا تمنع من ذاتية الشاعـر في شعـره، لأنها مجـرد مفجر لمخـزون الشاعـر في معاملة نفسـه من الـداخـل،

---

(١) انظر الديوان للعقاد، حصاد الهشيم للمازني، شوقي وحافظ ود. طه حسين، ديوان الألمعيات، المقدمة لعبد العزيز الرفاعي، الأدب الحديث في البلاد العربية.

ولا من خارجها، فهي التي حركت هذا المخزون من منطقة اللاشعور في داخل النفس، إلى مناطق الشعور فيها أيضاً، ليقوم العقل والخيال والعاطفة والوجدان والشعور والإحساس بتنظيم وتعميق وتنسيق هذه التجربة في بناء فني متلاحم ومترابط، كل ذلك داخل ذات الشاعر ونفسه، فإذا نمت التجربة في شكلها الفني خرجت من ذاته في القصيدة.

ولهذا لا يستطيع أحد أن ينكر ذاتية الشاعر في هذا البناء الفني على النحو السابق، ولا تتعارض المناسبة المفجرة للتجربة مع تغني الشاعر بذاته وأحاسيسه ومشاعره، فكلها كانت مخزون نفسه، لا من خارجها، وإنما الذي طرأ على المخزون هو المفجر فقط، وهو ما يطلق عليه بالمناسبة، فهي لا تؤثر على المشاعر الذاتية ولا على الصدق الفني في التجربة.

أما إذا كانت المناسبة التي ينطلق منها الشاعر في نظمه بلا افتعال قوي، ولا عاطفة ملتهبة، ولا وجدان يغتلي، ولا مشاعر فياضة، فهذا لا يُسَمَّى صدقاً لما بينه وبين المشاعر الذاتية الداخلية من حواجز تهبط به إلى النثر الأدبي الذي يكتب بمداد العقل والمنطق، لا بالمشاعر الذاتية، ولا بعاطفة الشاعر ووجدانه، وحينئذ يهبط الشعر إلى درجة النظم والرصف والنثر، أي نثر، بل دون ذلك، فتكون المناسبة حينئذ المعول للشعر ونضارته وحيويته وإبداعه، وهذا ما لا يتصوره الشاعر، ولا يقع في خاطره، إلا إذا كان من شعراء التقليد والرصافين في العصور الميتة الجامدة في الفكر والأدب. وعلى ذلك لا يضر الشعر الإسلامي والأدب بصفة عامة أن يقال في مناسبة إسلامية معينة، بل ستشعل هذه المناسبات الشعور حرارة وتدفقاً وخاصة إذا كانت المناسبة تعين المشاعر على الحماسة مثل الجهاد في سبيل الله، ومحاربة البدع والخرافات، وتحرير القدس الشريف، والثورة على مَنْ يعتدي على المسلم أو على عرضه أو ماله، فتلك مناسبات تؤجج العاطفة في الأدب الإسلامي، ولا تنال من قدره، بل تسمو به إلى درجات الجودة والاقتدار.

موضوعات الأدب الاسلامي
المضمون

تمهيد

والأدب الإسلامي يقوم في بنـائه الفني على المضمـون وعلى الشكل، فـأما المضمـون فنحن بصدده الآن ويضم المـوضوعـات الرتيبـة التي يشتمـل عليهـا الغرض في الأدب الإسـلامي، وتقوم على القيم الإسـلامية والأخـلاقية الفاضلة، والنظام التشريعي في كل مجالات الحياة، ومقتضيات الإنسان.

وليس المقصود أن يحتوي الأدب الإسلامي هو الآخـر على موضـوعات الفقه وأحكام التشريع، ويحتوي على سرْد الأخلاق في القرآن الكـريم والقيم في السنة الشريفة، ويحتوي على موسوعات في السيرة والتـاريخ الإسـلامي. ويحتـوي على موسـوعات في علـم التفسيـر والحديث وعلوم القـرآن الكريم، وبـذلك يتحـول الأدب إلى مكتبة إسـلامية... ليس هـذا هو المقصـود فهذه العلوم موجودة في تراثنا العربي والإسلامي قبل وجودها في العصر الحديث.

لكن الأدب له طريق آخر، واتجاه آخـر، يتناسب مـع طبيعته، ومنهجـه فالفنون الأدبية تمتاز عن سائر العلوم بأنها تتسلل إلى النفس من منافذ عديدة، وهي العقـل والعاطفـة والخيال والشعـور والوجـدان والإحسـاس، عن طـريق العين والسمـع والرائحـة والطعم والـذوق، فالعين تـأخذهـا الألوان وتشـدهـا الحركة في التعبير، والأذن تهتز للموسيقى والإيقاع والتصـوير، والأنـوف تشم

الرائحة الزكية التي تفوح من الأسلوب، والأذن والقلب يشعران بحلاوة الإيمان وطيب الإخلاص.

هذه منافذ عديدة ينفذ منها الأدب، ليصل إلى غايته من قوة التأثير وبراعة الإقناع، سواء أكان الأدب شعراً أم قصة، أم أقصوصة، أم مقالة، أم مسرحية، أم فن السيرة الأدبي، أوخطابة، أو غير ذلك من فنون الأدب المتنوعة، التي تخالف العلوم في اتخاذها طريقاً واحداً، ومنفذاً فريداً في الإقناع وهو العقل وحده. وإن هذا المنفذ واحد للإدراك من المنافذ العديدة له.

وهذا المنهج في الفنون الأدبية لا يحوِّل الأدب إلى موضوعات في العلوم كما وضحنا، وإنما على الأديب أن يستوعب هذه الموسوعات الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وسيرة وتاريخ، وسائر علوم القرآن والتشريع، ويستوعب علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وعلوم للغة وغيرها من سائر العلوم العربية، ويستوعبها كلها قراءة وفهماً وإدراكاً عن حبٍّ واقتناع ومعايشة ومؤاخاة، حتى تمتزج مع نفسه وروحه، وتختلط بدمه وأحاسيسه، لا أن يحفظها عن ظهر قلب، كما يحفظ القرآن، ولا أن يؤلف فيها كتباً علمية.

وإذا ما امتزجت بخواطر الأديب ومشاعره وأحاسيسه، وأصبحت مخزونا في منطقة اللاشعور والشعور معا، فينطلق الشاعر في تجاربه الأدبية، ليعبر عنها ويصورها في فن أدبي، لكن كيف يصورها؟؟ أيذكرها في القصيدة على النسق الفقهي كشروط التيمم وأركان الصلاة مثلاً؟

ليس الأمر كذلك، وإنما يصور سماحة الإسلام ويسره في مشروعية التيمم رخصة بدلا من الماء، لكي يغرس في نفس المؤمن غريزة الطاعة والانقياد لله عز وجل معبوده، وفي أركان الصلاة يصور الغاية التشريعية منها، فهي تصل العبد بربه خمس مرات في اليوم والليلة لكي يجدد العهد مع ربه

في أوقات متفاوتة، وتنزع نفسه من أثقال المادة والحياة في اليوم خمس مرات ليطهر النفس من أعماقها. وكذلك فالصلاة تطهر البدن والثوب من أوساخ الحياة خمس مرات، ليظل المؤمن نظيفاً ظريفاً طاهراً نقياً عفيفاً. وهكذا يتخذ الشعر طريقه في فقه التيمم وأركان الصلاة، وكذا في بقيةالعلوم الإسلامية والعربية.

وفي القصة حينما يصور القصاص مقطعاً من مقطعات الحياة الاجتماعية، أو الحب العفيف الطاهر، يتسلل من خلال الأحداث والحوار ليقوم البطل وقت الصلاة فيصلي بالحاضرين، ويقرأ على أسماعهم آيات من القرآن الكريم، تنمِّي فيهم الأخلاق، وتغرس القيم التشريعية، أو يتسلل القصاص من خلال أحداث القصة والحكاية ليوجه المصلين إلى نواقض الوضوء، ويأمر من صلَّى بوضوء منقوض بإعادة الصلاة بعد أن يتوضأ من جديد ويحسن وضوءه. وهكذا لو أقام الأديب أحداث القصة على هذا النحو بحيث تتسلل بعض الأحكام الشرعية في مواقف مختلفة يفرضها الزمان أو المكان فيها وتقتضيها طبيعة الحدث أو الحكاية، مما لا يؤثر على الحبكة القصصية والفنية في القصة، مثل هذا الصنيع تتمكن الأحكام التشريعية من النفس أيَّما تمكن، وتستقر في أعماقها بلا جهد ولا معاناة وتنفذ إليها من منافذ عديدة لا عن طريق العقل وحده مما لا يتحقق في موسوعات الفقه الضخمة، وكتب التاريخ الجافة.

هذا ما أقصده من منهج الأدب في تناول علوم الشريعة الإسلامية والأخلاق القرآنية والقيم في السنة التشريعية والسيرة والتاريخ الإسلامي، وغيرها من الموضوعات المثيرة من علوم الإسلام، فيصور حكمة التشريع، والغاية منها في بناء الإنسان والأمة الإسلامية بناء حكمة التشريع، والغاية منها في بناء الإنسان والأمة الإسلامية بناء صالحاً، يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة. وأبرز هذه الموضوعات في الأدب الإسلامي، الصالحة له في خصائصها الفنية وسماتها الأدبية هي بإيجاز:

أولاً: القيم الأخلاقية في القرآن والسنة الشريفة

وهـذا الموضـوع يشمل قيمـاً عديـدة جاءت في القـرآن والسنة النبـوية الشريفة، ومن هذه القيم:

الإيمـان بالله هـو المثل الأعلى، حـاجة الإنسـان إلى العقيـدة، مفهـوم الإيمان والعقيدة، معرفة الله تعالى، معرفة العوالم الغيبية، الكتب السماويـة، أنبياء الله ورسله، اليوم الآخر، القضاء والقـدر، وحدة العقيـدة، متاع الحيـاة الدنيا وخطره على الأخلاق، سلطان الغريزة وسلطان الإيمان، انتصار الإيمان على حب الذات والأنانية، فشل الأسـاطير أمـام سلطان الإيمان، أثـر الإيمان في تكوين الضمير، علاقة ضمير المؤمن في مجال الحياة، الضمير ومكانه من الأخلاق، الضمير لا يصلح بلا إيمان، أثر الضمير في أداء الحقـوق الماليـة، أثر الضمير في الاعتراف بالجريمة وتحمُّل تبعاتها من العقوبـات، أثر الضميـر في الالتـزام بالقـوانين وأداء الأمانـات، أثـر الضميـر في الجـوانب السيـاسيـة والتجـارية والاقتصـادية، الإيثـار والأخوَّة والبـذل والتضحية، تعـريـة الفلسفـة المـادية الأخـلاقية، مصـادر القوة عنـد المؤمن هي: الإيمـان بـالله وبـالحق، وبالقدر، وبـالإخلاص في القـول والعمل، وبـالتحرر من الخـوف ومن الشح والحـرص والبخل، وعـدم التواكـل وتداعي الضعف. ومن القيم: الـرحمـة، والعـطف، والمـواسـاة، والـوفـاء، والجـود، والسمـاحـة، والسخـاء والمـودة والمحبـة، وحسن الجوار، وتجنُّب الغيبـة والنميمة، وعـدم اللغو في القـول، والتواضع، ولين الجانب، والعفة، وحسن السلوك، وغيـرها ممـا يبني أخلاق المسلم على أساس من القيم النبيلة.

ثانياً: فقه التشريع في العبادات والمعاملات والعقود

واستخدم فقه التشريع في العبادات والمعاملات والعقود وصحته سابقاً، وهـو بإيجـاز أن تقوم فنـون الأدب بتصويـر آثار هـذه العبـادات والمعـامـلات والعقـود في تهذيب النفس وبنـائها على أسـاس من الأخلاق، ومـدى شمـول

الإسلام في أبواب الفقه لجميع ما يقتضيه النشاط الإنساني في حياة الإنسان وعلاقته مع ربه ونفسه وأسرته ومجتمعه الكبير والعالم من حوله، فيصور الأدب الإسلامي هذه القيم الفقهية التشريعية وأثرها في النفس على النحو التالي:

أثر الطهارة الحسية والمعنوية من الاغتسال والوضوء والتطهير من النجاسة بشتى أنواعها، والتيمم، ولبس الخفَّين، والتطهر من الحدث الأصغر والأكبر والتطهير من الحيض والنفاس والولادة، وتطهير الأواني، وتحريم الذهب والحرير على الرجال والتزين بها للنساء.

ويصور الأدب أثر الصلاة جماعةً أو منفرداً، وصلاة الجمعة والعيدين والاستسقاء والخوف، والحرب، والجنازة، وأثر الصيام، وأثر الزكاة والتكافل الاجتماعي، وأثر الحج والعمرة واجتماع المسلمين في صعيد واحد كل عام.

ويصور الأدب الإسلامي أثر المعاملات والعقود القائمة على نظم التشريع الإسلامي في البيع والشراء والخيار والهبة، والإعارة والإجارة، والمزارعة وإحياء الموات، وتحريم الربا والغش والخداع والغرر، وتحريم الكنز والإسراف والاحتكار، وتحريم استغلال المناصب والجاه، وتحريم التطفيف والبخس، والتلاعب بالأسعار، والسلب والغصب والسرقة، والخمر والميسر والأنصاب والشعوذة والدجالة، وغيرها من المعاملات.

ويصور الأدب الإسلامي في نظام الأسرة في الإسلام القائم على أساس شريعة الزواج وتحريم الزنا، وشروطه اللازمة في صلاح الزوجين، وما لهما من حقوق وواجبات نحو أنفسهما ونحو الآباء والأنبياء مما يحفظ كيان الأسرة ويشيع فيها الأمن والطاعة والسعادة، وكيف عالج الإسلام مشاعر الكراهية والنشوز علاجاً حكيماً قائماً على الخلق الإسلامي السامي، والحكمة البليغة في التعدد والطلاق والحجاب، ووظيفة المرأة في الحياة الزوجية وفي المجتمع الإسلامي.

ويصور الأدب أثر الميراث والوصية في إصلاح الأسرة والمجتمع وموقف الحرية من العقيدة ومبدأ الشورى وحرية التملُّك والتصرُّف وغيرها من سائر المعاملات والعقود في الشريعة السمحاء.

ثالثاً: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم

هذا هو مجال الأدب الإسلامي، فهو رافد قوي للملاحم الإسلامية والمطولات والقصص والمسرحيات، ليصور البطولات الإسلامية في تحمُّلهم الأذى في سبيل إعلاء كلمة الله وللهجرة في سبيله، وكذلك البطولات في جهادهم وغزوهم، والانتصارات الرائعة فيها.

ويصور خلال الرسول ﷺ وعاداته وخصاله الكريمة وآدابه وسلوكه مع أهله، ومع الناس، وسلوكه مع أصحابه رضي الله عنهم، في أخلاقهم وعاداتهم وتصرفاتهم وسلوك الصحابة مع أنفسهم ومع الناس ومع الرعية وخاصة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وقادة الجيوش الإسلامية وشجاعتهم، وعلاقتهم بالجنود وبالأعداء، وما حققوه من انتصارات في الإسلام.

وهذا المضمون مجال خصب للأدب الإسلامي، لما يعتمد عليه من خصائص تلتقي مع طبيعته وهي:

١ ـ اعتماده على مصادر الإثارة والتشويق، والانفعالات والعواطف المتدفقة.

٢ ـ في السيرة ما يشبه الحبكة القصصية وهذه مادة خصبة للأدب.

٣ ـ إن الشخصيات في السيرة مثالية، تستولي على العقل والقلب معاً وتدفع إلى الاحتذاء بها، والسيرة على نهجها.

٤ ـ السيرة تقوم على البطولات والمعاملات الحربية المثيرة، فيجد الأدب فيها مجالاً خصباً وخيالاً عميقاً وتصويراً رائعاً.

٥ ـ القيم والأخلاق التي يستمدها الأديب من السيرة لا ترتبط بنظام فقهي

معين، وترتيب منطقي جاف، ولكن القيم هنا مترابطة نابعة من صور ومواقف ومشاهد متحركة تثري الصور الأدبية بالحركة والحيوية والألوان.

رابعاً: التاريخ الإسلامي

ومضمون التاريخ الإسلامي كالسيرة مادة خصبة للأدب الإسلامي، فإنه يضمُّ بين دفتيه أمجاد الأمة الإسلامية في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والفكرية والعلمية والديوانية، وما حققه التاريخ من بطولات وانتصارات لنشر الإسلام وتعاليمه وتشريعاته في أنحاء العالم، حتى وصل إلى أعماق أوروبا وأقصى الشرق في آسيا، واستجابت هذه الشعوب لحضارة الإسلام وتعاليمه وسياسته وحكمه، وكيف استطاع المسلمون أن ينتصروا على الصليبية في معارك كثيرة، توَّجها النصر الكبير، الذي حققه البطل صلاح الدين الأيوبي.

خامساً: تاريخ الحضارة الإسلامية في العالم

والحضارة الإسلامية بقيمها وتعاليمها مجال واسع وعميق، ومادة مثيرة للأدب الإسلامي، فحضارة الإسلام تشمل:

١ ـ أثر القيم الخلقية في تقدم البشرية ونهضتها منذ عصر الرسالة حتى دخل المسلمون أوروبا.

٢ ـ السموُّ في نظام الحكم الإسلامي، ونظام الشورى والقضاء والسياسة.

٣ ـ القيمَ المُثْلَى في بناء الأسرة والمجتمع بأسمى التعاليم والنظم الاجتماعية مما جعل بناء الأسرة الإسلامية لا نظير له في أي مجتمع آخر.

٤ ـ سموُّ النظام الاقتصادي الإسلامي، حتى شهد له علماء الاقتصاد الرأسمالي والماركسي، والفضل ما شهدت به الأعداء، وتميزه بحضارة راسخة على عدالته، وأسسه، وسماحته، وأركانه، بما يتناسب مع الفطرة الإنسانية من حيث التملك في إطار مقيد لا مطلق، فقد أعطى الإسلام

حرية التملك لكنه قيدها بعدم الضرر للغير وللأمة، وأعطى الحرية الاقتصادية لكنه لم يطلقها بل قيدها بحدود الحلال والحرام، وبمراقبة الدولة للنشاط الاقتصادي الإسلامي، حتى لا يحدث ضرر للآخرين بسبب هذه الحرية، ثم ارتبطت حرية التملك والحرية الاقتصادية بنظام فريد هو التكامل الاجتماعي فهو ركن من أركان الاقتصاد الإسلامي.

٥ - الحضارة العلمية للإسلام كانت سباقة دائماً في العلوم والآداب وفي الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق وعلوم الحياة والطبيعة والجغرافيا والتاريخ، وكان لهذا دور كبير في نهضة أوروبا الحديثة وحضارتها المعاصرة.

سادساً: التضامن الإسلامي

والتضامن الإسلامي هو السبيل الوحيد الذي لا بديل عنه لتحقيق وحدة الأمة الإسلامية، فهو العلاج الشافي لتمزيق الأمة، العافي في ضم شملها وجَمْع أشلائها، وهو السبيل الوحيد لتحقيق ما يلي:

١ - الحفاظ على القرآن الكريم والحديث الشريف المصدرين الأساسيين.
٢ - الحفاظ على التراث الإسلامي والعربي.
٣ - الحفاظ على أمجاد التاريخ للأمة الإسلامية.
٤ - الحفاظ على ثروات الأمة الإسلامية في مختلف الدول.
٥ - الحفاظ على ثروات الأمة الإسلامية، ومَنْع العدو من استغلالها لصالحه أو ضد الإسلام والمسلمين.
٦ - الحفاظ على كرامة المسلم وحريته في أي موقع من مواقع العالم.
٧ - مواجهة أعداء الإسلام صفًّا واحداً ضد الصهيونية والماركسية والمادية المسرفة.
٨ - مواجهة المستشرقين والمستغربين صفًّا واحداً، الذين غزوا تراثنا الإسلامي والعربي بالسموم والتضليل.

٩ ـ مواجهة الحرب الداخلية التي يدبرها ضعاف المسلمين باسم الإسلام كأصحاب الفرق الضالة، وأهل البدع والخرافات.

وهذه مادة خصبة وثرية تتفجر عنها تجارب الأديب في الأدب الإسلامي، لينمي في المسلم غريزة المقاومة والتضامن والوحدة كما حققها السلف الصالح في صدر الإسلام.

سابعاً: مواجهة حرب اللغة العربية

ما دام للإسلام أعداء يتربصون به، فلن يغفلوا لحظة عن حرب اللغة العربية، لأنهم فشلوا في الحروب الصليبية. فتحولوا إلى حرب لغة القرآن الكريم، للقضاء على شريعة القرآن، فتتوجه الأموال التي تنفق على الحروب إلى القضاء على اللغة العربية، فهي امتداد للحروب الصليبية لكن في شكل دبلوماسي جديد لِمَحْو القرآن من صدور المسلمين لتحقيق أهدافهم من الغزو الفكري وهي:

١ ـ القضاء على لغة القرآن لمحو القرآن من صدور المسلمين، فلا يحسنوا قراءة القرآن وحفظه.

٢ ـ عدم فَهْم التراث العربي الإسلامي، لأنه مدوَّن باللغة العربية.

٣ ـ قَطْع الصلة بين الدول العربية لسيطرة اللهجات العامية عليها، فيكون من العسير على كل دولة أن تفهم لهجة الأخرى.

٤ ـ إحلال المدنية الغربية الفاسدة محل الحضارة الإسلامية عن طريق سيطرة لغاتها الأجنبية.

٥ ـ العودة بالدول الإسلامية إلى النعرة الجاهلية الأولى، لكي تعتز كل دولة بلغتها القديمة وحضارتها الذاهبة، فإيران تمجد الفارسية، والعراق البابلية والأشورية، والشام الفينيقية، ومصر الفرعونية، والمغرب البربرية.

وهذا مجال خصب للأدب الإسلامي، يجول الأديب في آفاقه الواسعة

بخياله وفكره الإسلامي، ليصور هذه المعركة بين الإسلام وأعدائه ويحذر المسلمين من الصور الجديدة الدبلوماسية للحروب الصليبية، فهي امتداد لها، واستمرار للحقد على الإسلام، ولتظهر من خلال الأدب الجيد أسرار اللغة العربية وجمالها وثرائها بالمعاني والأفكار والألفاظ والمترادفات والأساليب والصور، وشمولها وإحاطتها بما يحتاجه الإنسان في حياته وتجاوبه مع المخترعات الحديثة، والتقدم العلمي لنرد على أعداء الإسلام زعمهم بأن لغتنا ليست قاصرة كما يدعون فهي تتَّسع لكل جديد.

ومن القصائد المشهورة في الدفاع عن اللغة العربية قصيدة حافظ ابراهيم «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها» وغيرها في الشعر العربي لكنها قصائد تعد على الأصابع.

وفي التزام الأدب الإسلامي للغة العربية الفصيحة واستخدام صورها البليغة، رَدٌّ بليغ وعملي على دعوة العامية التي أزهقت اللغة الفصيحة في الأونة الأخيرة، ولا نتوانى لحظة في شن الهجوم على العامية ومحاربتها، حتى تعود الفصحى إلى وجهها المشرق، وإلى ساحة الأدب الإسلامي الرفيع، كما كانت في العصور القوية المزدهرة، حين سيطرت على لغات العالم، وحلت محل الفارسية والرومية والقبطية والبربرية واللاتينية وبقية اللغات الأجنبية الأخرى.

ثامناً: حل مشكلات المسلمين في أنحاء العالم

أصبح المسلم في رحمة التيار المادي العنيف ضعيف المقاومة ضد المادية والإلحاد والعلمانية والانحراف، لخضوع نفسه أمام المغريات المدنية، والمادية الحديثة باسم التقدم والرقي والحضارة، فتهتز القيم الإسلامية فيه ويخرُّ صريعاً وهو يلهث وراء المادية الفاسدة، هذا ما يعانيه المسلم الضعيف في جميع الساحات الدولية، سواء أكان داخل بلاد المسلمين أو كان خارج بلاد المسلمين.

هـذه مادة غـزيرة الفكـر للأدب الإسـلامي يتَّخذ منهـا روافـده وصـوره الخيالية الرائعة يصور بها أحوال الشعوب التي قتلتها المادية وأضلَّها الإلحاد، وهبطت بالإنسانية إلى مستوى الوحـوش في الغابـات يأكـل القوي الضعيف، كما يصور الأدب الإنسـان الراقي الـذي سمت به القيم الإسـلامية إلى درجـة العزة والقوة والإنسانية بصفة عامة. . . مجال عميق خصب يغوص فيه الأديب ويعطي عطاء ثراً، وفيضاً زاخراً، يسمونه أدبنا العربي الإسلامي الحديث.

تاسعاً: محاربة التخلُّف الثقافي

إذا كانت الحضارة الإسلامية قد أشادت بالعلم والمعرفـة، ودور التربيـة والتعليم من يـوم أن كـان مسجـد النبي ﷺ هـو المـدرسـة والجـامعـة للتعليم والتـدريس إلى أن تعـددت دور العلم والمـــدارس والجـامعـــات في حضـارة الإسلام، فكانت أول جامعة إسلامية علميـة هي جامعـة الأزهر بنيت في ظـل حضارة الإسلام لتنشر العلم والمعرفة والحضارة الإسلامية، ثم تتابعت بعدهـا الجامعات الإسلامية ممثلة في جامعة الزيتونة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسـلامية، والجـامعة الإسـلاميـة بـالمـدينـة المنـورة، وجـامعـة أم القـرى، والجامعات الإسلامية بالجزائر والسودان والباكستان وغيرها.

وإذا كانت حضارة الإسلام قد اهتمت منذ بدء الدعوة حتى الآن بـالعلم والتعليم، فـإنها تهتم كثيـراً بنشر الثقـافة العـامـة، والتـرويض على التجـارب والخبرة من الحياة، فالمسلم في الإسلام صـاحب خبرة وتجـارب في الحياة، وهـو فطن، لا غبي بليـد، يتلقَّف كل مـا حولـه بنهم الخبيـر الـذكي، ليكـون جنـديًّا صـالحاً في بنـاء المجتمع الإسـلامي يقـول النبي ﷺ: «المؤمن كيِّس فطن» عبارة موجزة جـامعة بليغـة، لكنها تحمـل كل التيـارات الثقافيـة، التي يثقف بها الإنسان نفسه، ولو كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ ما يكتب.

ويحارب الإسلام مشكلة الأُمية في كل عصـر منذ البعثـة حتى الآن من أجل رفع المستوى الثقافي للمسلم.

ويثقف المسلم أيضاً بلغات الأعداء «من علم لغة قوم أمن مكرهم»، ويثقف المسلم بمعرفة الجديد وكل جديد في شتى المجالات العلمية والاقتصادية والحربية، ليكون المسلم واعياً مدركاً لكل تيار ثقافي بناء للأمة الإسلامية، لتكون قوية عزيزة الجانب.

هل يجد الأدب الإسلامي مجالاً أخصب من هذا المجال، لينصرف عن تصوير الغزل والمجون واللهو والعبث؟ إن ثراء الفكر الأدبي بهذه الجوانب المتشعبة للتخلف الثقافي هو مادة خصبة لنهضة الأدب الإسلامي في العصر الحديث.

عاشراً: حرب البدع والخرافات والفرق الضالة

أعان أعداء الإسلام المسلمين على نشر البدع والخرافات والضلالات، ودفعوا بعضهم للخروج على جماعة المسلمين، ليعودوا بهم إلى العصور المظلمة، التي أفلت منها النهضة في أوروبا.

وعلى الأدب الإسلامي أن يجد في ذلك، الثراءَ الفكري، لتصوير القبيح من البدع والخرافات والفرق الضالة في صورة تتقزز منها النفس لينصرف عنها المسلم، فهو أشبه بالهجاء في أدبنا العربي، ولكنه ليس هجاءً هداماً مدمراً، فهو هجاء للبناء والتعمير والإصلاح والتقدم والرقي. فالخيال بارع بصوره الأدبية لتصوير القبيح والجميل في صورة بنّاءة لا مدمِّرة. وقد ادَّعى نقاد الغرب بالباطل بأن ديوان «زهور الشر» لبودلير، لا يحث على الشر، وإنما ينفر منه، وهذه دعوى باطلة. فكيف إذا صور الأدب الإسلامي القبيح من البدع والخرافات ـ وهو على حق لأنه يهدمها ـ للبناء والصلاح، ولا ينشرها كما نشر بودلير الشر في زهور يانعة متفتحة؟!

حادي عشر: مواجهة العدو الصهيوني

ينبغي أن يكون الأدب الذي يقال في معركة اليهود والصهاينة أدباً إسلامياً صرفاً، لا قومياً، ولا وطنياً، لأن قضية مواجهة اليهود والصهاينة قضية

إسلامية قديمة، بدأت مع الرسول والصحابة في المدينة المنورة، وتطورت أشكالها المختلفة من السبئية بالنسبة لعبد الله بن سبأ إلى جمعية أبناء العهد، إلى الصهيونية العالمية الآن، واتخذت هذه الأشكال المختلفة من عصر إلى عصر لهدف واحد فقط، وهو حرب الإسلام، لا الاستيلاء على فلسطين ولا على القدس، ولا على وطن عربي إسلامي.

وهو مجال ثري خصيب للأدب الإسلامي في العصر الحديث وقد نجح بعض الشعراء في تخصيص أدبه لهذا الجانب المقدس في الأدب الإسلامي الجديد، وكتبوا أروع القصائد والقصص، ولكن الذي لم يتناولوه في أدبهم أنهم لم يربطوا هذه القضية بقيم الإسلام وحضارته القديمة، وبقضية الحرية في الإسلام، لا الحرية العصبية ولا الوطنية.

ثاني عشر: مواجهة التبشير الصليبي المسيحي

واتخذت المسيحية وسائل عديدة للتبشير بالمسيحية للسيطرة على اقتصاد العالم، وتوجيه موارد الشعوب إليها، حتى تظل ضعيفة منهوكة محتاجة دائماً إليها وإلى صناعاتها ومخترعاتها ولتكثر عدد دول المسيحية لتضاعف أصواتها في الهيئات الدولية، للتصويت ضد قضايا المسلمين والعرب وللقضاء على حضارة الإسلام وعلى العقيدة الإسلامية لتحل محلها حضارة الغرب الزائفة.

والأدب الإسلامي من أقوى الوسائل لمواجهة حركات التنصير ووسائل التبشير، وكشف النوايا الخبيثة والتيارات المدمرة، وتعرية سمومها وأفاعيلها لكل مسلم عن طريق صور الأدب الإسلامي الرائعة التي تتسلل للعامي والمتعلم فيحصن نفسه من المد الصليبي، ويعبئها بالطاقات التي يوجهها لحرب عدوه أينما كان.

ثالث عشر: مواجهة الإلحاد الماركسي المادي الشيوعي

والإلحاد الماركسي المادي الشيوعي هو الشكل الجديد للصليبية، والأسلوب العصري الحديث للقضاء على الأديان بصفة عامة، وعلى الخطر

الإسلامي كما يقولون بصفة خاصة. وأنا أقول هو الشكل الجديد للصليبية، لأن الماركسية والصليبية متفقتان معاً على حرب الإسلام، ليظلاَّ هما المسيطرَيْن على العالم خوفاً من تعاليم الإسلام وسرعة تأثيرها وانتشارها.

واتخذت الشيوعية كل الوسائل للسيطرة على الأمة الإسلامية بشتى الجوانب العلمية والعسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، لتحقيق أهدافها المدمرة.

والأديب المسلم في حاجة إلى معرفة الثغرات الضعيفة المنهارة في الشيوعية، التي تتجافى مع فطرة الإنسان المستقيم، وما أكثرها وما أوهن النظرة المادية الماركسية، لأنها أثبتت فشلها في بلادهم، وفي هذه المعارف أفكار ثرية ومضمون حي، ليتخذها الأدب الإسلامي مادة قوية، لتعرية المادية الماركسية وتصوير الانهيار فيها، مع إبراز الصور المشرقة لسموٍّ الاقتصاد الإسلامي، الذي اعترف به علماء الاقتصاد في الغرب، وأكدوا بأنه هو المذهب الاقتصادي الثالث الذي سيسود العالم، رضيت الرأسمالية أم لم ترْضَ، ورضيت الشيوعية أم لم تَرْضَ، لأنه نظام صالح للحياة، هذا قول العالم الاقتصادي الفرنسي «جاك اوستري» وقول المستشرق الفرنسي «رايموند شارل»[(١)].

لا شك أنها مادة خصبة جديدة معاصرة طريفة لأدبنا الإسلامي يثري مضمونه بهذا الفكر الجديد وبالنظريات الأجنبية الجديدة.

---

(١) الإسلام والتنمية الاقتصادية، ترجمة نبيل صبحي الطويل، دار الفكر، دمشق.

التصوير الأدبي

التصوير الأدبي في الأدب الإسلامي ينبغي أن تكون له خصائصه الفنية الأصيلة، التي يتميز بها عن غيره، وهذه الخصائص العريقة، لا بدَّ من توافرها على النحو التالي:

خصائص الكلمة والأسلوب والنظم

أما **خصائص الكلمة** الفنية فهي:

١ ـ أن تكون صحيحة في الاشتقاق والإعراب فصيحة، لا عامية ولا سوقية ولا أجنبية، جزلة، فخمة، سهلة، عذبة، واضحة.

٢ ـ أن يكثر الأديب من استعمال الألفاظ التي تدل على مصطلحات اشتهرت في علوم الشريعة الإسلامية، مثل: مصطلحات الفقه والتفسير والحديث والسيرة والتاريخ الإسلامي وحضارته.

٣ ـ أن تأخذ مكاناً من الأسلوب والتصوير لتوحي من خلاله بمعان كثيرة، وإيحاءات تشع منها الروح الإسلامية.

٤ ـ استعمال الألفاظ والأسماء التي تدل على الخلفاء والأعلام والأبطال والقادة والعلماء والمؤرخين والمفسرين والمحدثين، وأصحاب السير وغيرهم في الإسلام ممن كان له دور كبير في نَشْرِه والجهاد في سبيله.

وأما **خصائص الأسلوب** والنظم فهي :

١ ـ أن يكون الأسلوب محكماً والنظم دقيقاً على غرار ما جاء في القرآن من نَظْم بديع، وما جاء في الحديث الشريف من روعة البلاغة في جوامع الكلم، وبهذا تَطْغَى روح القرآن والحديث على الأسلوب والنظم.

٢ ـ عدم التعقيد والتقعُّر في النظم والأسلوب، وإنمايقوم على النسج الرصين الذي يشفُّ عن وضوح المعنى وجلاء الفكرة.

٣ ـ الاقتباس في الأسلوب والنظم من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين وعبارات كبار العلماء المحدثين والفقهاء والمفسرين.

٤ ـ تجنُّب الأسلوب الخطابي في الشعر والقصة وفن السيرة الأدبي، والاهتمام بالأسلوب التصويري، وتجسيم المعاني والأفكار في صور محسة من الواقع والحياة.

٥ ـ تجنُّب الأسلوب التقريري الذي يعتمد على سَوْق المقدمات للوصول إلى النتائج والبراهين، فهذا أسلوب لا يتفق مع طبيعة الأدب والشعر، الذي يعتمد على الخيال وروعة التصوير، والتجسيم والتشخيص وبعث الحياة والحركة في المشاهد والأحداث.

وأما **خصائص الخيال** وصوره الأدبية فتكون على النحو التالي :

١ ـ عدم جموح الخيال، فلا بد أن يسير الخيال مع العقل في توازن، فلا يطغى الخيال على وزن العقل، ولا يطغى العقل على جموح الخيال، بل يحلق الخيال لاصطياد الصور ليضبطها العقل وينظمها، ويهذبها ويخرجها في صورة بديعة مقبولة في عرف العقل والواقع.

٢ ـ أن يكون الخيال مقيداً بالفكر الإسلامي، لينسج عنه صوره الأدبية من استعارة وتشبيه ومجاز وكناية من التراث الإسلامي العريق، الغني بصوره

الأدبية الرائعة في الشعر الإسلامي القديم وفي كتب التفسير وشروح الأحاديث وفي السيرة والتاريخ وحضارة الإسلام الزاهرة.

٣ ـ ارتباط صور الخيال بالتصوير القرآني المعجز فيقتبس الشاعر صور القرآن في شعره والقصاص في قصصه، وينسج صوره على غرار نَظْمِ القرآن المجرد من الخيال، لكن إعجازه في النظم أقوى من صور الخيال المجنحة.

وكذلك ارتباط الخيال بصور الحديث الشريف، وخاصة جوامع الكلم البليغة، وعلى الأديب الإسلامي أن يقتبس الصور البليغة من الحديث الشريف، لتكون في شعره وقصصه.

٤ ـ أن ينسخ الخيال صورة من الغزوات والمعارك الإسلامية والبطولات الرائعة فيها كالشعر الذي قيل في غزوات الرسول ﷺ ومثل قصيدة «عمورية» لأبي تمام وغيرها، فإن في انتصارات الإسلام صوراً رائعة، تسمو بالشعر والأدب إلى أقصى غايات الجودة والإبداع، ومَنْ يرجع إلى السيرة العطرة، وتاريخ الحضارة الإسلامية والمعارك المظفرة يجد الثراء الضخم، الذي يتخذ منها صوره الرائعة.

وأما **خصائص الإيقاع الموسيقي** فهي:

١ ـ اختيار الكلمة ذات الجرس القوي والإيقاع العذب، فلا تجتمع في الكلمة الحروف المتنافرة في النطق، والمتناقضة في أصواتها على السمع.

٢ ـ أن يقوم الأسلوب على النظم الذي يتوخى فيه الأديب معاني النحو، فلا يحدث تنافراً ولا تناقضاً بين الكلمات، ولا بينهما وبين معانيها، وهذا ما يسمى بالموسيقى الخفية والإيقاع الداخلي للشعر.

٣ ـ مراعاة العمود الشعري في الوزن والقافية، ليستمرَّ الأدب الإسلامي محافظاً على التراث العربي، حينما يتخذ بحور الخليل بن أحمد نظاماً له

في شعـره، فلا يخـرج عنهـا إلى قعـر التفعيلة الهـابط، ويتخـذ القـافيـة الخليلية والواحدة في حرف الروي منهجاً لـه في القصيدة حتى لا تكـون قافيتها أشتاتاً لا يجمعها رابط، ولا تنتهي عند إيقاع منسق رتيب، كما هـو الحال في الشعر المرسل، الـذي خرج على العمـود العربي في الشعـر، ثائراً على التراث القديم.

٤ ـ وتعتمـد الموسيقى في القصـة والأقصوصـة والمسرحيـة وفن السيـرة على الحبكة القصصية في نمو الأحداث وتطورها، فينبع الحدث من الحدث، والحكاية من الحكاية في تسلسل واقعي ونمو مطرد، فلا يقدم حدثـاً على آخر، بل يضـع كلا في مـوضعه، فهـذا يعين على التنسيق بين الأحداث فيوحي بالإيقاع الرتيب لهـذه الفنون الأدبيـة النثريـة، ومما يقـوي الإيقاع فيها أيضاً الحوار القصصي أو انسياب السـرد مع المـوضوع، الـذي ينمو من خلال الأحداث، فيعد هذا رافداً قوياً من روافد الإيقاع الموسيقي.

أما الإيقاع والموسيقى في المقال الأدبي فيقومان على انسياب التصويـر وسـلاسته في التعبيـر، وقصر الفقـرات والجمل، واختيـار الكلمات، وروعـة النظـم، وتنسيق الأسلوب.

هـذه هي الخصائص الفنيـة التي ينبغي أن تتـوافـر في مـوسيقى الأدب الإسـلامي وفي فنونـه الأدبية المتنـوعة من شعـر وقصة ومسـرحية ومقـال وفن السيرة الأدبي.

الأغراض الأدبية... في الأدب الاسلامي

تمهيد

اشتهر الأدب وخاصة الشعر بأغراض أدبية كالمدح والوصف والغزل والهجاء والاعتذار وغيرها، والأدب الإسلامي لا بد أن تكون له أغراضه الأدبية، التي تتسم بها، ويتميز بها كل غرض عن الآخر، وهذه الأغراض منها ما هو قديم ورد في الشعر الإسلامي القديم والحديث على السواء مثل شعر الأخلاق والقيم الإسلامية، ومثل شعر الجهاد، وشعر الحضارة الإسلامية، وشعر الدعوة الإسلامية والشعر الوطني.

وهناك أغراض أخرى جديدة ينبغي أن يسلكها الأدب الإسلامي الحديث، ومن أهمها:

١ ـ شعر التكافل الاجتماعي.
٢ ـ شعر التضامن الإسلامي.
٣ ـ شعر التأمل والطبيعة.
٤ ـ شعر البناء النفسي للفرد والأسرة.
٥ ـ الأناشيد الدينية.
٦ ـ رثاء الزعامة الإسلامية.

وسنوضح الخصائص الفنية للأغراض كلها، قديمة كانت أم حديثة، لتكون مجالاً خصباً للشعر الإسلامي.

وليست هذه الأغراض صالحة للشعر فقط، بل هي أغراض للنثر الأدبي الإسلامي في القصة والأقصوصة والمقالة والمسرحية وفن السيرة الأدبي فيبني الأديب قصته على غرض الجهاد في سبيل الله والتضحية حتى يتم النصر للقدس الشريف، ويصور سماحة الإسلام وعدالة تشريعه، مثل أقصوصة «جريمة» للأديب خالد خليفة، أو يبني الأديب كتابه في فن السيرة الأدبي على عبقرية من عباقرة الصحابة رضوان الله عليهم مثل عبقريات العقاد وغيرها التي اشتهرت في فن السيرة الأدبي، أو كتابة حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل، ومثل قصص من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي وكتاب «فأين الله؟» للكاتب محمد حسين الحمصي، وهو قصص إسلامي من التاريخ تمثل صيحة عبد الله بن عمر في جوف الصحراء، وغير ذلك من فنون النثر الأدبي، مثل أدب سيد قطب وتصويره الأدبي الرائع للفكر الإسلامي والشريعة السمحة ومن أهم هذه الأغراض هي:

أولاً: القيم التشريعية الأخلاقية

سبق أن عرضنا موضوعات القيم التشريعية والأخلاقية التي يقوم عليها هذا الغرض الأدبي، فيصور الشاعر آثار العبادات والمعاملات والعقود في بناء الأخلاق الفاضلة، كما يصور المكارم والمحامد والمثاقب، فمادة الأخلاق الفاضلة، واسعة تشمل القرآن كله، بما يحوي من قيم وعبادات وتشريع ونظام دقيق للحياة كلها. فحينما سئلت عائشة عن أخلاق النبي ﷺ قالت رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن الكريم»، وشعر القيم والأخلاق قديم، فلصالح عبد القدوس، ولأبي العتاهية الزاهد شعر في ذلك. أما الشعر الحديث فنجد شعراء كثيرين منهم شوقي، وحافظ، والماحي، وعامر بحيري، وسيد قطب، وغيرهم.

وقد خصص الشاعر خير الدين وانلي ديواناً كاملاً لشعر الأخلاق والقيم التشريعية، وسماه ديوان «الحق المبين»[1] ومن قصائده: «تجار القرآن» و«دنيا النفاق» و«المرأة في الإسلام» وغيرها.

وكذلك الشاعر الخطيب في ديوان خصص فيه جانباً كبيراً لشعر الأخلاق الإسلامية[2]، وديوان «مع الله» و«ألوان طيف»[3] للشاعر عمر بهاء الدين الأميري، الذي صور فيهما القيم الإسلامية وأخلاق القرآن وغيرهم من الشعراء المحدثين الذين لهم شعر غزير في هذا الغرض.

ثانياً: الحضارة الإسلامية

وهو الشعر الذي يتناول حضارة الإسلام المعنوية والمادية في القديم والحديث، مثل حضارة المسلمين التي حلت محل الحضارات الزائفة في الروم والفرس، وفي إسبانيا وبلاد البلقان، وللشاعر أحمد شوقي شعر في الحضارة الإسلامية مثل ديوان «دول العرب وعظماء الإسـ
١
«السينية»، التي صور فيها حضارة المسلمين في الأندلس، وللشـ
بهاء الدين الأميري شعر كذلك منه قصيدته «غربة روح» في تصوير الحضارة الأندلسية.

وكذلك ديوان «من وحي النبوة» للشاعر محمد عبد الغني حسن[4]، وديوان «من إشراقات السيرة الزكية» للشاعر عزيز أباظة[5].

ثالثاً: التكافل الاجتماعي

ويصور الشاعر أهداف الإسلام من التكافل، فهو ركن من أركان الاقتصاد الإسلامي السامية، كما يصور مجالاته الكثيرة في بناء الحياة

(١) طبع عام ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، صفحات ٢٣، ٢٧، ٢٨.
(٢) دار المعارف، ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩ م.
(٣) ألوان الطيف، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٨.
(٤) مكتبة الأداب، ١٣٦٩/ ١٩٤٩.
(٥) مكتبة النهضة، ١٣٩١/ ١٩٧١.

وتعميرها، وإصلاح النفس البشرية وتقويمها من الحرص والبخل عند الغني، ومن البغضاء والحسد عند الفقير، ويصور آثاره البناءة في الاستثمار والانتاج وتشغيل العاطلين، وتقريب الفوارق بين الأفراد، وإشاعة الأمن والطمأنينة والرخاء في أمة الإسلام. وفي هذا شعر كثير نظمه الشعراء قديماً وحديثا.

رابعاً: التضامن الإسلامي

وهو الشعر الذي تجتمع له كلمة المسلمين حين يعتصمون بكتاب الله عز وجل، ويسيرون على هدى الرسول محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، ليصير المسلمون أمة واحدة. وما أحوجنا إلى التضامن والوحدة الإسلامية، فأعداء الإسلام يتربصون بنا، سواء المادية المنحرفة، أو الإلحاد، أو الصهيونية لكي نطهر الإسلام من هؤلاء ونردَّ القدس الشريف ثالث الحرمين إلى الأمجاد الإسلامية، كما كان في عهد السلف الصالح. وشعر التضامن الإسلامي والوحدة الإسلامية غزير في أدبنا العربي القديم والحديث مثل ديوان «مجد الإسلام»، و«الإلياذة الإسلامية» للشاعر أحمد محرم، وديوان «دول العرب وعظماء الإسلام» للشاعر أحمد شوقي وغيرهم.

خامساً: البناء النفسي للفرد المسلم

والدراسات الحديثة في علم النفس والاجتماع تناولت هذا الجانب لضبط السلوك النفسي، والإسلام جاء بالتعاليم السمحة والقوية، التي تبني المسلم بناءً قوياً صحيحاً، قائماً على أساس سليم من العقيدة الصحيحة الخالدة لا على أساس نظريات بشرية تتساقط الواحدة بعد الأخرى، مثل نظرية «التطور» ونظرية «التحليل النفسي» وغيرهما مما أثبت العلم الحديث فشلها، لأنها أدت إلى انحرافات وأمراض نفسية تفشت للقضاء على النفس لا لبنائها، كما كان أصحابها يزعمون، وهنا يأتي دور الأدب الإسلامي لبناء المسلم بناء صحيحا وقويا من خلال القيم الإسلامية التي جاءت بها الشريعة.

سادساً: البناء الاجتماعي للفرد والأسرة

لم تأت شريعة مثل شريعة الإسلام، التي وجهت تعاليمهم إلى بناء الفرد الاجتماعي والأسرة، ليقوم على أساس راسخ قوي، فأعطى للفرد من الرعاية والحفظ والتعليم والغذاء والكساء وحسن التربية والسلوك، ونموٍّ الغرائز في نفسه منذ الصغر، كغريزة الخوف والمراقبة والمحبة والتدبر في ملكوت الله عز وجل، ثم وضع له التشريع الذي يقيم المجتمع الصغير وهو الأسرة على أروع نظام، فوضع له الحقوق والواجبات، وعالج المشاكل، ومشاعر الكراهية والنشوز، وقاوم الغريزة الجنسية بالتعدُّد والطلاق، وغير ذلك مما جاء في التشريع الإسلامي لبناء الفرد الاجتماعي حتى يكون لبنة طيبة وصالحة في بناء الأسرة والمجتمع، وهذا الغرض الأدبي ينبغي أن يكون له دوره الكبير في أدبنا الإسلامي الحديث، ليقاوم الدراسات والنظريات الغربية المعادية للإسلام.

سابعاً: الدعوة الإسلامية

وهو غرض أدبي يعرض فيه الشاعر سماحة الإسلام ويسره وبساطته، وإنه دين العقل والقلب معاً، ومما يدل على سماحة الإسلام في تشريعاته في العبادات والمعاملات كالتخفيف والرخص، ورفع الحرج والضيق، والنهي عن الضرر وإباحة الضرورات، وغير ذلك مما يدل على يسر الإسلام، حتى تحول الغزاة الجبابرة من المغول والتتار إلى دعاة مصلحين وحكام مسلمين. وعلى الأدب الإسلامي الحديث أن يتخذ من هذا الغرض مجالاً واسعاً لشعر الدعوة إلى العقيدة الإسلامية ونَبْذِ غيرها من المذاهب والاتجاهات المدمرة الهدامة للإنسان الحديث.

ثامناً: شعر الجهاد في سبيل الإسلام

وهو الغرض الأدبي الحي الذي يلازم الإسلام منذ البعثة إلى قيام الساعة ما دام له أعداؤه... والجهاد يكون بالكلمة والمال والنفس والروح

والعتاد والسلاح، ولكل منها مجاله، الذي شرعه الله عز وجل. وشعر الجهاد يحفز المسلم أن يجند نفسه وماله للدفاع عن عقيدته وماله وعرضه، وهو بطبيعته تتفجر منه العاطفة المتحجرة، وتنزف منه المشاعر الجامدة.

وقد كان للشعر الحديث أيضاً دور كبير في هذا الغرض الأدبي للشعراء، مثل: ديوان «من وحي فلسطين» للشاعر عمر بهاء الدين الأميري، وكذلك له ديوان «ملحمة الجهاد»، وديوان «ملحمة النصر في ١٠ رمضان». وكذلك للشاعر زاهر عواض الألمعي ديوان «على درب الجهاد» وللشاعر عبد الرحمن عشماوي ديوان «أمتي»، و«ديوان الخطيب» لشاعر النهضة العربية الخطيب وديوان «شرارة الثأر» للشاعر ابراهيم الدامغ، وديوان «الأرض المباركة» للشاعر عدنان النحوي، وغيرها من الدواوين الكثيرة في شعر الجهاد.

تاسعاً: الشعر الوطني

وهذا الغرض الأدبي من الأدب الإسلامي أيضاً، لأن الشاعر فيه يدافع عن قطعة من أمة الإسلام، ودولة من دوله حينما يتغنى الشاعر بحب الوطن، ويحن إليه، ويبذل في سبيله كل غالٍ وثمين، فإذا ما أحب الإنسان وطنه الصغير، فإنه بدافع الأخوة الإسلامية يجب أن يدافع عن وطنه الكبير وهو وطن الأمة الإسلامية.

عاشراً: التأمل في الطبيعة

ومظاهر الطبيعة والحياة آيات من آيات الله عز وجل، تدل على قدرته ووحدانيته، وعلى الأدباء والشعراء أن يتأملوا فيها ويقفوا على أسرارها العجيبة، التي تذهل العقول، وتستبد بالقلوب والأفئدة، فيزداد المسلم إيمانا على إيمانه، وقوة في عقيدته على قوته، وهي مجال خصب للتعرف على الله عز وجل من خلال آياته العجيبة في الكون والحياة، وهذا الغرض يعطي للأدب الإسلامي عطاء موفوراً في شعر قوي عميق.

ومن هـذا الشعر ديـوان «نداء السحـر» للشاعـر محمد سليمـان الشبل، وكثيـر من القصائـد للشاعـر عمر بهـاء الدين الأميـري، منها قصيـدتـه «شبـح الخريف» يتأمل الشاعر فيها آيات الله في الكون[1].

حادي عشر: رثـاء الزعامات

والمقصـود من الرثـاء هنا الـزعامـة الإسلاميـة، التي جندت نفسهـا في سبيـل الله للدفـاع عن الإسـلام ونشـره، ووهبت حيـاتهـا في سبيـل الحكم والسياسة أو العلم والتعليم في جهـادٍ في سبيله حتى قضت نحبها. وفي هـذا اللون من الأدب حافز كبيـر لدفـع الزعـامات السيـاسية والعلميـة إلى أن تبذل ما في وسعها من طاقات في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين في جميع أنحـاء العـالم. ومن هؤلاء الزعـامات الحـديثة، التي أدت واجبهـا على أكمل وجـه المغفور له الملك فيصل طيّب الله ثراه، فكـان له دور كبيـر في نشر الإسـلام والدفاع عنه وحمايـة مقدسـاته ممـا شَعَرَ لـه القاصي والـداني، والمسلم وغير المسلم[2].

وفي ذلك شعر كثير أنشده الشعراء من كل قطر إسلامي وكل دولة عربية وإسلامية لتمجيد تلك الزعامة العربية الإسلامية العالمية، وأصبح الشعراء في هذا الغرض يمجدون القيم الإسلامية لذاتها في شخص المغفور له، لا لذات الشخص. وبهذا خرج الرثاء عن معالمه وخصائصه القديمة، وأصبح فناً أدبياً إسلامياً جديداً له معالمه وخصائصه الجديدة، وليس مدحاً للميت ولا تعديـداً لمآثره ومناقبه في حياته، وإنما هو تمجيد للقيم الإسلامية ليحث الشاعـر غيره من بعده على الالتزام بها والسيرة على منهجها ومنوالها، لتعيش هذه الـزعامـة الصالحة الإسلامية العربية معنا في كل جيل وعصر.

---

(١) ألوان طيف، ص ٢٩١ - ٣٠٦.
(٢) الثلاثاء الحزين.

ثاني عشر: الأناشيد الإسلامية

هذا الغرض الإسلامي لا يقل في الأدب الإسلامي عن الأغراض السابقة، وخاصة بعد أن انتشر الشعر الغنائي اللاهي والعابث، وأصبح وأمسى في كل بيت عن طريق أجهزة البث على الهواء، وأدوات الإعلام الحديثة؛ لأن الأذن والعين أخذتا موقعهما من العصر الحديث أكثر من القراءة والاطلاع، وأصبح السماع للمذياع والرؤية والسماع للتلفزيون لهما الصدارة في تثقيف الناس وتوجيههم إلى المقصد الذي تبتغيه الدولة، وكل دولة حسب اتجاهها السياسي والاقتصادي والمذهبي والفكري والثقافي.

وإذا كان الأمر كذلك فإن الأناشيد الإسلامية لا بد أن تزاحم أجهزة البث وأدوات الإعلام لتثقيف المسلمين في أنحاء العالم عن طريق السماع والرؤية بالقيم الإسلامية، وأخلاق القرآن والسنة النبوية، وذلك عن طريق القصيدة الخفيفة، والنشيد العذب، والأغنية الموزونة اللطيفة، فترسخ هذه القيم بالسماع نائماً أو الرؤية هادئاً مضطجعاً من غير معاناة في القراءة والاطلاع.

والأناشيد الإسلامية أصبح لها دور كبير في أدبنا العربي الإسلامي، لا يقل شأنا عن دور أجهزة البث والإعلام. وقد فطن الشعراء المحدثون إلى هذا اللون الإعلامي في الأدب، فأخذوا ينشئون الشعر الخفيف فيه، وينشده المغنون والمنشدون والمجموعات في الإذاعة والتلفزيون مثل أناشيد سيد قطب وشعره الإسلامي.

الباب الثاني

مصادر الأدب الاسلامي

د. محمد عبدالمنعم خفاجي

رئيس رابطة الأدب الحديث

عصر صدر الاسلام

(١)

لغة كل أمة لا بد أن تتماور عليها ظواهر الحياة، وتخضع لنواميس الوجود، وتمر بها ألوان شتى من ضعف إلى قوة ومن جمود إلى حركة وتوثب، ومن انتكاس إلى تقدم وانتعاش.

فقد يطوف بها من الأحداث الجاهدة، والعواصف القاتلة، ما يبعث فيها الموت ويسلط عليها الفناء وقد تواتيها أسباب الحياة يقظة، وعناصر القوة والنماء مشبوبة.

ذلك أن اللغة ترجمان القلوب وحديث النفوس، والأداة المعبرة عما تنطوي عليها الضمائر من فكرة أو خاطرة.

ولقد تأثرت لغة العرب أعمق التأثر بالإسلام الذي بدَّل كل شيء، وغيَّر السمات والخلائق لكل مظهر، وقَلَّبَ الحياة العربية من حال إلى حال، وحمَّلها هي أعباء جديدة، وناط بها رسالة مجيدة، فانطلقت تؤديها في صبر واستجابة، ومضت تنهض بها في سماحة ويسر، متَّشحة بما تستلزمه هذه الرسالة من دروع واقية وحلل براقة وأسلحة جديدة. وسنتناول الأدب العربي وتاريخه في هذا العصر بالبحث والدراسة.

(٢)

يفتتح العصر الثاني من عصور الأدب العربي وهو عصر صدر الإسلام ببعثة محمد صلوات الله عليه، ودعوته وهو بمكة قريشاً والعرب والناس كافة إلى الإسلام عام ٦١٠ م، وينتظم ما بعد ذلك مما امتد من عهد الرسول بمكة والمدينة وعهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن بن علي، وينتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين وقيام دولة بني أُمية على يد معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ، ومدته ثلاثة وخمسون عاماً هجرياً.

وهو من أعظم العصور في التاريخ الإسلامي أثراً، وأكثرها في حياة العرب والمسلمين والعالم والإنسانية خطراً، ففيه بدأت ونمت وازدهرت وانتشرت دعوة الإسلام دين البشرية الخالدة، ومنقذها الكريم من ضلال الجهل والسفه والاستبداد والاستعباد والطغيان والرق الفكري والبشري والاجتماعي، وهاديها الأمين إلى شاطئ الأمن والسلام والنور والحرية والمساواة، وقائدها البر إلى حياة المدنية والعلم والثقافة وحرية الإنسان من العبودية والخوف والفقر والجور.

وناهيك به بعد ذلك عصرا ازدهرت فيه اللغة، ونبه فيه شأن الأدب، وصار فيه للسان العربي والشعب العربي السيادة والفوز والغلبة في شتى الأرجاء والأمصار.

وكيف لا وقد افتتح بأروع جهاد عرفته الإنسانية، وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء، وبثورة لم يعرف التاريخ قط لها نظير، ثورة على الجمود البشري واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان وعبودية الطوائف والشعوب للأكثرين عُدةً وعدداً، وثورة فتحت صفحة جديدة في حياة العالم وأحاطت ظلام الحياة ضياءً ونوراً، وظلمها عدلاً وأمناً وسلاماً وحريةً، مما شهد به أفذاذ المفكرين والمؤرخين ودعاة الإصلاح.

ومَنْ أَوْلى من محمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأن يرفع في العالم

منارة السلام، وراية المدنية، وأن يصل الأرض بالسماء ويسعى بالإنسان ليبلغ ما ينتظره من حضارة باهرة وحرية نادرة، وحياة زاهرة، فيها الأمن والأمل والرجاء؟.. صلى الله عليه ورفعه إلى أعلى عليين، وأكرمه في أمته كما أكرم أمته به.

(٣)

هذا وعصر الإسلام مستقل عن العصر الأموي، لاختلاف المؤثرات التي أثرت في الأدب العربي في هذا العصر عنها في عصر بني أمية، وعلى ذلك سار كثير من الباحثين ومؤرخي الأدب، وهو ما سرنا نحن عليه في هذا الكتاب. وإن كان بعض الباحثين يجعل العصرين عصرًا واحداً يبتدئ بانبثاق فجر الدعوة النبوية، وينتهي بانتهاء عهد الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ.

والذين شهدوا هذا العصر العظيم من الشعراء يسمون المخضرمين[١] يقول ابن رشيق: «طبقات الشعراء أربعة: جاهلي، ومخضرم وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وإسلامي، ومحدث. ثم صار المحدثون طبقات: أولى وثانية على التدرج، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا الحاضر[٢].

أما الجاهليون فأمرهم مشهور ذائع، وهم الذين نشأوا في جزيرة العرب قبل الإسلام من الشعراء والخطباء والبلغاء وأرباب الفصاحة واللسان والبيان، وهذه الكلمة جمع لكلمة جاهلي من الجاهلية المأخوذة من الجهل ضد العلم، لما كان عليه العرب قبل الإسلام من أمية ظاهرة، أو من الجهل ضد الحلم بمعنى السفه والطيش وسرعة الغضب، لما كانوا عليه من الإسراع إلى الانتقام والأخذ بالثأر وشنِّ الحرب لأتفه الأسباب.

---

(١) وقلَّ أن يطلق ذلك الاسم على البلغاء والأدباء والخطباء مع أن مثل هذه الفنون الأدبية أخت الشعر وشبيهة به في كثير من خصائص الأدب.

(٢) ١/٧٢ العمدة لابن رشيق، طبع عام ١٩٢٥.

وأما المخضرمون[1] فإذا تركنا حديث الاشتقاق اللغوي فإن الغالب على مَنْ عاش في هذا العصر أن يكون مخضرماً، إذ يغلب أن يكون قد أدرك الجاهلية والإسلام.

أما الذين نشأوا في الإسلام وتأدبوا بآدابه، وقالوا الشعر متأثرين بالعوامل الجديدة التي نشأت مع الحياة الإسلامية، فهؤلاء إسلاميون يغلب عليهم أن يكونوا قد عاشوا في دولة بني أُمية واستظلوا بظلها، إذ من الثابت أن كثيراً من الشعراء الذين تأثروا بالإسلام ومبادئه قد بهرتهم بلاغة القرآن وفصاحته، فانقطعوا عن قول الشعر وعقمت ألسنتهم وبلاغتهم عن إنشاده، ولم يستمر على صلة بينابيعه الثرة، إلا هؤلاء الذين بعدوا عن روح الإسلام ولم يتأثروا به وعاشوا في عزلتهم في البادية، فلما سكنت عنهم هذه الروعة قليلا بالفَهْمِ لهذه البلاغة المعجزة وبخضوعهم لآثار بيئتهم وحياتهم الجديدة بدأوا في نظم الشعر، ولم يعودوا إليه إلا وقد انتهى هذا العصر وبدأ عصر جديد هو العصر الأموي الحافل.

أثر الاسلام في حياة العرب الاجتماعية

يرى الباحث في تاريخ العرب قبل الإسلام مبلغ ما كان يسودهم من تنافر وتناحر وشقاق وخصام وحروب مدمرة تأكل الأخضر واليابس، وأحقاد

---

(١) من الخضرمة يقال أذن مخضرمة أي مقطوعة فكأن الشاعر انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام، وقيل: أسلم قوم في الجاهلية على إبل قطعوا آذانها فسُمِّي كل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرماً، وزعم هذا القائل أنه لا يكون مخضرماً حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبي وقد أدركه كبيراً ولم يُسْلم..

قال ابن رشيق: وهذا عندي خطأ لأن النابغة الجعدي ولبيدا قد وقع عليهما هذا الاسم (١/٧٢ العمدة ط ١٩٢٥).

وقال أبو الحسن الأخفش: هو من قولهم ماء خضرم إذا تناهى في الكثرة والسعة: فمنه سُمِّي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام مخضرماً كأنه استوفى الأمرين (٢/٣٠٤ للمزهر، ١/١٧٢ العمدة).

وحكي: شاعر محضرم بالحاء مأخوذ من الحضرمة وهي الخلطة لأنه خلط الجاهلية والإسلام (٢/٣٠٥ المزهر، ١/١٧٣ العمدة).

وأضغان تستبيح كل إثم وتستهين بكل حرم، لأتفه الأسباب وأوهى الحوادث يهيج الشر وتعنف العداوة وتلتهب نار الخصومة، لا يراعون لأحدٍ حرمة ولا يرقبون في إنسان ألا ولا ذمة، يتفاخرون بالأحساب ويتكاثرون بالأنساب، ينقضون الميثاق إذا واثقوا، ويغدرون بالعهود إذا عاهدوا، يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ويستقسمون بالأزلام، ويقامرون بكل ما تمتلكه أيمانهم ويتعصبون للباطل عصبية هوجاء حامية، تقوم معاملاتهم في غالب أمرها على البغي والظلم، فهم: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوفُون، وإِذَا كَالُوهُم أَوْ وَزَنُوهُمْ يَخْسَرُون﴾[1].

فلما جاء الإسلام هذَّب الطبائع، وغير العادات، ومحا ما كان فيهم من السوء، دعا إلى الإخاء والصفاء وعلَّمهم كيف يحترمون العهود ويحافظون على المواثيق ﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُم وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[2]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾[3]. . . وحرم عليهم الربا وجعله لا يربو عند الله، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِبًا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾[4]، ﴿لا تَأْكُلُوا ٱلرِّبا أَضْعافاً مُضاعَفَة﴾[5]، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ﴾[6]، وحذرهم من الخمر لأنها تغتال العقول، وتستلب من المرء أقدس مظاهر البشرية ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسَرُ وَٱلأَنْصَابُ وَٱلأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾[7].

كذلك جعل الإسلام الأخوَّة في الدين أسمى وأقدس من إخاء النسب، حتى يستل ما في النفوس من سخائم العصبية وطبائع الجاهلية، ويعمر صدورهم بالحب والسماحة ﴿إنما المؤمنون أُخوة﴾[8] وجعل الكرامة والعزة بما يعمر القلوب من التقوى ويغمر النفوس من صدق الإيمان: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

---

(١) سورة المطففين، الآيتان ٢ و٣.
(٢) سورة النحل، الآية ٩١.
(٣) سورة المائدة، الآية ١.
(٤) سورة الروم، الآية ٣٩.
(٥) سورة آل عمران، الآية ١٣٠.
(٦) سورة البقرة، الآية ٢٧٦.
(٧) سورة المائدة، الآية ٩٠.
(٨) سورة الحجرات، الآية ١٠.

عندَ اللّهِ أتْقاكُم﴾[١]، «ومن أبطأ بـه عمله لم يسرع بـه نسبه»، والنـاس عنده سـواء» وهم سـواسيـة كـأسنـان المشط، «لا فضـل لعـــربي على عجمي إلا بـالتقـوى، كلكم لآدم وآدم من تـراب، والمؤمنـون تتكـافـأ دمــاؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم».

بـدّلهم الإسـلام بحيـاتهم المضمحلة وعيشتهم المفككـة وأخـلاقهم المنحلة وأنسـابهم المغمـورة، حيـاة شـريفـة سمحة لا يستبـد بهـا طيش ولا يسودها حقد ولا تفسدها ضغائن، أبدلهم بالجفـاء والغلظة وخشونـة القول وسوء المعاملة أدبـاً كريمـاً وقولاً لينـاً وخلقاً عـظيماً وطبـاعاً تفيض بـالجـلال والبهاء، إذ تعتمد على طهارة النفوس وسلامة الصـدور وصفاء القلوب، وتلك من أكبر النعم وأقدس الآلاء ﴿وَاذْكُـرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْـدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَاناً وَكُنْتُم عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّـارِ فَأَنْقَـذَكُمْ مِنْهَا كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾[٢].

ولقـد حارب الإسـلام الأديان الفـاسـدة، والعقـائـد البـاطلة، والأوهـام الضارة ودعا إلى التوحيد الخالص، وإلى التفكير المستقـل، وبعث في الناس حبَّ المعـرفة. . . هـذا إلى أثره البعيـد في حياتهم السيـاسية، وجمعـه لهذه القبائل العربية المتنافرة، في ظـل دولة مـوحدة، ممـا كان لـه أثره القـوي في الحياة الاجتماعية.

أثر الاسلام في الأدب

وقـد أثّر الإسـلام في الحياة الأدبيـة تأثيـراً كبيراً سـواء في ألفاظ اللغـة أم في أسلوبها، أم في فنون الأدب المختلفة: من شعر ونثر وخطابـة وكتابـة، أم في أغراض كل فن منها، مما سنبحثه باستقصاء في الفصول الآتية.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

فقد كان الشعر يجري على ألسنة العرب شعوراً وطبعاً وملكة، وتحتفل نواديهم الأدبية بالبليغ المأثور من جيد النثر: خطابة ومحاورة ووصايا ونصائح وسواها. والعرب يهزهم البيان، وتملكهم بلاغة القول، ولا يرون عبقرية إلا في شعر يروى أو كلام بليغ يؤثر.

ومع ذلك فقد غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية تغييراً كبيراً واسعاً.

وليس يرجع ذلك إلى ما اقتبسه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلم وأدب وفن. ولا إلى آثار مدنية وحضارة، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداوة والخشونة، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة ونضال خصوم الإسلام، وإنما يرجع ذلك كله إلى المصدر الأول لثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية، وهو القرآن الكريم، الكتاب المعجز، الذي أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة وقوة، وبدَّل حوشية الألسنة سهولة ووضوحا وبلاغة، وأورث العرب وضوحا في التفكير ودقة في التعبير وروحة في الحجة، ودقة في الأسلوب، وشرفاً في الغرض، ونبلا في المقصد.

أثر الاسلام في اللغة

وحدة اللغة وشيوعها

أثر الإسلام في اللغة جد خطير، لا يمكن تفصيل القول فيه تفصيلاً وإنما نكتفي بهذاالإجمال:

- جاء الإسلام وللعرب لهجات مختلفة، ولهجة قريش لها المنزلة الأولى بين هذه اللهجات بتأثير الأسواق ومواسم الحج، ولنفوذ قريش الروحي والاقتصادي بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش فأيَّد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة. وكان من قريش ومن السلالات المصرية أبناء عمومتهم رجالات الدعوة وزعماء الدولة وأمراؤها وقوادها وقضاتها وحكامها وعمالها، فكان لذلك

أثر كبير في انتحال العرب لغة قريش بعد قليل، أما ما تـوورث من لغة حمير، فلم يكن متميزا عن اللغة القرشية كثيراً، سواء في التصريف أم الإعراب أم الأسلوب، بل كان أكثره ظاهراً في اختلاف بعض الألفاظ عن بعض الدلالة على المعاني المتحدة؛ فالكتع في اللغة الحميرية هو الذئب في لغة قريش، وأنطى في لهجة حمير بمعنى أعطى عند قريش، والشناتر في كلام الحميريين هي الأصابع في لسان قريش، وسامدون لغة حميرية وهي في لهجة قريش الغناء، وهكذا[1] إلى غير ذلك مما له نظر في لهجات المصريين أنفسهم؛ كالسدنة فهي الظلمة عند تميم والضوء عند قيس.

ولقلة الخلاف بين الحميرية والقرشية اندمجت لغة حمير كأخواتها في لغة قريش التي أصبحت لها السيادة والغلبة على جميع اللغات واللهجات.

٢ ـ وهذه الفتوحات الإسلامية الباهرة أدَّت إلى انتشار العرب في شتى البلاد المفتوحة وإلى ذيوع اللغة العربية في أكثر هذه الأقطار، وصارت هي اللغة الرسمية فيها وأصبح يلهج بها بعد قليل سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقيا الشمالية، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة في هذه البلاد وسواها.

أغراض اللغة

وزادت أغراض اللغة بتأثير الدين الجديد، وما نشأ عنه من نظام ومدنية وعمران وثقافة.

فقد استعملت في شرح العقيدة الإسلامية والدعوة إليها وحجاج خصومها وتبيين مراميها واستنباط أحكامها، كما استعملت في حفظ نظام

---

(١) فالأرائك لغة حمير، وكذلك: المعاذير، والوز، والحور، واللهو (وهو عندهم المرأة)، إلى غير ذلك مما تجد بعضه في الاتقان (ص ٢٢٨ وما بعدها جـ١ ط ١٩٤١).

الملك ونشر الأمن والعدل بين الناس، وفيما استدعته حياة الحضر الجديدة وشؤون الثقافة والمعرفة، وفي إرشاد الناس إلى أحكام دينهم، وتذكيرهم بأوامره ونواهيه.

إلى ما سوى ذلك من شتى الأغراض الجديدة التي تناولتها اللغة في هذا العصر زيادة عما كانت عليه في عصر ما قبل الإسلام، وبعد أن كانت اللغة في الجاهلية تعبِّر عن عقول محدودة، صارت تنطق من عقول استضاءت بهدي القرآن وتأدبت بأدب الإسلام.

معانيها وأسلوبها

وظهر في معاني اللغة الدقة والتفكير والفهم والعمق، وبما أفاده المسلمون من ثقافة القرآن والدين ومن خبرة وتجربة وإدراك صحيح للحياة، كما اتسعت مادة المعاني باتساع المشاهدات والمناظر والمعقولات والمعنويات، وتعددت صور الخيال في روعة وجمال تعبير، بتجدُّد وتعدُّد صور المشاهدات التي ينتزع منها والتي كانت مادة له.

أما أسلوب اللغة فقد شاعت فيه العذوبة والسلاسة في جزالة وأخذت بأطرافه القوة والجمال والوضوح وروعة التأثير وقوة الحجة وتأجج العاطفة والتهاب الشعور ودقة الإحساس الأدبي، وذلك لتأثرهم بالقرآن وبلاغته، مما رقق من نفوسهم القاسية فسلست طباعهم وألسنتهم وملكاتهم، ولم تقبل إلا السمح المهذب من الأساليب.

وبتأثير الإسلام بَطُلَ سجع الكهان وأضرابهم ممن يستنبئون الحصى ويزجرون الطير، وبطل الفجر في الأسلوب فصار عفًّا كريماً سمحاً ينطق عن عاطفة دينية قوية، ويصور حياة روحية واسعة، وينمُّ عن تأدُّب بأدَبِ الإسلام وتأثُّر ببلاغة القرآن، ولقد غلب عليهم الإيجاز باديَ ذي بدء لعدم فراغهم من أعباء الدعوة والملك والفتوحات.

وقد كانت هناك ألفاظ كره الإسلام مدلولها، وأحبط آثارها، فبطلت مهمتها، وانقضى عملها، وأصبحت لا تلائم الحياة الجديدة، ولم تلبث سنة الوجود أن ألقَتْها في الأكفان، ومن تلك الألفاظ: عم صباحاً أو عمت مساء، فقد أبدلها الإسلام بلفظ السلام، وقولهم: أبيت اللعن: أي أبيت أن تفعل شيئاً تلعن به.

وكذلك هذه الألفاظ التي جاءت في قول الشاعر:

لك المرباع فينا والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

فقد كانت تجري عاداتهم إذا غنموا أن يعطوا المرباع، وهو ربع الغنيمة، للقائد ويعطوه الصفايا، وهي ما يؤثره ويصطفيه لنفسه قبل القسمة؛ والنشيطة ما أخذه الجيش في الطريق قبل أن يصل إلى قَصْده، والفضول ما فضل من القسمة مما لا يمكن قسمته، وكان للرئيس. أبطل الإسلام معاني هذه الألفاظ التي تثير الحنق وتغرس الأضغان والأحقاد، وجعل مكانها الخمس. قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾(١).

وهناك ألفاظ أخرى أحبها الإسلام وأوجد لها معاني بجانب ما تحمله من معنى وتدل عليه من مرمى، كالصلاة والصيام والزكاة والركوع والسجود والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق والظهار والإيلاء والعدة والنفقة، وهكذا... من الألفاظ الكثيرة التي تزخر بها قواميس اللغة ومعاجمها. وسنتناول في هذه المحاضرات الآثار الرائعة القيمة التي أحدثها الإسلام في لغة العرب: معانيها وألفاظها وأساليبها.

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤١.

القرآن الكريم: بلاغته وإعجازه

ليس هناك أبلغ في وصف القرآن الكريم من قول الله سبحانه وتعالى في شأنه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]، أجل.. فطالما يتلو المؤمن كتاب الله تعالى، متفهماً معانيه، مستجلياً ألفاظه ومبانيه، مستشفاً أسراره وخفاياه، ويعلم الله ما من مرة يفرغ فيها من تمامه إلا وهو يعرف عنه ويرى فيهما لم يعرفه أو يره فيما سبق من مرات.

ولطالما يدرس الدارس ما شاء الله من علوم القرآن على اختلاف أنواعها وتبايُنِ سِمَاتها، وما من عِلْمٍ من علومه إلا ويقف منها على جديد لم يكن يعرفه، أو يطلع فيها على سر من أسرار البيان لم يكن ليدركه... لولا هذا القرآن العظيم.

وقد يكون المؤمن الدارس لكتاب الله، قبل تلاوته ودراسته يستمع إلى آي من هذا الذكر الحكيم، فإذا به يجد نفسه مشدوداً إليها بسمعه وبصره لا... بل بكافة حواسه ومشاعره، فإذا بها آيات بينات، تنساب إلى النفس انسياب النسمات الرقيقات، وتنفذ إلى القلب وكأنما هي همسات، وأحياناً صرخات... وكل من الهمسات والصرخات تعرف طريقها النافذ إلى الأعماق.

(١) سورة هود، الآية ١.

وبين التلاوة والمدارسة يتمكن المؤمن الدارس من إدراك الحقيقة، لا. . . بل بعض هذه الحقائق، فما كان لمدَّع أن يدَّعي الوقوف على كل أسرار القرآن العظيم. . . ذلك الإعجاز القاهر، والعجز العاجز من العرب، الذين لم يكد يشرق القرآن في دنياهم حتى وجدوا فيه لغة غير ما كانوا ينطقون أو يسمعون أو يعرفون، لغة هي المثل الأعلى في البيان، وفي روعة التعبير وعظمة التصوير(١).

ومع أن العرب في جاهليتهم قالوا الشعر وتفننوا فيه، فما امتد النفس في جيده إلى أطول من المعلقات، وقالوا النثر، ولم يكد فنهم فيه يطغى على ما أبدعوه من أشعار. . . فقد أتى القرآن، وكأن العرب ـ وهم أرباب الفصاحة وأمراء البيان ـ لم يسمعوا ولم يعرفوا بياناً من قبل، علماً أن القرآن لم يخلق معجماً جديداً، ولم يقض قضاء على السنن المتعارفة عندهم في البيان، وكل ما صنعه القرآن أنه أخرج من المادة التي ألفوها آيات هي السحر الحلال «وإن من بيان لسحرا»، فلم يلبثوا أن تحيرت منهم الألباب ودهشت نفوسهم لهذا العجب العجاب.

ومع أن القرآن جاء بهذا اللسان العربي، وعلى طريقة العرب في الأداء والتعبير، لكن هيهات أن ترقى أساليبهم إلى أسلوبه، مع كثرة ما جاءوا به من محاسن الشعر وعيون النثر، إذ أن لغة القرآن تدفقت بأسلوب مبدع لا عهد لأحد بمثله، فلا هو موزون مقفّى، ولا هو مرصَّع مسجَّع، يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع أو تسجيع وإنما هو آيات مفصلة متناسقة، تروع الخيال بما فيها من تصوير بارع، وتسحر الوجدان بما فيها من منطق ساحر، وتأخذ بالأفئدة والألباب بما تحمل من إيقاع جميل، وتلك لعمري خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل.

---

(١) راجع الأثر القرآني في الصور الأدبية: رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغة العربية للدكتور صلاح الدين محمد عبد التواب، ص ١ ـ ٦.

ومن أجل هذا لم يلبث العرب أن أبدوا دهشتهم وحيرتهم معا، إزاء هذا البيان الرائع، فتخبط الكثيرون منهم في الحكم عليه، لما رأوا فيه من سحر لعقولهم وقلوبهم، فمن قائل إنه الشعر، إذ رآه منسجماً منساباً، فحسبه المنظوم، ولكنهم ـ وهم زعماء القريض ـ ما كانوا ليجهلوا أمر المنظوم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾(١). ثم ما لبث آخرون أن قالوا: إن قالوا: هو السحر، وهم حقا معذورون، وإن كانوا في ضمائرهم مبطلين فقد رأوه معجوزا عنه، غير مقدور عليه، كما أحسوا له وقعاً في قلوبهم وقرعا في نفوسهم يزيد ريبتهم وحيرتهم، فإذا هم أمام البيان القرآني، وقد أبطل قولتهم، وأمعن في تجهيلهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ؟﴾(٢).

ثم يشهد شاهدهم بأن له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه، وما هو بقول البشر، والعجيب في الأمر أن هذا القائل نفسه ينقض رأيه والحقد يأكل قلبه، فيقول: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾(٣).

وهو في ذلك ليس بأحسن حالاً من أولئك الذين استبدت بهم الحيرة والدهشة وذهبوا بقولهم بعيداً: ﴿وَقَالُوا إِسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(٤).

هي حيرة ودهشة إذن، بل هو إعجاب وإعجاز معاً، وإلا فما الفرق بين الكلام والكلام، والمادة هي المادة في حروفها وألفاظها وكلماتها؟

المادة حقاً هي المادة، ولكنها ليست هي في اتساقها، وجمال نظمها، وَحُسْن عرضها، بجانب فصاحة ألفاظها وبلاغة معانيها وسموِّ أغراضها.

---

(١) سورة الحاقة، الآية ٤١.
(٢) سورة الطور، الآية ١٥.
(٣) سورة المدثر، الآية ٢٥.
(٤) سورة الفرقان، الآية ٥.

نعم.. المـادة هي المـادة.. ولكنهـا ليست هي هي في شفـافيتهـا وانبعاث الروح المعبرة منها بما يروع النفـوس، ويهز المشـاعر والأحـاسيس: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(١).

وإذا كانت آيات الله البينـات يقرؤهـا القارئ، أو يسمعهـا السامـع وهي تؤدي غرضها ليعـرف الإنسان خـالقه، ويـدرك خيره في معـاشه ومعـاده، فإن نفس الآيات مع ذلك نراها وقد عرضت في أطر بـديعة منسقـة، في جو يشـع منه الجمال والجلال.

أما الجمال: ففي العرض، وقوة الأداء، وإيقاع العبارة، وإيحاء الإشارة على نحو لا شبيه له ولا مثيل.

وأما الجلال: فلو أن الجبال الرواسي قرعت بشيء لتسير عن أمـاكنها، أو أن الأرض الصلبـة صدعت بشيء حتى تغيـرت معالمهـا، أو أن الموتى في قبـورهم خوطبـوا بشيء فقامـوا من مضاجعهم، لكـان هذا الشيء هـو القرآن العـظيم، وصدق الله قـائله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾(٢).

وحتى الآيات التي تناولت أمر العقيدة، وتولت عرضها، إذا نحن نظرنـا إليها، وجدناها تخاطب العقل والقلب معاً، فلا هي بالألفاظ والعبارات الرتيبة، التي يضيق بها سامعها أو تاليها، ولا هي بالمعاني المجردة الغامضة التي تثير اللبس والإبهـام، إنما هي الصـورة الأدبية الـرائعة، التي جمعت في إطـارهـا رونق اللفظ ورشيق المعنى وجمـال الاتساق. حتى كـانت تلك الصور الحيـة النـابضة، التي يتمـلاها الخيـال، فلا يكـاد ينتهي عنهـا إلا وقـد انـطبعت في النفس وأثـرت في الحس، وأقنعت الخيال وأمتعت الـوجدان وليقـرأ أو يسمع

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣١.

من شاء قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ: إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو ٱجْتَمَعُوا لَهُ، وأَنْ يَسْلُبْهُم ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوب * مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز﴾(١).

أما الآيات الأخر التي تدل على عظمة الله وقدرته، والتي تذكر الإنسان وتهديه بالعبرة والعظة، فهذه وغيرها إنما يجيء عرضها بنفس التصوير الأدبي الرائع، والتعبير الفني الجميل، وفي إطار من مشاهد الكون ومشاعر النفس يستثير الحس ويستنهض الخيال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيل وَمَا وَسَق * وَٱلْقَمَرِ إذا ٱتَّسَق * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُون * وَإذَا قُرِئَ عَلَيْهِم ٱلْقُرْآنُ لا يَسْجُدُون﴾(٢).

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَٱلْقَمَرِ إذَا تَلَاهَا * وَٱلنَّهَارِ إذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَاهَا * وَٱلسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَٱلأرضِ وَما طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(٣).

فنحن إذن أمام آيات محكمات، بينما هي مسوقة لأداء غرضها الديني، إذا بنا نستشعرها وهي تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني، وبينما هي تعبِّر وتصور، إذ بهذين التعبير والتصوير يأتيان بالصورة المحسة المتخيلة، عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم لا تلبث الآيات أن ترتقي بالصورة التي ترسمها فتمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا النموذج الإنساني حي شاخص، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية.

(١) سورة الحج، الآيتان ٧٣ و ٧٤.
(٢) سورة الانشقاق، الآيات ١٦ ـ ٢١.
(٣) سورة الشمس، الآيات ١ ـ ١٠.

فأما الأحداث والمشاهد، وأما القصص والمناظر، فإننا نراها هي الأخرى شاخصة حاضرة، فيها الحياة والحركة، فإذا أُضيف إليها الحوار فقد استوت لها عندئذ كل عناصر التأثير، فما يكاد العرض يبدأ، حتى يتحول المستمعون، إلى شهود وقد انتقلوا إلى مسرح الأحداث نقلاً، حيث تتوالى المشاهد وتتنوَّع الأحداث، ثم لا يلبث القارىء أو السامع أن ينسى أنها كلمات تُتلى وأمثال تُضرب، بل هي مشاهد تُعْرض وأحداث تقع، فهذه الشخوص تروح على مسرح من الأحداث وتغدو، وهذه مظاهر الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف، والمتسارعة مع الأحداث، والأمر لا يعدو بعد كل هذا كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة، وتلك هي معجزة البيان أو إعجاز القرآن.

من أجل ذلك كان حتماً مقضياً أن يشغل بالقرآن منذ نزوله كل من قرع القرآن سَمَعَهُ ومسَّ شغافَ قلبه، إذ ليس القرآن كلاماً عادياً كغيره من الكلام، وإنما هو حقاً كما قال فيه منزله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١).

لم يكن من الغريب ـ إذن ـ أن يجتذب كتاب الله الحكيم، ذلك العدد الوفير من العلماء منذ نزوله، وكلهم يطوفون حول القرآن وأساليبه وإعجازه وتفسيره، ووجوه قراءاته، وكان من أبرز هؤلاء: أهل البيان، الذين رأوا من روعة التصوير في القرآن ومن دلائل الإعجاز فيه، ما جعلهم يعنون بدراسته واستخلاص القواعد والمقاييس من نماذجه الرائعة، وإن كان القرآن في سموه وإعجازه فوق كل القواعد والمقاييس.

وكان من الذين عنوا بدراسة القرآن وإعجازه: أبو الحسن الرماني، الذي راعته بلاغة القرآن، فوضع رسالته «النكت في إعجاز القرآن العظيم»، وعرَّف فيها البلاغة بأنها: «إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من

---

(١) سورة هود، الآية ١، وراجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية، التصوير الفني في القرآن.

اللفظ» وهو نفس تعريف ابن رشيق للبلاغة فيما بعد، حيث كانت البلاغة عنده «إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ». .

كما أننا رأينا عبد القاهر الجرجاني قد وقف بدوره ـ كما وقف سابقوه ـ على قضية الإعجاز التي كانت الحافز الذي دفعه إلى نهاية الطريق، يتفرس التراكيب ليقف على وجوه الحسن والجمال فيها، ثم ليتمكن من بعد من الوقوف على بعض مظاهر الإعجاز في كتاب الله الكريم.

ومن ثم لم يكن الرماني ولا عبد القاهر الجرجاني وحدهما في هذا الميدان، ميدان البحوث والدراسات القرآنية، فقد تعدد الباحثون قبلهما وبعدهما، وكلٌّ أدلى بدَلْوه في هذا المعين الفياض، يغترف منه، وكلٌّ أبلى بلاءً حسنا في حدود طاقاته وإمكانياته واتجاهاته.

وكان لتلك العقول الكبيرة فضل في تفتق أكمام البيان القرآني عن مسائل ولطائف في فنون القول وجماله، وما زالت دراسات إعجاز القرآن تؤتي أُكُلها وتزداد على مر الزمان حيوية وإنتاجاً، إلى أن توصل علماء الإعجاز إلى دقائق ولطائف كثيرة في أسلوب القرآن، وبلغت مقدرة بعضهم درجة طيبة، وأصبحت بعض دراساتهم في شرح وتحليل نصوص القرآن نماذج أدبية لكل متطلع في فن القول، ومرجعاً لكل باحث في خفايا التعبير العربي.

ولقد كان من العجيب حقا في آيات الله البينات أنها جاءت في أسلوب لا مطمع لطامع في مثله، فلم يكن في قالب شعري، وليس هو بالنثر المعهود وإنما أدَّى هذا الأسلوب بشكل خاص به مقصور عليه، ومذهب متفرِّد لم يسبق إليه، فلا هو موزون مقفى، ولا هو مسجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع. وإنما هو أسلوب له مزاجه الخاص في الاتصال والانفصال، وفي الطول والقصر، تتلو بعض سوره، فإذا أنت مضطر في تلاوتها إلى الأناة والتمهُّل، لأنها فصلت في ريث ومهل، لأداء معان تحتاج إلى البسط والريث، كالتشريع مثلاً، وكوصف ما كان يُثار بين المسلمين والمشركين من الحروب، وتتلو بعض سوره

الأخرى، فإذا أنت مضطر إلى شيء من الإسراع، لأنها تؤدي معاني يحتاج أداؤها إلى القوة والعنف، قد فصلت آياتها قصاراً، ملتئمة الفواصل، تقرؤها، فكأنما تنحدر من علو، وذلك حين يخوف الله عباده ويشتد في تخويفهم، فيأخذهم من جميع أقطارهم ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج.

ولما كانت الصورة الأدبية[1] في القرآن موجهة أول ما توجه إلى النفوس البشرية لتحدث فيها تأثيرها الفعال، فإن هذه الصورة اعتمدت ـ فيما تعتمد ـ على عنصر الصوت. وليس بخاف أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وإن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدًّا، أو غنَّة، أو ليناً، أو شدة، وبما يهيِّئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها.

من أجل ذلك صيغت أسجاع القرآن وفواصله، وصولاً بصورته إلى أعماق النفوس، ولعل تلك الخاصة الصوتية للصورة القرآنية، والتي لها من الوسائل ما تفردت بها عن غيرها. لعل تلك الخاصة هي إحدى ظواهر الإعجاز في كتاب الله، والتي من أجلها سُمِّي قرآنا دون غيره من الكلام، لأنه مقروء، ولا يُوصَل إلى منتهاه في الروعة والتأثير إلا بتلاوته وسماعه، ومن أجل ذلك كان قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]، بل كان الحث على ترتيله ترتيلاً، لا قراءته كيفما اتفق، وما ذاك إلا ليتم حسن إيقاعه ووقعه في النفوس، فيعظم أثره، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[3]..

وكان من أبرز الخصائص التي تميزت بها الصورة الأدبية في القرآن: ذلك التناسق الفني البديع، الذي جمع في إطاره الصورة، وفي وقت واحد

---

(١) راجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية ص ٨٣ ـ ٩٩، رسالة ماجستير د. صلاح الدين محمد عبد التواب.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.

(٣) سورة المزمل، الآية ٤

معا، بين رشاقة اللفظ، ودقة المعنى وجمال الاتساق بين اللفظ والمعنى، في الوقت الذي يعزُّ فيه أن يجتمع هذا المجال ويكتمل في تصوير أدبي غير القرآن. ومن خلال هذا التناسق وجدنا القرآن يستخدم كل ما يمكن أن يتخذه من الوسائل المثيرة للخيال ـ وهو الحق كله ـ لتفعل فعلها في النفوس، ولكي تتعمق الصورة وتثبت في الإدراك والوجدان رأينا القرآن يستعمل صور البيان المختلفة من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية وغيرها من أبواب المجاز.

وربما يقول القائل هنا: إن العرب قد استعملوا أيضاً هذه الوجوه لإثارة الخيال وتحريك العواطف وإلهاب الوجدانات والمشاعر، فما هو الجديد إذن في تصوير القرآن؟

ولكنه فرق، وأي فرق، فرق بين تصوير وتصوير، وفرق بين تأثير وتأثير. . .

إن الصورة الأدبية عند أبلغ البلغاء لم تخرج عن نطاق كونها من تصوير البشر محدودي الأفق. فهم على قدر وقوفهم على مظاهر الحياة والأحياء يكون تصويرهم، وبمقدار علمهم بدخائل النفوس وطبائع الأشياء يكون تعبيرهم، فضلا عن أن البليغ مهما عظم بيانه فإنه تبدو في كل كلماته مسحة الانفعال بأغراضه، ولذا يكون تأثيره في السامع أو القارئ على قدر تأثره هو، طبعاً أو تطبُّعاً.

أما التصوير القرآني. . . فإننا نُحسُّ مِن خلاله أن وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذا الغرض أو ذاك. . . قوة تؤثر حين تصور ولا تتأثر، قوة العالم بخفايا النفوس وطبائع الأشياء، فهو يسوق لها من ألوان المؤثرات ما يتناسب وطبيعتها وينفذ منها إلى الأعماق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]؟؟

ومن هنا يبدو الفرق أيضاً بين التأثير والتأثير، فتأثير الصورة في غير

---

(١) سورة الملك، الآية ١٤.

القرآن لا يتعدى سلطانه على النفوس حد إطرابها والحصول على إعجابها، ثم لا يلبث هذا الاطراب والإعجاب أن ينقضيا بانقضاء معالم هذا التصوير، وبمجرد الانتهاء من التعبير، أما تأثير الصورة القرآنية فإنما يسري في النفوس سريان الروح في الأجساد، فلا يزال يحركها، ويتسلط على مشاعرها، فلا تملك النفس إلا أن تتابع بخيالها ووجدانها تلك الصورة، ذاهبة وراءها كل مذهب.

ولنتل ـ على سبيل المثال ـ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[١].

فهذه الصورة المشعة الموحية المعبرة، تثير الخيال، وتجعله عاكفاً على تمثُّل تلك الحركة العجيبة التي لا تتم ولا تقف ما تابعها الخيال، هذه الحركة هي ولوج الجمل في سم الخياط ـ الموعد المضروب لدخول الكافرين الجنة ـ بعد عمر طويل.

فهذه صورة ليس فيها استعارة ولا كناية ولا تشبيه، ولكنها فقط تعبر عن معنى المستحيل غيبا بصورة المستحيل حسًّا ومشاهدة، ومع هذا التخيل الرائع في التصوير فإن الآية تعبر عن الحق الذي لا شك فيه. وذلك من أسرار الإعجاز في بيان القرآن الكريم.

كذلك كان من خصائص التصوير الأدبي في القرآن الكريم تلك الروعة الفنية، التي تجلت في الآيات المحكمات حين استعرضت كلا من مواقف الدنيا والآخرة، استعراضاً لم يعد له عالم الغيب موصوفا فحسب، بل عاد مصوَّرا محسوساً، وحيًّا متحركاً، جعل الناس يعيشون في هذا العالم عيشةً كاملة ـ وهو لما يأت بعد ـ فرأوا مظاهره، وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارة، واقشعرت جلودهم تارة أخرى، وسرى في نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٤٠.

الاطمئنان أخرى، ولفحهم من الناس شواظ، ورف إليهم من الجنة نسيم، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تماماً قبل مجيء اليوم الموعود، بعد أن عرضت عليهم مواقف في صور شتى، تتراءى في عشراتٍ من الأوضاع والأشكال والسمات، وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة، تتملاها النفس ويتابعها الخيال، ويستغرق فيها الحس والوجدان، وهي بذلك تضيف إلى الثروة الأدبية الفنية صفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال.

وخاصة أخرى تطالعنا بها الآيات الخالدات، في ظاهرة كانت سمة من سمات القرآن البارزة، تلك هي ظاهرة التقابل بين صوره، وليس المقصود هنا تقابل جزئيات الصورة فحسب، بل التقابل بين صورة كاملة في شكلها ومضمونها، وبما فيها من إيقاع موسيقي وانفعال نفسي، وبين ما يقابلها في صورة أخرى بكامل شكلها ومضمونها كذلك.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ ٱلأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ ٱلذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي، فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وِثَاقَهُ أَحَدٌ﴾[1].

ففي وسط هذا الروع، ومن خلال الهول الذي ترسم صورته هذه الآيات، وهي تبرز لنا ذلك العرض الرهيب الذي تشترك في تجسيمه جهنم ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، وتلك الإيقاعات القوية الصاخبة، والمنتظمة مع الموقف في رهبته وروعته، والمنبعثة من البناء اللفظي الشديد الأسر ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ ٱلأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاء رَبُّكَ وَٱلْملكُ صَفًّا صَفًّا﴾..

في وسط هذا العذاب المروع والهول المفزع، نجد الصورة المقابلة تماما في الآية التالية مباشرة، حيث يقال لمن آمن: ﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾[2]..

(١) سورة الفجر، الآيات ٢١ ـ ٢٦.

(٢) سورة الفجر، الآيات ٢٧ ـ ٣٠ وراجع التصوير الفني في القرآن.

هكـذا في عـطف ولـطف: «يـا أيتهـا النفس». . . هكـذا في روحيـة وتكـريم، و«المطمئنـة» وسط هـذا الـروع العـظيم، و«ارجعي إلى ربـك» في وسط هذا الشدّ والجذب والوثاق المهين لهؤلاء الآخرين.

ورجـوع النفس المـطمئنـة إلى ربهـا، بينهـا وبينه من صلة وتكـريم، و«راضية مرضية». . بهذا الانسجام الذي يغمر الجو كله بالرضى والتعـاطف، «فادخلي في عبادي» ممتزجة بهم منتظمة في سلكهم، «وادخلي جنتي» هكذا في إعزاز وإكرام وتفضيل[1].

وهكذا نفس الإيقاعات المناسبة مع كل موقف، وهذا من عظمـة التعبير وجمـال التصـويـر وروعـة التـأثيـر التي تنســاب دائمـاً من خــلال آيـات الله المحكمات. والتي يشهد لها كلٌّ من قرأها أو سمعها وانفعل بهـا بأنهـا تجمع في إطارها كل منابع الحق والخير والجمال.

وإذا كانت الصورة القرآنية قد عنيت عناية كبيرة بأمثال هـذه المقابـلات الواضحة القوية. فبرزت لذلك كاملة الوضوح دقيقة المعالم قوية التأثير، فمـا ذلك إلا لأن القرآن قد عرض في تصـويره نمـاذج للحياة والأحيـاء، والطبيعـة كلهـا صور متقـابلة: أرض وسماء، ليـل ونهار، خصب وجـدب، مـرتفعـات ومنخفضات، صلابة وليونة، استقامـة والتواء، إلى آخـر هذه الصــور المتقابلة في الحياة والأحياء، وما يتعاقب على هذه المظاهـر من تبديـل وتغيير وتحـول من النقيض إلى النقيض، ومن ثم فإن سامع القرآن أو تاليه لم يكد تعرض لـه صـورة من صـوره الـرائعـة إلا ويتهيـأ بعـدهــا لاستقبـال الصــورة المتقـابلة المتوقعة. . . وهنا يكتمل في نفسه التصوير ثم يعظم التأثير.

كذلك من الخصائص التي تميزت بها آيات القرآن الكريم: أنها جاءت في إطار واحد موجَّه للعامة والخاصة معا، فلم تترفـع لتخاطب الخـاصة، ولم تبتذل لتخاطب العامة، بل كانت على مستواها الـرفيع الـواضح، شـأنها شـأن

(١) راجع الأثر القرآني في الصورة الأدبية ١٥٠ ـ ١٥٥، والتصوير الفني في القرآن ٧٩ ـ ٨٠

الشمس في عليائها يستمتع بها الصغير والكبير على السواء، ويراها كلٌّ مقدرةً على مقياس عقله وعلى وفق حاجته. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1].

وما اختص به الأسلوب القرآني أيضاً: روعة انتقاله من معنى إلى معنى أو من حالة إلى حالة، انتقالا لا يحرك النفس ويزيد من متابعة الخيال لهذه الصور المتتابعة وهي تنتقل من الدنيا إلى الآخرة، وترتفع من الأرض إلى السماء، وتتحول من خطاب الإنسان العاقل إلى خطاب الجامد الذي لا يفهم ولا يعي، والأعجب من هذا، أن التصوير القرآني مع كونه في أروع الكلمات افتتانا وتنويعا في الموضوعات، هو أروعه افتتانا وتنويعاً في الموضوع الواحد، مع أن هذه التحولات السريعة المستمرة والتنقلات العديدة المتنوعة مظنة الاضطراب، ولكنه التصوير القرآني الذي يحتفظ دائماً بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وروعة التأليف وجودة السبك، حتى صاغ من هذه الأفانين الكثيرة منظراً مؤتلفاً متناسقاً، يشهد لهذه القدرة الباهرة بالعظمة والإبداع والإعجاز.

على أنه مهما كانت تلك الخصائص للصورة الأدبية القرآنية، فإن النفس لا تزال تتطلع إلى هذا التصوُّر الذي يتحد فيه معاً إقناع العقل وإمتاع الوجدان، وإلا فمَنْ لهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يشبع نَهَمَ الفلاسفة المتعمقين، وفي ذات الوقت له من المتعة الوجدانية ما يأسر قلوب ذوي الحس المرهف والعاطفة الجياشة فيغمر منهم بكلماته الحس والوجدان؟

إنه لتصوير رب العالمين، فهو ـ وحده ـ الذي لا يشغله شأن عن شأن؛ وهو ـ وحده ـ القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً، يلتقيان ولا يبغيان.

---

(١) سورة القمر، الآية ١٧.

فليس بعجيب ـ إذن ـ أن توضع الصور البيانية في القرآن نصب الأعين أمام الأدباء والنقاد على السواء.

أما الأولون: فقد جعلوها المعين الفياض الذي منه يغترفون، وإن كانوا لم يدركوا كل السر في هذه الحلاوة، وفي هذا السحر الحلال.

وأما الآخرون: فقد حاولوا جاهدين من أجل أن يكون التصوير القرآني مقياساً لكل تصوير أدبي رائع جميل، ولكن هيهات أن تدنو أي مقاييس من جمال التصوير في القرآن الكريم، اللهم إلا إذا أدرك الناس كنه الروح التي أضفاها الله على الكلم فحركتها وصورتها.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾(١) وصدق الله العظيم...

الصور القرآنية في القرآن الكريم

(١)

نريد من هذه الدراسة أن نتعرض لجدة القرآن الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الأدبية، فضلاً عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والإنسانية، التي كانت جدتها حدثاً كبيراً ضخماً من أهم الأحداث العالمية، وأكبرها إثارةً وجليل أثر، وكبير خطر في الحياة.

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن القرآن الكريم من ناحيته الروحية والفكرية قد أتى بكل جديد، وبأكثر وأكبر مما أتى ويأتي به أي جديد، وأن جدة القرآن الكريم حقيقة وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم، ومع كل

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥، وراجع: الأثر الفني في الصورة الأدبية ص ٢٧٥ ـ ٢٨٤، رسالة ماجستير للدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً، ص ٤٩٨ ـ ٥٢٠، رسالة دكتوراه للدكتور صلاح الدين محمد عبد التواب.. الرسالتان بمكتبة كلية اللغة العربية، جامعة القاهرة

ما وصل إليه الفكر الإنساني من تطورات مذهلة ونتائج جديدة في نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة، وجدة القرآن الكريم لا تزال باقية ماثلة أمام كل تطور إنساني وبشري، وأمام كل تقدم فكري بَلَغَتْه الحياة حتى اليوم، والقرآن الكريم الحكيم كما كان جديداً على عقل إنسان القرون الأولى لنزوله، فإنه بفكره المشرق المضيء وما أتى به في مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على أقوم الأصول وأرسخ الدعائم، هو جديد أبداً، وسيظل هو الجديد دائماً على مر العصور والأجيال والأحقاب.

لن نفيض في الحديث إذن عن الجدة في القرآن الكريم من حيث نواحيه وآثاره الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية، ولكننا نريد أن نبحث هنا عن جدة الصور الأدبية في القرآن الكريم. . . ويدفعنا إلى ذلك أمران:

الأول: جانب المعجزة في القرآن الكريم.

والثاني: جانب المعرفة لأهمية هذا الكتاب العظيم وقيمته من الناحية الأدبية، فضلاً عما يجمع عليه كل المنصفين من أهميته وقيمته وأثره في الناحيتين الروحية والفكرية.

ولا يستبين للباحث أهمية أي نص من نصوص الأدب، أو أثر من آثاره الرفيعة، إلا إذا أدرك إدراكاً عميقاً مدى الجدة في هذا الأثر، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والنمو والزيادة التي يضيف بها إلى الفكر الإنساني شيئاً لم يضفه إليه السابقون.

ومن حيث كانت جدة القرآن في جوانبه الروحية والفكرية أمراً مسلماً به، فإن الذي سينتهي بنا الحديث إليه هو تقرير الجدة في الصورة الأدبية للقرآن الكريم أيضاً، لأن تقريرها أساس لتقرير أي أثر وفهمه ومعرفة قيمته.

ولماذا نخصُّ حديثنا هنا ببحث الجدة في الصور الأدبية للقرآن؟ ولا نطلق البحث إطلاقاً ليصبح الغرض منه البحث عن مدى ما في القرآن من الجانب الأدبي عامة من جديد؟

نعم نريد أن نبحث عن الجديد في الصورة الأدبية في القرآن الكريم وحدها، لأن الصورة الأدبية هي الإطار العام للأدب، وهي التي تحدد للأدب شتى عناصره وأصوله وخطواته ومختلف وظائفه، وهي التي تستثير الباحث أو ما يستثيره في النص الأدبي من خصائص ومميزات. على أن الصورة الأدبية في النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآثار الأدبية، ولا تختلف عندهم كبير اختلاف إلا نادراً جداً، وفي أقل حدود الاختلاف والفوارق الفنية للأدب.

والصورة الأدبية لها معنيان عند نقاد الأدب:

الأول: أنها تعني المنهج وطريقة الأداء؟ وتساوي بهذا المعنى ما نطلق عليه اسم الجنس الأدبي من قصيدة ومقالة وخطبة ورسالة وقصة... إلخ...

والثاني: أن الصورة هي الشكل في النص الأدبي، وتقابل المضمون الذي هو الفكر أو المعنى، أو الغرض أيضاً (مع بعض التجاوز) في النص، فعلى هذا تكون الصورة التي هي الشكل في النص الأدبي شاملة للعبارة ـ أي الأسلوب ـ وللخيال الذي يلون عاطفة الأدب ويصورها. وعندئذ نقف في النص بين الشكل والمضمون، فيجب على الأديب أن يوازن بينهما موازنة دقيقة، فلا يطغى أحدهما على الآخر، فلا يطغى المضمون على الشكل أي الصورة. وإخراج الكلام من باب الأدب إلى العلم، ولا تطغى الصورة على المضمون، وإلا كان الكلام أدباً لفظيًّا انشائيًّا لا وزن له في باب الفكر، بل في مجال الأدب أيضاً وحينئذ يجب أن يهتم الأديب بالمضمون أو الفكرة، كما يهتم بالصورة أو الشكل.

وسوف نتحدث هنا عن جدة الصورة الأدبية في القرآن الكريم بالمعنى الأول الذي هو طريقة الأداء، ونتحدث بعد ذلك عن جدة الصورة الأدبية بالمعنى الثاني الذي هو الشكل أو النظر أو الأسلوب.

(٢)

كانت الصورة الأدبية عند العرب الجاهليين قد انتهت إلى جنسين كبيرين هما النثر والشعر؛ فوقف النثر عند الخطبة والوصية والنصيحة والمثل والحكمة والمنافرة والمفاخرة والمحاورة وسجع الكهان والأسطورة والقصة الشعبية القصيرة، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكلها المعروف المألوف.

ولم يكن للنثر وفنونه وأجناسه في المجتمع العربي كبير خطر، ولا عظيم شأن، وكان أكثره ارتجالا واقتضابا، وليس فيه ثقافة واسعة، ولا فكر مضيءٌ. وأكثره يذهب في الشتات والاختلال وتفكك الوحدة الفنية (أو العضوية) مذهباً بعيداً، فضلا عن أن النثر لم يحفل به المجتمع الجاهلي احتفالاً يذكر، ولم يوله عناية ما ولا أحلَّه منزلة خاصة، وفوق ذلك كله فَقَدَ النثرُ الجاهلي قيمته بفقدان أصوله قبل التدوين ولضياع أكثره المدة الطويلة التي عاشها هذا النثر معتمداً في بقائه على الحافظة وحدها، والحافظة يند منها النثر ولا يبقى طويلاً فيها بعكس الشعر لأنه مقيَّد والنثر مطلق، والمقيَّد يبقى في الذاكرة أكثر مما يبقى المطلق.

ومع ذلك كله فهذا النثر المأثور عن العصر الجاهلي قد رفضه كثير من الدارسين والنقاد، ومن بينهم لفيف من المستشرقين وطه حسين أيضاً، رفضوا أن يسمى نثراً فنياً، لأنه في رأيهم لم يكن محتوياً على عناصر النثر الفني ومقوماته، وذهبوا إلى أنه أشبه بالنثر الشعبي، الذي يستعمل لغة لأحاديث الحياة اليومية العابرة.. ولكل هذه الأسباب كانت الصور الأدبية النثرية عند العرب الجاهليين غير ذات أهمية تذكر في مجال النقد وموازين الكلام والحديث عن القيمة الفنية.

ولقد بقيت القصيدة الغنائية وحدها أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين، وهو المجتمع الذي نزل القرآن متحدثاً إليه مفيضاً في التوجيه ـ كل التوجيه ـ له.

وهذه القصيدة الغنائية قد مرت بأطوار عديدة من التهذيب الفني، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من قصائد المعلقات المعروفة ذات الصيغة المتوارثة العمودية، التي وضعت تقاليدها الفنية العربية كل ألوان التقاليد الشعرية للقصيدة العربية التي ورثناها عن الجاهليين، وكانت لهذه القصائد منزلتها ومكانتها وأهميتها في المجتمع العربي، فهي حديث الناس، وموضع اعتزازهم وتقديرهم وفخرهم، وهي التي ينشدونها في مجالس لهوهم وجدهم وفي مسامراتهم، وأنديتهم، وفي أسواقهم وحروبهم وحلِّهم وترحالهم، وهي على العموم آية عبقرية، ودليل شخصية وذاتية عظيمة والشاعر عندما يكتبها ترتفع قيمته الاجتماعية في مجتمعه ويصبح وله كل ألقاب الحمد والمجد والتقدير بين الناس، وبلغ من أمر قصائد المعلقات أن عُلِّقت على أستار الكعبة.

وإذا أردنا أن نعرف قيمة قصائد المعلقات هذه لنرى مدى ما تستحقه من تقدير رأينا أنها:

١ - تخلو من كل قيمة فكرية أو إنسانية أو روحية.

٢ - وأنها تخلو من كل وحدة فنية، مما لاحظه عليها كثير من النقاد المعاصرين من أمثال العقاد في كتابه «مراجعات» وغير العقاد أيضا، كأحمد أمين فيما كتب عن الشعر الجاهلي من مجلة الثقافة[1].

٣ - وأنها تمثل منهجاً بدويًّا في التعبير والأسلوب واللفظ والخيال وليس هو كل شيء في مناهج التعبير الأدبي.

٤ - وأنها كذلك تكثر فيها أخطاء الشاعر اللغوية كثرة مذهلة.

ولسنا نقول نحن ذلك تجنِّياً على القصيدة العربية القديمة، بل لقد سبقنا إلى ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني في كتابه المشهور «إعجاز القرآن»

---

(١) جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي، أحمد أمين مجلة الثقافة المصرية عام ١٩٣٩.

الذي درس معلقة امرئ القيس المشهورة في صفحات عديدة من كتابه، وأبان ما اشتملت عليه من أخطاء لغوية وفنية وغيرها.

ونحن نعرف أهمية قصائد المعلقات معرفة وثيقة فهي التي وضعت كل الأصول الفنية للقصيدة العربية، وهي التي تمثَّلت فيها البلاغة العربية بجميع خصائصها تمثُّلاً كاملاً وهي التي استنبطت منها أحكام اللغة العربية وقواعدها في بيانها ونحوها وصرفها واشتقاقها وأحكام مفرداتها ونظام معجماتها وغير ذلك.

وهي التي كذلك أمدَّتنا بالشاهد والمثل على كل شيء في لغتنا العربية، ومن أجل ذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يقول: «إذا عَزَّ عليكم فهم شيء من كتاب الله تعالى فالتمسوه من شعر العرب»[1]، فنحن لا نريد أن نغض عن قيمة القصيدة الشعرية الجاهلية أو ننفر منها، ولكننا نضعها في موضعها الذي وضعه فيها الإمام الباقلاني في مقام حديثه عن إعجاز القرآن الكريم.

هذه القصيدة الشعرية إذن كانت أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين ومع ذلك فإنها لا تزن شيئاً في مقام الحديث عن الصورة الأدبية من القرآن الكريم.

(٣)

فما هي إذن الصورة الأدبية في القرآن الكريم والجديد فيها، والطريف منها، والشيء الذي لم يعرفه الجاهليون من أجناسها وفنونها وألوانها وطرق أدائها؟

لأول وهلة نجد أنفسنا أمام أشياء جديدة كل الجدة، ففرقان وقرآن وآيات وسور: أسماء جديدة لمسميات جديدة كذلك.

---

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتاب الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، وكتابنا موقف النقاد من الشعر الجاهلي

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَى مَكثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[1].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[2].

﴿آلـر تِلْكَ آيَاتِ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينِ إِنَّا نَزَّلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾[3].

﴿طه، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[4].

﴿سُورةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاها، وَأَنْزَلْنا فِيهَا آياتٍ بَيِّنَاتٍ، لَعَلَّكُمْ تَذْكُرُون﴾[5].

ولم ينزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب، فلم يتخذ شكل القصيدة الجاهلية نمطاً له، ولم يأت على أسلوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل الحكمة ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة.

ولكننا نجد فيه القصة في أرفع أشكالها وأروع ظلالها، ونجد فيه الخيال الرفيع في ألْوان بديعة من التمثيل والتشبيه والمجاز والكناية والاستعارة، ونجد فيه البشارة والإنذار والوعد والوعيد، ونجد أرفع الأوصاف وأجلّ الصور.

لم يكن القرآن شعراً ولا سجعاً ولا مزاوجة ولا نثراً مرسلاً ولا خطابة، بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومبائن للمألوف من مناهج كلامهم، ينصرف على وجوه مختلفة، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأمثال، واعذار وانذار ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم، وسير مأثورة، ويتردد بين طرفي الإيجاز

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١٠٦.
(٢) سورة الفرقان، الآية ١.
(٣) سورة يوسف، الآية ١.
(٤) سورة طه، الآيتان ١ و ٢.
(٥) سورة النور، الآية ١.

والإطناب، كلمه يضيء، كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، كالروح في البدن، والأمن في الوطن، وكالغيث الشامل، والسحاب الهاطل، وكالضياء الباهر، والبحر الزاخر.

وإن تعجب فعجب تصوير القرآن الكريم للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وللنفس البشرية في سلمها وحربها ولهوها وجدها وألمها وأملها، وكفرها وإيمانها، وللمثل العليا في الحياة المهذبة الكريمة التي يسعى إليها إنسان الإسلام، وتسير لشاطئها الأمين إنسانية الحياة في ظلال الدين، لأنه خلاص لكل ما في الحياة من ثقافة وحقائق، والمنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة.

وفي القرآن الكريم من سموٍّ وصفاء الحكمة، وإتمام مطابقة المثل، ما جمع به البلاغة من مختلف أقطارها؛ وفيه من الحجة الدامغة، والروحانية الصافية، والحديث عن العقيدة، والإفاضة في بيان الشرك والإيمان، والشر والخير ما يوقظ الضمائر ويحرك العقول، ويثير النفوس.

وفيه من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية، والشرائع البائدة، والأديان السالفة، ومن أخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن الأخبار بالمغيبات، ومن الإفاضة في شرح الدعوة، وبيان التشريع والاستدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة في خلق السموات والأرض، وبقياس الغائب على الشاهد، وبضرب الأمثال، وبالبراهين العقلية المجردة؛ وفيه من حسن التقسيم، وجمال المقابلة، وروعة الطباق، وبديع الجناس، ورفيع الفواصل ما يهز القلوب ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه.

ومع ذلك فهو كله ليس كتاب قصص، وليس كتاب متعة وتسلية، وليس شعراً أو أدباً أو حكمة، أو تاريخاً أو اجتماعاً، وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات، ونهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية، فهو كتاب الإنسانية كلها وصحيفة البشرية قاطبة.

ومـا أروع القرآن في فـواتحه ومقـاصده وخـواتيمه، وفي مبـادئ آيـاتـه وفواصلها، وفي حـديثه عن المعـاني الدقيقـة، والأفكار العميقـة، والأغراض النبيلة، وفيمـا اشتمل عليـه دقة التصـوير، وجمـال الوصـل، مع سمـو التعبير وعـظمة التـأثير، وروعـة الإيجاز، وسحـر المجاز وبـلاغة التكـرار وفصـاحـة التعـريض، يصور نعيم المؤمنين، وسعـادة المتقين، فيدعـك تشعر بـالـراحـة والنشـوة، وبالسعـادة الفـرحـة، وبـالسـرور والحبـور، وبقـرَّة العين، وائتـلاج الصـدور، وبالعجب والـطرب، ثم يصور هـلاك العاصين وشقـاء الجـاحـدين وعـذاب الكافـرين فيتركـك حليف الهم والحزن والتـذكر والاعتبـار، والتفكـر والتدبر، والألم والدفع، والبكاء والعبرة المنسكبة، والآهة المرددة.

والسـورة القـرآنيـة، قصيـرة أو طـويلة، تجيء ممثلة لفكـرة، ومصـوِّرة لغـرض، ومؤدية لمعنى، وتسيـر في جوهـا العبق، وأفقها السـاحر، وجـوانبها المشرقة، فتسير مع الفكرة المقصودة خطوة خطوة، وتجدك تمشي مع الغرض القرآني، غاية فغايـة، في حدة واتسـاق، وفي نظام عجيب، وتـرتيب غريب، وفي منطق متسق، وحجج متدافعة متدفقة، وتجـد الآيات تتحـرك في معرض الاستدلال كأنها موكب من نور، ومهرجان مصور لأدقِّ خفايا الشعـور، وحنايـا الصدور، وتجد في هذه السورة فكـرة واحدة غيـر الفكرة التي تمثلهـا السورة الأخـرى، وغرضـاً واضحاً غيـر الغـرض الـذي تـرمي إليـه السـورة السـابقـة أو اللاحقة.

وتجد افتتاحات السور العجيبـة، مثل ص، ن، ق، طـه، طسم، حم، الر، آلم، إلى غير ذلك.

وتجـد الآيـات تتـوالى في السـورة، وكـأنهـا البحـر الهـادر، والمـوج العاصف، وتجد الفواصل في السورة، موقعة الخطا، منغمة الحروف، وتجد القصة والعبرة، والموعظة، والحكمة، في قالب من السحر ولا كسحر هاروت وماروت وفي طابع من الحسن والجمال، ولا كحسن يوسف وإخوته.

وتجد لكل سـورة اسماً عجيبـاً، البقرة، والـرعد، والـطور، والمائـدة،

والكهف، ويونس، ويوسف، وإبراهيم، ومحمد، والنور، والمؤمنين، والمنافقين، والضحى، والشمس، والقتال، والفتح، والحشر، والصف، والنساء، والطلاق، والتحريم، والأحزاب، والمائدة، والأنفال، والتوبة، وآل عمران، والجمعة، والعصر. إلى غير ذلك وتجد لكل اسم من أسماء السور قصة، ولكل قصة حدثاً وعبرة.

وكل ذلك نمط مخالف لأنماط البيان عند الجاهليين، وصورة مباينة لصورة البلاغة عند العرب الذين تنزلت عليهم هذه المعجزة الإلهية الحكيمة... إنها صورة أدبية جديدة لا تجد لها مثلاً ولا شبيهاً بها، ولا تجدها نفسها، إلا في القرآن الكريم.

سبحانك ربي، أنزلت القرآن، وفصلت الفرقان، وأحكمت البرهان، وأنت رب العالمين، ومنزل الكتاب المبين. ورأى العرب الكتاب شيئاً عجيباً، ومنطقاً جديراً، ومنطلقاً فسيحاً من الحكمة الإلهية الجليلة، فقال عتبة بن ربيعة حين ذهب فاستمع إلى محمد يتلو آيات الكتاب: «لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بسحر ولا كهانة ولا شعر» إنما هو الوحي، الوحي المنزل على محمد بن عبد الله، الوحي الذي نفى بعض العرب على محمد أن ينزل عليه، حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن قيس يقول له: ما تقول فيما سمعت من محمد، فقال الأخنس: ماذا أقول: قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم، وقالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم عادوا يقولون: فينا نبي ينزل عليه الوحي، والله لا آمنت به أبداً.

إنه الوحي المنزل من السماء، المشتمل على الروعة والجمال والجلال والبهاء، وكفاه ذلك فخراً على فخر، وسناءً على سناء.

(٤)

ونتحدث الآن عن الجدة في الصورة الأدبية القرآنية، التي نريد منها الشكل وما يقابل المضمون، بعد أن تحدثنا عن الجدة في الصورة الأدبية

القرآنية التي يراد منها الجنس الأدبي وطريقة الأداء والمنهج الذي ينتهي إليه المتكلم في التعبير.

والصورة التي نريد أن نتحدث هنا عنها، ونريد بها الشكل في النص القرآني، لا يمتري أحد ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام في أنها والجدة صنوان، وفي أنها تعلو ببلاغتها على كل بيان.

تتكون عناصر الصورة من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، ويضاف إليها مؤثرات يكمل بها الأداء الفني، من الإيقاع واللحن للكلمات والعبارات ومن الصور والظلال التي يشقها التعبير، ثم هناك طريقة تناول الموضوع، أي الأسلوب الذي تُعرض به التجربة الأدبية.

والصورة المثيرة للالتفات هي القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلم ومشاعره، والتي تتجمع فيها روعة الخيال والنغم ووحدة العمل الأدبي وتظهر فيها شخصية الأديب وتخيُّره للألفاظ تخيُّراً دقيقاً.

ويقف البليغ أمام اللفظ طويلاً، يؤثر لفظة على لفظة، ويفضل كلمة على كلمة، ويقول كثير من النقاد: إننا نفكر بالألفاظ، أي أن الألفاظ هي مظهر إدراكنا الفكري، وعمل الأديب تهيئة الجو الفني للألفاظ لتشع على قارئها وسامعها الظلال والإيقاع وترسُّم الصور، وتؤدى المعاني في رشاقة وحركة، وتتابع وعذوبة، تقرأ قوله تعالى في كتابه العزيز في سورة الضحى ﴿وَٱللَّيلِ إِذَا سَجَى﴾[1] فتجد جوًّا من الهدوء والطمأنية والنعمة، وتقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائفاً يَتَرَقَّبُ﴾[2]، فتجد كل لفظ في التعبير قد رسم صورة مذعورة يلتفت في كل جانب خوفاً وطلباً لموضع الأمن، وتقرأ قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم﴾[3] فتجد البلاغة في أرفع منازلها، ولا تجد

---

(١) الآية الثانية.

(٢) سورة القصص، الآية ١٨.

(٣) سورة القلم، الآية ١٣.

لفظاً يمثل الفجوة والغلظة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة. . . وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم تمثل المعنى تمثيلاً دقيقاً رائعاً كاملاً غير منقوص. . .

والخيال في الصورة الأدبية يبدو في مظاهره العديدة من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة وحسن التعليل. . .

والإيقاع أو اللحن في الصورة الأدبية عنصر لا يقل أهمية عن الخيال.

وموهبة البليغ تجعل أسلوبه مملوءاً بالحيوية والمتعة والتأثير، وتجعله لا يقلد أحداً في لفظته ولا في عبارته، وليس الأسلوب حشداً من الألفاظ المرصوصة، ولكنه تعبير عن تجربة شعورية، وترتب الكلمات فيه وفق ترتب المعنى في الذهن.

ومن دلائل بلاغة الكلام أن يراعى فيه مقامات الكلام وأحوال بلاغته فتوضع الجزالة في وضعها، والرقة والعذوبة في وضعهما، ويوضع التقدير والتأخير، والذكر والحذف، والوصل والفصل، والإيجاز والإطناب، كل في وضعه، وبذلك تكمل الصورة، وترتفع منزلة الأسلوب في البلاغة، ومن البدهي أن أبلغ الكلام هو ما لا يلقى فيه بالأحكام الفكرية جزافاً، وإنما يجب أن يصور أسلوب المراحل المختلفة لانفعال المتكلم وإحساسه بالتجربة الشعورية التي يصورها.

والصورة الأدبية بهذا الاصطلاح النقدي كله هي كل شيء في البلاغة، أو أهم شيء فيها. ولو أردنا أن نقول إن الصورة الأدبية بهذا المعنى، وهو ما يرادف الشكل أو النظم أو الأسلوب جاءت على أبلغ ما يكون الأداء في القرآن الكريم، وعلى أروع ما يكون التصوير في أسلوب الذكر الحكيم، لما أتينا بجديد في الموضوع.

إن البلاغة القرآنية تحمل عناصر جديدة كل الجدة، عما ألف العرب في بلاغاتهم وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم خرج في أسلوبه وصوره عن النطاق الذي كان العرب يستعملونه من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والقصر والوصل والفصل، والإيجاز والإطناب، والتشبيه والتمثيل،

والمجاز والإيجاز، والاستعارة والكناية، والتمثيل والتعريض، ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية إلى مستوى القمة، وحدِّ الإعجاز، ومنزلة السحر والروعة، ولو أردنا أن نوازن بين تشبيه قرآني وبين نظائره من كلام العرب لوجدنا البون شاسعاً، والفرق بعيداً، ويطول بنا الأمر لو وازنّا بين أساليب القرآن وأساليب العرب، فإن النتيجة التي سنخرج بها من هذه الموازنة هي عظمة القرآن وجلاله وسموه وروعة الأسلوب والسحر فيه.

والعناصر الأخرى الجديدة في الصورة الأدبية القرآنية كثيرة لا يمكن حصرها، ولا تزال علوم البلاغة والنقد تسير في طريقها محاولة الكشف عنها، من مثل الوحدة العضوية في الصورة الأدبية، ومن مثل التجربة الأدبية التي يؤديها البليغ ويحملها كلامه، ومن مثل العاطفة والفكرة والخيال في الصورة، ومن مثل النظم والشكل في النص، ومن مثل أثر الإلهام أو الصنعة في الصورة الأدبية، ومن مثل الرمزية في الأسلوب أو الفكرة، ومن مثل الوضوح والجمال والتأثير في الأسلوب، وهناك قضايا تناولها النقاد القدامى تتصل بالصورة الأدبية، كالرقة والجزالة، وكالتعريض والكناية، وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك.

والعناصر القرآنية للصورة الأدبية فيه تمثل الجدة، كل الجدة، في كل جوانبها وألوانها، سواء منها العناصر القديمة التي تداول استعمالها في الأسلوب، أو العناصر الجديدة التي كشف عنها النقاد المحدثون، أو القضايا البيانية المتصلة بالصورة التي كشف عنها النقاد القدماء، ولو حاولت أن أُبيِّن كل ذلك فسوف أكون كمن يحاول أن ينقل ماء البحر كله في ساعة أو بعض ساعة، وكمن يظن أن في قدرته الإحاطة بكل ما كتبه العلماء والنقاد في أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه.

(٥)

وحسبك أن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها، ومن إشراق البيان وجمال الديباجة، وعبقرية التصوير والتعبير.

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة، وبين القوة والعذوبة، وبين حرارة الإيمان وتدقيق البيان، فهو السحر الساحر والنور الباهر والحق الساطع والصدق المبين.

نظم رائع، وألفاظ عذبة، وخيال صادق، وعاطفة حارة، وفكر رفيع، تملك على القارئ والسامع لبه ووجدانه، وعقله وبيانه، ولما سمعه فصحاء العرب وأرباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين، وما إيمان عمر حين سمع آيات من أول سورة «طه» وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله: «والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر» حين سمع «فصلت»، وما تردُّدُ بلغاء العرب على الأماكن التي كان يتعبد فيها محمد ليلاً، ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية، إلا دليل على سحر القرآن الذي جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1]، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[2]، السحر القرآني الذي يتمثل فيما يتمثل في صدق الشعور، وحرارة العاطفة، وجمال النظم، وأحكام البيان، وروعة التصوير.

أي وربي، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أسلس من ألفاظه، وهل ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشد تشاكلاً وروعة من نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب، الآخذ بمجامع القلوب، والمشاعر، والنفوس.

إن بلاغة الصورة الأدبية وجدتها في القرآن الكريم لا يحيط بها وصف واصف ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها وأسرار إعجازها باحث أو ناقد.

وحسبك روعة القرآن وجِدّته وحيويته وأخذه بالأفئدة، والأسماع، والمشاعر، والعواطف والنفوس، وحسبك خلوده على مر الأيام، واختلاف البيئات والعصور.

هذه البساطة في الأسلوب، والوضوح والجمال والدقة والقوة فيه،

---

(١) سورة المائدة، الآية ١١٠، والأنعام ٧، وغيرهما من الآيات.
(٢) سورة المدثر، الآية ٢٤.

والجزالة والعذوبة في أطرافه ونواحيه تمثل فيما تمثل جانباً من جوانب عظمة التصوير في القرآن الكريم.

وهذا أعرابي سمع قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر، وأعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين﴾[1]، فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وهذا آخر سمع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[2]، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على هذا الكلام.

وماذا نقول في حسن التأليف وتخيُّر الألفاظ، والتئام الكلمات، وإحكام الصنعة، وجودة السبك، وكمال البيان، وجمال الرونق، ومتانة النسج؟ وماذا نقول في هذا النظام الفريد، والنسق الغريب، وفي هذه النضارة والجلالة وفي ذلك الإشراق والبهاء ودقة الصوغ؟

ألفاظ كأنها السحر، وكأنها الدر، تشع نوراً كما يشع الفجر، وتهدر حركة وحياة ونمُوًا وتجدداً كما يهدر البحر، وتهدأ وتعذب وتسلس كما تهدأ صفحة النهر.

وصور تموج كما تموج العواصف، وتتحرك كما تتحرك الأشباح لراكب مسرع في السير.

وبلاغة هي حديث الأيام، والتي سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالي الأعوام، وما هي إلا الضوء السافر، والهدى الباهر، والوحي الصادق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أورأيت وسمعت ما قاله الوليد بن المغيرة، وقد تردد على الرسول وسمع منه فقال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٢) سورة يوسف، الآية ٨٠.

لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه.

والسورة القرآنية تطول وقد تقصر، وهي مع ذلك مسلسلة محكمة متصلة الحلقات، مشرقة الصور والقسمات والصفحات، نسق هو السحر، وتآخٍ وصفاء وتعاقب في الترتيب كأنه الوحدة الإلهية التي دعا إليها القرآن، ممثلة في كلمات.

المعنى عند العربي كان يتم بتمام الجملة، وهذه الجملة قصيرة في نظمهم، ولكل جملة معنى، وتتوالى المعاني دون ترتيب ولا نظام، وجاء القرآن الكريم، فصارت الجملة تمثل أرفع المعاني وأدقها، وصار نظام وتآخ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر، وقد تطول الجملة القرآنية، وتتركب فيها الصور، وتتوالى المشاهد، وتتعاقب المعاني، وقد لا يؤدي المعنى القرآني آية أو آيات، بل عشرات الآيات، ومع ذلك فلن تجد إلا فكراً مهذباً، ونظاماً محكماً، وتصويراً مفعماً، ووشياً منمقاً، وإحكاماً في الصياغة، ودقة في الصناعة، ولن تجد إلا وشياً يبهرك جماله، ويسحرك جلاله، ولن تجد إلا العذوبة والرشاقة والسلاسة والوضوح.

والصورة القرآنية تتميز بالحركة ودقة التصوير، وإبراز معالم المعنى جزءاً جزءاً، وحركةً بعد حركةٍ، وإن شئت فاسمع قوله تعالى: ﴿**وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً**﴾[2]، وقول تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً**﴾[3]، ولو وقفنا عند هذه الآية الأخيرة وهي من سورة الكهف لرأينا فيها هذه الحركة العنيفة المتدافعة ممثلة في أروع بيان، وأبسط تعبير، ولرأينا فيها هذا الإيجاز الرفيع

---

(١) سورة طه، الآية ١٠٨.

(٢) سورة طه، الآية ١١١.

(٣) سورة الكهف، الآية ٩٩.

البليغ من أداء المعنى كاملاً غير منقوص، ولرأينا فيها هذه الصورة البديعة لأروع تصوير للغرض المقصود، الآية ثلاث جمل قصار:

١ ـ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض.

٢ ـ ونفخ في الصور.

٣ ـ فجمعناهم جمعا.

ونرى في الجملة الأولى الحركة والتدافع والاختلاف والاضطراب وما يصيب الناس من أثر ذلك من أهوال وعذاب وشدة، والسر في ذلك هو كلمة يموج التي أدت لك الصورة كاملة، والمشهد رائعاً، والمعنى ممثَّلاً أدق تمثيل، وأدت لك الحركة والحياة، ومشت بك إلى آفاق رحيبة من جلال الأداء، وروعة النظم ودقة المعنى وسمو التصوير.

وفي الجملة الثانية لا تجد أبلغ من هذا التمثيل الذي يصور لك قدرة الله معلنة بأروع مظاهر أهيمتها وسيطرتها إلى الناس أن قد جاء أمر الله، وأن نهاية الأمر لا بد أن توضع، وأن الناس وهم في أمر مريع لا بد أن يستيقظوا لحدث جديد، وأمر عتيد، وقدر شديد.

وتجيء الجملة الثالثة تعلن إليك أن الله عز وجل يجمع الناس جميعاً إلى ساحته العظيمة ليفصل بينهم يوم القيامة بالحق والميزان، وأن قدرته لا تعجز عن جمعهم مع هَوْل كثرتهم، وشدة شتاتهم، ومن ثم جاء التأكيد بالمصدر «جمعاً» ليدلك على عظمة القدرة، وروعة المشهد، وجلال اليد المصرفة لأمر الخلق في هذا الموقف العصيب.

ولو أن بليغاً من أبلغ الناس، ومن أذكاهم وأحذقهم بصناعة البيان، حاول أن يؤدي هذا المشهد العظيم ويصوره، وأن يمثل هذا الحدث الجليل ويرسمه، لما استطاع أن يقول، ولما قدر أن يتكلم، ولما أمكنه أن يؤدي هذا المعنى في عمقه ودقته بمثل هذا الأسلوب الساحر بجماله وجلاله وروعته.

أي وربي، إنه القرآن الحكيم، إنه الذكر المبين، إنه الجلال

والعظمة، والإيجاز والإعجاز، وروعة التصوير التي لا تقف عند حد، ولا تنتهي إلى بيان.

وماذا أقول، وأنا مهما قلت فلن أقول شيئاً ولن أبلغ بكلامي مبلغاً ما . . .

يا كتاب الله، يا معجزة القرآن، يا آية البيان، يا روعة الدهور، يا عظمة العصور، يا جلال السماء، يا حكمة الأنبياء يا وحياً نزل على محمد بن عبدالله . .

ياكتاب الله حسبي، فإن الإنسان لأعجز من أن يحيط بما احتويت عليه من أسرار البيان، ودقائق الفرقان، وروائع التصوير والتبيان.

أثر القرآن في اللغة والأدب

كان للقرآن الكريم في لغة العرب وآدابهم أبلغ الآثار وأروع النتائج. وإذا كان قد قلب حياتهم وهذب أوضاعهم وغيَّر تفكيرهم ووسع آفاقهم، فلا بد أن يصقل لغتهم ويقوِّم أساليبهم، ويطبع ألسنتهم بطابع جديد.

وأي شيءٍ في حياة هؤلاء الناس لم يقله القرآن، ولم يخلع عليه جمالاً وحسن سمتٍ وبهاء ورونق؟

من مظاهر تأثير القرآن في اللغة

١ ـ هجر وحشيها، وتهجين مستغربها، والزراية بنافرها، والزيادة عليها زيادة أتمت ثروتها وأنارت صفحتها، وأضفت عليها حللاً رائعة من الزينة والحسن.

٢ ـ وكان للقرآن فضل عظيم، إذ جمع العرب على هذه اللغة، وظل على اختلاف الحقب، وتطاول الزمن، كلما أوشك الناس أن يتفرقوا في

الألسنة وتباينوا في اللهجات، جَمَعَهُمُ القرآن تحت لواء واحد ووحد فطرهم اللغوية.

٣ ـ حفظ القرآن اللغة من العفاء والانقراض كما انقرضت من قبل لغات كثيرة.

٤ ـ والقرآن أول عامل في ذيوع اللغة العربية وانتشارها في شتى البلاد فأصبحت لغة الدين والسياسة والأدب في أرجاء العالم.

أثره في الأدب

١ ـ اكتسب الشعراء والخطباء والكتّاب من أساليب القرآن وطرائقه في التعبير ومناهجه في سوق الآراء، وصياغة الحجج، ما جعلهم يحتذون حذوه، ويتبعون نهجه، فإذا كنا نقرأ في آي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].. أو قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجِعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلأَعَزُّ مِنْهَا ٱلأَذَلَّ﴾[2] أو قوله: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[3].. فإنا نرى هذا الأسلوب البياني يتمثل كذلك في قول حسان بن ثابت في الرد على ابن سفيان بن الحارث حين هجا النبي ﷺ:

أتهجوه ولست له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداء

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[4] رأينا كذلك حسانا يقتبس هذا الأسلوب الرائع في قوله:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

---

(١) سورة سبأ، الآية ٢٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية ٨.

(٣) سورة مريم، الآية ٧٣.

(٤) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[1] رأينا معن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن:

فمـا زلت في لين له وتعـطُّف ... عليه كما تحنو على الـولد الأم
وخَفْضي له مني الجناحَ تألُّما ... لتـدنيه مني القـرابـة والـرحم

وكما أثَّر القرآن في أساليب الأدباء كذلـك أثَّر في تفكيـرهم، حتى لقد رأينا الحطيئة وهو أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول:

ولست أرى السعادة جَمْعَ مالٍ ... ولكن الـتقـي هــو السـعيــد
وتقـوى الله خيـر الـزاد ذخـراً ... وعنــد الله لـــلأتقى مـــزيـــد

والحق أن القـرآن الكريم هـو الذي خـرج أعلام البـلاغـة وفحـول البيان والأدب والشعر.

٢ ـ رفع القرآن من شأن النثر بعـد أن كان المقـام الأول للشعر وحـده من بين فنون الأدب.

٣ ـ أحيـا القـرآن فنـونـاً أدبيـة جـديـدة: كـالقصص، وأدب الـزهـد، وأدب التاريخ... وأبطل سجع الكهان، والهجاء الكاذب، والفخر المبالغ فيه، وسوى ذلك من الأغراض المرذولة.

٤ ـ وبسبب القـرآن عكف الـرواة على جمـع اللغـة وآدابهـا، ووضعت علوم النقـد والبلاغـة لمعرفـة إعجازه، وعني المسلمـون بشتى العلوم الـدينيـة والعربية التي صارت أساس صرح المدنية الإسلامية الزاهرة[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٤.
(٢) راجع الحياة الأدبية في صدر الإسلام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ٣٦ ـ ٣٩.
وراجع: الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت ص ٢٥٤ ـ ٢٧٤.
وراجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية، رسالة ماجستير د. صلاح الدين محمد عبد التواب.

القرآن كتاب الله الخالد المعجز

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢)

إن نظم القرآن الكريم على تصرُّف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف والبديع والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحياناً الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد جاء القرآن، على عرضه وطوله، متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودهُم وَقُلُوبهُم إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]. . ولو كان من سند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج، ومعرض رشيق، ونظم أنيق، غير متعاصٍ على الأسماع، ولا ملتوٍ على الأفهام، ولا مستكره في اللفظ، يمر كما يمر السهم ويضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على الطارق المنتاب، كالروح في البدن، والنور المسيطر في الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر، ﴿لَا يَأْتِيهُ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

ولقد كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر تحبها وتعشقها وتجيدها، وترفع من منزلة الشاعر الخلق والخطيب البليغ، وتنوه

---

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٢

بهما. وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً، فإذا نبغ في القبيلة شاعر، أو ظهر فيها فصيح، استبشرت وافتخرت وأقامت الموائد، واحتفلت بذلك الشيء العظيم، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها وباركت شاعرها أو خطيبها.

كان ذلك فطرتها، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء، وللفراغ الكثير الذي كانوا فيه، والحياة البادية التي تثير العاطفة وتستفز المشاعر، وتلهم الشاعرية، وتوقظ الخيال والبلاغة، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون.

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقي إليهم العرب القياد، يصغون لقولهم ويسيرون وفق رأيهم، ويمضون ما يحكمون به بينهم. يضعون الشريف النابه، ويرفعون الخامل الوضيع. فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيماً، وكان النابغة سفيراً للعرب في قصور المناذرة والغساسنة، وحكمها بين الشعراء في سوق عكاظ، وكان الأعشى يغيِّر شعرُه مكانَةَ الناس الاجتماعية بين العرب، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبني غسان، ويسافر إلى الحبشة، وكان قس بن ساعدة الأيادي الخطيب يفد على قيصر والغسانيين، إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء، والشعر والشعراء. . . وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب، ويضع الهدنة فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه.

فلما بُعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالته إلى الناس كافة، نزل عليه كتاب مطهر من السماء، هدى ونور وبشرى فيه دعوة إلى التوحيد، والطهر والخير والحق، وفيه ما شاء الله أن يبلغه البشر، من شؤون الحياة، وأخبار الأمم. وقصص دعاة التوحيد من المرسلين والأنبياء، وفيه كل ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم من تشريع، وعبادات، وأخلاق، وفضائل، وآداب، وتوجيه كامل إلى المثل العليا.

نزل هذا الكتاب الكريم، والنور الخالد، والوحي الصادق، والدستور العظيم، فكان في أعلى درجات البلاغة، ومنزل الفصاحة، لا يدانيه بيان، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من شعر وخطب، ومحاورات، ومفاخرات، ومنافرات، ووصايا، ومثل وحكمة، وكهانة.

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم، فخرّوا ساجدين لفصاحته، مذعنين لبلاغته، مقرين بأنه نسيج وحده، وعلم مفرد في طبقته في البيان. بهر الشعراء منهم، فخرست ألسنتهم وسكتت شاعريتهم، وضاع إلهامهم، كما يضيع السراب في الصحراء، وعجبت الخطباء فيهم، فخرست مقاولهم، وصمتت ملكاتهم، وفقدوا مواهب البلاغة والقول. . . وذهبت كل بلاغة في تياره، وضلت الفطر الأدبية العالية، وفرت أمام أضواء نهاره.

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين، والإيمان برسالة سيد المرسلين. فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الإسلام. . فقالوا في القرآن الكريم: هو شعر، هو سحر، وهي أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثل هذا، وإن هذا إلا اختلاق. . . ورموا محمداً بالجنون.

فتحداهم الله عز وجل ورسوله محمد صلوات الله عليه، بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة، بالقرآن الكريم، والكتاب العربي المبين. قال الله تعالى **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ. وادعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿أَمْ يَقُولُونَ: افْتَرَاهُ، قل: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهُ مُفْتَرَيَات، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين، فَإِنْ لَمْ**

(١) سورة البقرة، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وأَنَّ لَا إِلَهَ إِلا هُو، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُون؟﴾(1).

وقال تعالى: ﴿أم يَقُولُون تَقَوَّلَهُ، بَلْ لَا يُؤْمِنُون، فَلْيَأْتُو بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾(2). وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(3)، فسجل عجز البشر كافة، وبيَّن أنه لا يستطيع الإنس والجن - ولو تظاهروا - الوقوف أمام هذا التحدي ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة، التي هي فوق طاقتهم، لأنها بلاغة خالق البشر، ومصور الإنس والجن، الملك القادر والمدبر الحكيم: الله جل جلاله، وعلت قدرته، وعظمت حكمته. . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً وساحراً، ومن الافتراء والجنة، ومن الكذب والخيال. ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(4).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُون * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيل * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِين * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِين * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِين * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُم مُكَذِّبِين * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِين * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِين﴾(5).

وهكذا رد الله عز وجل عليهم وبيَّن كذبهم وافتراءهم، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به، وبيَّن أنه منزَّل من السماء، وأنه معجزة محمد بن

---

(1) سورة هود، الآيتان ١٣ و ١٤.
(2) سورة الطور، الآيتان ٣٣ و ٣٤.
(3) سورة الإسراء، الآية ٨٨.
(4) سورة النجم، الآيات ١ و ٤.
(5) سورة الحاقة، الآيات ٤٠ و٥١. .

عبدالله الخالدة، وتحداهم ـ إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين ـ إلى الإتيان بمثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو بسورة واحدة. فعجزوا أمام التحدي، وباءوا بالخزي والهوان والذلة، وصغرت نفوسهم وأقدارهم، فلم ينطقوا بقول، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة، واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم.

ثم امتدت الأجيال، وتوالت العصور، والقرآن يتردد صداه في المشارق والمغارب؛ فلم نَرَ رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن، أو يدَّعي قدرته على مثل هذا البيان، ولم نَرَ مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة، أو خطيباً يلقي خطبة، أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة، أو شبيه ذلك السحر. وفي تاريخ العربية فحول وفحول، كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع، وكجرير والفرزدق، وبشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعرِّي وشوقي، ولكن أين بلاغتهم من هذه البلاغة، وأين منازلهم من هذه المنزلة؟ وهل منهم إلا مَنْ أذْعَنَ وبهر، وخشع وسحر، وخضع وأخذ، وأقرَّ أنه وحي من السماء... وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة، كنهج البلاغة، ورسائل الجاحظ، وكليلة ودمنة، ومقامات البديع... إلخ...

ولكن ما هذا وغيرها من المؤلفات، وما مكانتها وما قيمتها، وما أثرها وما خطرها في البلاغة الأدبية، أمام كتاب الله المعجز وكلامه الحكيم؟... بل أمامك الحديث النبوي الشريف، هو في الدرجة العليا من الفصاحة. ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسي البيان.

واقرأ إن شئت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر ـ بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل ـ في ذلك: فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن القرآن يخالف

نظم كلام الآدميين[1]، وأراد مسيلمة الكذاب ـ فيما يُروى ـ أن يقول كلاماً، فخزي وعجز، وبان عليه العي والحصر، وباء بالخسران، وسوء المنقلب، وأين يقع قوله: «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب، ولا يابس»... وقوله: «المبديات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزا، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسنا، لقد فضلتم أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر...»[2] وغير ذلك من كلامه، من ذلك السحر والنظم القرآني العجيب المعجز الذي ﴿لَا يَأْتِيهُ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

وفي الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون، وأدباء وكتاب وشعراء، وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار أدبية.

ولكن هل هناك من هذه الآثار، ما يعادل في أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتجديد واضح للمثل الإنسانية العليا، ورسم الأهداف للأفراد والجماعات والشعوب، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان؟

وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه، ويعدونه دستورهم في الحياة، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية؟

وهل من بينها أثر قام به دين، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالاً طوالاً مثل القرآن الكريم. والكتاب الحكيم؟

وهل للقرآن الكريم ـ بربك ـ شبيه من الكتب: وحَّدَ لغةً وحفظها وأذاعها في العالم، ورفع شأنها وهذَّب ألفاظها وأساليبها، وأوحى فنونا جديدة

---

(١) ١٢٦ إعجاز القرآن للباقلانى، طبعة ١٩٤٨.

(٢) راجع طرفاً منه في المرجع نفسه ص ١٢٨.

(٣) سورة فصلت، الآية ٤٢.

من الأدب، وتـأثر النـاس ببلاغتـه وسحره، ووضعت بسببـه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة. . . كالقرآن الكريم، وما أحدثه من آثار أدبيـة وبيانيـة وفكرية في لغة العرب، فوق آثاره في حياتهم السياسية والاجتماعيـة والدينيـة وفي حياة العالم والإنسانية كافة؟

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم، يؤمنون إيمانـاً صـادقاً، بـأن لا سبيل إلى الـوقوف في تيـار بلاغـة القرآن الكـريم وفصاحتـه وإعجازه، وأنه شيء انفرد به وحـده، وأنه كـلام الله وكتابـه، وأن نبوة محمـد صلوات الله وسـلامـه عليـه إنمـا بنيت على هـذه المعجـزة، وذلـك الكتـاب الحكيم المبين، الـذي عجز الإنس والجن عن أن يـأتوا بمثله. . . وستمضي وتتوالى الأجيال، وهو يضيء كما يضيء الفجر، ويزخـر كما يـزخر البحـر. . ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمتـه وحكمته وروعتـه، وصدق الله العظيم: ﴿أَللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَـدِيثِ كِتَابـاً مُتَشَابِهـاً مَثَانِيَ، تَقْشَعِـرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْـرِ ٱللَّهِ، وَذَٰلِكَ هُـدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[١].

---

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب

تمهيد: بلاغة الرسول

(١)

انتقلت لغة العرب بعد الإسلام من حياة إلى حياة، وتبدلت أوضاع الكلام وسمات القول من مظهر إلى مظهر ومن حال إلى حال، وأخذت ثوباً قشيباً نفذت به من الأسماع إلى القلوب، واستطاعت أن تمازج الأفئدة فتؤثر فيها تأثيراً عجيباً، ذلك بما أفاضه عليها القرآن من طرائق التعبير وحسن صَوْغِ الكلام، وبراعة القصد إلى الهدف، والاحتيال إلى الغرض حتى تدخل على القلوب والعقول والأحاسيس دخول المأنوس به المرغوب فيه، ثم بما كسبته من أسلوب الرسول صلوات الله عليه، وبيانه الساحر، وحكمه البالغة، وبلاغته النيرة، وقدرته الفائقة على الاختراع والتشقيق من الألفاظ، وتصوير المعاني بأروع الصور، وابتداع الأخيلة التي لم تعرف في كلام العرب، وظلت بعده من الحسنات التي ينسج الناس على منوالها، ويدبجون كلامهم على مثالها، دون أن يقتربوا من حدها.

أجل، كانت بلاغة الرسول الأكرم مضرب المثل وحديث الناس وموضع الدهش، ومحل الإعجاب من كل مَنْ سمعه، وأنصت إلى ألفاظه تفيض عذوبة وتقطر رقة، وأصغى إلى معانيه تطل منها أروع الحكم وتنبجس من

خلالها أجمع الأمثال، حتى لقد عجب من ذلك البليغ المنطبق، الساحر البيان العذب اللسان: عليّ بن أبي طالب، فقال: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه، فمن علمك؟ فقال صلوات الله عليه: أدَّبني رَبِّي فأحسن تأديبي، وقال له صفيه وصديقه أبو بكر: لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذي هو أفصح منك، فمن أدَّبك؟

وكان النبي ﷺ يعتز بما منحه الله من صفاء القريحة، ونقاء الفطرة، وخلابة المنطق، ورجاحة الفكر، وسماحة الأسلوب، فيقول: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في سعد بن بكر». .

والحكمة البالغة، والعبرة الكريمة في ذلك، أن الله تعالى قد اختاره لرسالته، واصطفاه لدعوته، وأرسله إلى الناس كافة مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون.

وسفارة بين الخالق والمخلوق لا جرم تعتمد على البيان الخلاب والمنطق الجذاب، والقول المتخير الفاتن، والكلام العذب الذي تملك به النفوس وتؤسر الألباب.

وهذا هو موسى، أرسله ربه إلى بني إسرائيل فطلب منه أن يشد أزره ويقوي ظهره ويفلج حجته ويسدد دعوته بأخيه هارون: ﴿وَأَخِي هَٰرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[1]، وتمنى على ربه وهو صفيه وكليمه أن يطلق لسانه ويفتق بيانه ويحل عقدته ويفك حبسته، فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[2]. .

---

(١) سورة القصص، الآية ٣٤.

(٢) سورة طه، الآية ٢٧.

وهـذا نبي الله داود، أفاض الله عليـه الحكمة ومنحـه فصل الخـطاب، وامتن عليــه بـذلــك فقـال: ﴿وَشَــدَدْنَـا مُلْكَــهُ وَآتَيْنَــاهُ ٱلْحِكْمَــةَ وَفَصْــلَ ٱلْخِطَابِ﴾(١).

وإذا كان العرب أمـة البلاغـة وأئمة الفصـاحة، تعنـو لهم أزمة القـول، وتنصـاع أعنة الكـلام، ويهتفون بـرائع الخيـال فينقـاد لهم عصيـه، ويـروض شامسه، ويستـذل أبيُّه، وإذا كـان الكلام صنـاعتهم بها يفـاخرون ويتبـاهون، فـلا بد أن الـرسول الـذي يرسـل إليهم يبلغهم عن ربهم، ويهـدم عقـائـدهم الباطلة ومذاهبهم الزائفة، ويغيـر ما ألفـوا من عادات، ومـا ورثوا من تقـاليد، لا بـد أن يكون بيـانه أسمى من بيـانهم، ومنطقـه أروع من منطقهم، وخـطابه أجَلَّ أثراً وأعظم قدراً وأعلى شأناً من خطابهم.

ومن هنا كان تأييد الله لنبيه ومصطفاه محمد ﷺ بمعجزة القرآن الكـريم ومعجزة البيان.

أما بيانه صلوات الله عليه وسلامه فكان السحر الحلال والضياء اللامع، يشرق من طبع مهذب مصقول، وخلق في البلاغة عريق أصيل، وفـطرة قويـة مـوهوبـة تسانـدت في بنـائهـا أقـوى العـوامـل، وتعـاونت على إذكـائهـا أبلغ المؤثرات، إذ نشأ وتقلّب في أفصح القبائل، وأصحها لهجة، وأخلصها منطقاً وأعذبها بياناً، وأرهفها جناناً، وأقومها سليقة.

كـان مولـده في بني هاشم، وهم ذروة قـريش سلاسـة لسان وسمـاحـة بيان، وأخواله من بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ونشـأته في قـريش، وتـزوج خديجـة وهي من بني أسد، وكـل هذه قبـائـل خصهـا الله بعـرف في فصـاحة الكـلام عريق، وسبب من أسبـاب البلاغـة وثيق، وكان هـذا التوفيق العجيب الغريب، وهذا التماثل في الميلاد والاسترضاع والمنشأ، إعـدادا من الله لنبيه، وتقويماً من ملكته، وتهذيباً لسليقته، وتدعيماً لفطرته، حتى يفقهوا قوله ويعقلوا دعوته.

---

(١) سورة ص، الآية ٢٠.

وكان ﷺ فصيح المنطق، سمح البيان، سلس الأسلوب، قوي العبارة، لامع الرونق، رائع الحكمة، موفق المثل، موثق اللفظ، مشرق المعنى، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل، ويجد فيه لذة. إذا تكلم خفتت الأصوات وأنصتت الآذان وخشعت الجوارح وامتلأت القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة. وهذه أول خطبة لرسول الله ﷺ حين وقف بمكة يدعو قومه إلى الله، يعدهم ويبشرهم، ويحذرهم وينذرهم، ويدعوهم إلى نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، قال: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتم، ولو غررت الناس ما غررتكم. والله، الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله، لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد».

فهذه كلمة الخبر بأسرار النفوس الذي يعرف كيف يمتلكها بحكمته، ويستولي عليها بموعظته، ويوجهها إلى الخير الذي يريده، والسعادة الأبدية التي يدعو إليها.

واستمع أيها القارئ الكريم إلى هذا الحديث الشريف، فإنك ستحس من حلاوة وقعه وجمال لفظه ودقة مبناه، وصدق تصويره وحسن تحديده للمعنى ما يملأ نفسك طرباً، ويفعم قلبك نشوة.

يقول الرسول ﷺ: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما؛ فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بناءه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع».

فهذا تصوير محكم رائع لحال المنفق وحال البخيل لا تكاد النفس تنتهي منه عجباً، تصوير القوة الطبيعة لدى السخي التي تستهين بكل عقبة، وتتغلب على كل صعوبة، وتثور ثورتها العاتية على القيود والحدود والحواجز

حتى تحطمها أعنف تحطيم، ثم لا يزال صاحبها يسخو ويبذل وينفق ويتصدق حتى تسلس الطبيعة وتنقاد وتعتاد البذل والعطاء وتلبس صاحبها فتخفي كل ما فيه من عيوب وتمحو كل ما يند عنه من سيئة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾(١).

أما البخيل فكلما أراد أن يخرج من طبيعته كزت وضاقت، وأحضرته كل أسباب الشح والكئود، فلا يستطيع أن يقدم خيراً، أو يطالع المجتمع الذي يعيش فيه بحسنة.

فهل هناك تصوير أروع وأمتع وأبدع من هذا التصوير؟

والرسول ﷺ يصف حالة من حالات الناس تفشو في مجتمعاتهم وتشيع بينهم في بعض الأحيان كما يشيع الوباء الفاتك والمرض القاتل: حالة الاستهتار بحدود الله والاستهانة بآداب الدين، والخروج على الأوضاع الصحيحة، والتبجح بما يسمونه حرية، فيقول:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا أهلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». .

فهل هناك أبلغ من هذا في الدعوة إلى الضرب على أيدي العابثين بالحدود، المنتهكين للحرمات الناهشين أعراض المحصنات الناقلات؟

ولو أردنا أن نستعرض ألْواناً أخرى من كلامه ﷺ لما اتسعت لها هذه الصفحات، ولكنا نكتفي بما قدمناه من أمثلة حية رائعة على بلاغته وإحاطته ودقته.

---

(١) سورة هود، الآية ١١٤.

يقول المرحوم الأستاذ الرافعي: «لقد رأينا هذه البلاغة النبوية قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة، فالعناية فيها بالحقائق، ثم الحقائق هي تختار ألفاظها اللغوية على منازلها، وبذلك يأتي الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها، ومعلوم أنه ﷺ لا يتكلّف ولا يتعمَّل، ولم يكتب ولم يؤلف، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعاً يقبل التنقيح، أو تعرف له رقة من الشأن، كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان».

ومن هنا ترى أن بلاغة الرسول ﷺ وأسلوبه وقوة بيانه وشدة إتقانه وعلو شأنه في اللغة، هي المنحة التي يهبها خالق الإنسانية لمن يختاره ويؤثره في سفارة إلى الإنسانية، وكما عصمه الله من لدن طفولته من الرجس والدنس، وحفظه من شرور الجاهلية وسوآتها، كذلك عدل لسانه، وقوَّم بيانه وأرهف منطقه، وأفاض عليه من لدنه قوة بيانية يستطيع بها أن يناضل عن دعوته وينافح دون رسالته: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1]، ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيما﴾[2].

(٢)

أثر الحديث النبوي في اللغة والأدب

يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ وسمعته يقول: مات حتف أنفه وما سمعتها من عربي قبله، يريد مات على فراشه، قال في القاموس: وحتف الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه، وقال في النهاية: كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جراحته.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٢) سورة النساء، الآية ١١٣.

ويقول المرحوم الرافعي[1]: إن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال أمر يؤرخ به في الألسنة مما كانوا يألفون له. والحتف الهلاك فكأن صاحب هذه الميتة إنما ماتت أنفته وكبرياؤه فلم يرفع الموت أنفه في القوم بل أذله وأرغمه فكان به هلاكه لأن حياته كانت في عزته، وعزته كانت في أنفه وأنفه هو الذي كبه على الموت، وإنما مجاز العبارة كما يقال في الكبر: ورم أنفه، وفي العزة: حمى أنفه وكما يقال غضبه على طرف الأنف إذا كان سريع الغضب وجعل أنفه في قفاه إذا ضل.

ومثل ذلك قوله ﷺ: الآن حمي الوطيس، للدلالة على شدة الحرب، واستعار نارها والتهاب شررها، فإن الوطيس التنور ومجتمع النيران استعير لشدة الحرب. وقوله ﷺ: بعثت في نفس الساعة أي قريباً منها أحسها كما يحس الإنسان أنفاس من يقاربه..

وإذا كان للعرب تصرف واتساع في اللغة بالمجاز والاشتقاق وانتزاع لفظ من لفظ أو ابتداع معنى من معنى أو اختراع فكرة من فكرة فإن ذلك كله كان في حدود الموجود المتعارف لا يجاوزونه إلى المعدوم بخلاف المأثور عنه ﷺ فهو كثير من بناء على الموجود واختراع لما لم يوجده ومن ألفاظه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفراده بها وهم عرب مثله، كما عجبوا لفصاحته التي اختص بها وهو باقٍ بين أظهرهم لم يفارقهم ولم ينتقل عن بلدهم.

وقد رُوي أنه ﷺ قال لأبي تميمة: إياك والمخيلة فقال: يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة؟ فقال ﷺ: سبل الإزار أي الكبر، فقول أبي تميمة نحن قوم عرب دلالة على أن النبي ﷺ اخترع هذا اللفظ اختراعاً ولم يُسبق إليه... وقوله ﷺ: هدنة على دخن، يريد أن الصلح لم يذهب حفائظ الصدور وأضغان القلوب فبقي منها كما يبقى من النار تحت الرماد لا يزال يتحفز للاشتعال.

---

(١) إعجاز القرآن ص ٤١١.

وقوله لنجشة العبد وهو يحدو الإبل ويطرب في صوته فتسرع الإبل وتمايل الهوادج بالنساء: رفقاً بالقوارير. . . وقوله: ياخيل الله اركبي، لا ينتطح عنزان. وقوله: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» قاله لأبي عزة الشاعر وكان يحرض عليه ويؤلب الناس ضده فأسره يوم بدر، ثم مَنَّ عليه وأطلقه، فعاد إلى سيرته فأسر يوم أحد وسأل النبي أن يمنَّ عليه فقال له: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

وقوله: إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: المرأة الحسناء في المنبت السوء، تشبيها لهذه المرأة بالشجرة الناضرة وسط الدمن. وقوله: علق سوطك حيث يراه أهلك، الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وعد المؤمن كأخذ باليد، قد جدع الحلال أنف الغيرة، وقوله: «من اطلع من صبر باب فقد دمر أي دخل، قال أبو عبيدة: لم يسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث.

وهذا كله مما كان يشرق في لغته ويلتمع في أسلوبه من ابتداع المعاني واختراع الألفاظ المناسبة لها، ومن أوضاع وأخيلة بيانية تلبس حلاها وتأخذ زينتها وتدعو الأدباء دعوة قوية إلى احتذائها واتباع طرائقها واتخاذها مثلاً يسيرون على نهجه وينشئون على هداه.

ذلك كله يعتبر إلهاماً من الله لنبيه وتأييداً بمعجزة البيان ردفت معجزة القرآن، ولقد كان عجباً من العجب في أمره ﷺ أن ترد إليه وفود العرب فيخاطب كل وفد بما يعد من أسرار لغته وغرائب لهجته يخاطبهم بلغاتهم مما تجهله قريش ويجهله بعض العرب، ويفهم عنهم كذلك ما يدلون به من كلام وما يفصل عنهم من خطاب، حتى عجب من ذلك علي بن أبي طالب حين سمعه يخاطب وفد بني نهد. . . فقال: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال ﷺ: «أدَّبني الله فأحسن تأديبي». .

ومن ذلك كتبه الغريبة التي كان يمليها ويبعث بها إلى قبائل العرب

يخاطبهم فيها بلحونهم ويجاري ألفاظهم وتعابيرهم فيما يريد أن يلقيه إليهم، وهي ألفاظ خاصة بهم ومَنْ يداخلهم ويقاربهم ولا تجوز في غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية.

قال الرافعي: «فما ندري أي ذلك أعجب أن ينفرد الرسول بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم حين يتوافدون إليهم في موسم الحج، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه. ولا يديرونه في ألسنتهم ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشأون عليه من السماع والمحاكاة حتى كان هذا الباب يبتكر فيه ﷺ باباً على حدة.

وهكذا كان رسول الله يتميز بالفطرة القوية، والطبيعة الملهمة، والموهبة البيانية المبدعة، واللسان الذرب، والقول الفحل، والمنطق الفصل، مما لا يفهم سره ولا يعرف أمره إلا على أنه معجزة وإلهام من الله لنبيه ومختاره ومصطفاه.

وبعد فيمكننا أن نلخص أثر حديث الرسول ﷺ في اللغة فيما يلي:

١ ـ أدخل الرسول ﷺ كثيراً من التراكيب البيانية الجديدة في اللغة العربية مما سبق ذكره. وزاد فيها ألفاظاً جديدة كتسميته «سفر الأول» محرماً، وكلفظ الزمارة، للزانية، التي وردت في حديث أبي هريرة «أن النبي نهى عن كسب الزمارة»... وككلمة الصبر بمعنى الشق في قوله ﷺ: «من اطلع من صبر باب فقد دمر»..

وللحديث الشريف أثر في توسيع معاني بعض الألفاظ واشتقاق أخرى، مما لا داعي للإفاضة فيه.

٢ ـ وساعد على توحيد لهجات العربيةوعلى ذيوعها وخلودها فهو متمم للقرآن الكريم في هذا السبيل.

٣ ـ وكان محوراً لعلوم دينية وعربية وضعت لدراسة الحديث النبوي الشريف، وهذه العلوم أكسبت اللغة العربية ثروة كبيرة.

أما أثر الحديث في الأدب فيمكننا إيجازه فيما يلي:

١ ـ ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة، وتثقيف الطباع، والقضاء على عهد الحوشية والغرابة والمعاظلة والتعقيد في البيان وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان.

٢ ـ قضى على سجع الكهان، ورفع منزلة النثر وهذَّب أغراض الأدب وفنونه.

٣ ـ وقد خلد الحديث على مرّ الأيام والأجيال وأصبح مورداً عذباً من الثقافة الأدبية على توالي العصور[١].

(٣)

خطبة نبوية في بدر الكبرى

خطب رسول الله ﷺ أصحابه يوم بدر فقال:

١ ـ «أما بعد، فإني احثكم على ما حثكم الله عليه، وأنها كم عما نهاكم عنه فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالخير، ويحبّ الصدق، ويعطي الخير أهله على منازلهم عنده.

٢ ـ وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه.

٣ ـ وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهمّ، وينجي به من الغمّ وتدرك به النجاة في الآخرة.

---

(١) راجع: الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ٤٠ ـ ٤٦، محاضرات في الأدب العربي للدكتور عبد الحميد المسلوت ص ١٤٥ ـ ١٥٣.

٤ ـ فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: «لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم».

٥ ـ وابلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد.

٦ ـ وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين.

مضمون هذه الخطبة النبوية الشريفة

١ ـ الأمر بالفضائل الإنسانية التي أمر الله عز وجل ورسوله بها، وفي هذا الأمر ـ والوقت وقت معركة ـ ما فيه من دلالة قوية على أن المسلم يجب أن يلتزم بآداب دينه في كل وقته، وبخاصة في أوقات الشدائد والمعارك، لأن النصر لا ينزل من السماء إلا على المؤمنين الصادقي الإيمان بدينهم وكتابهم ورسولهم.

٢ ـ الوقوف في ميدان المعركة ـ ابتغاء وجه الله لمقاومة أعداء السلام والإنسانية والتوحيد ـ منزل كريم من منازل الحق التي يرضى الله ورسوله عنها.

٣ ـ الصبر في الحرب أهم شيءٍ يجب أن يتحلَّى به الجندي، لأنه سلاح النصر، وهو أساس الصمود والنضال والاستبسال في قتال أعداء الله والحق.

٤ ـ تحذير رسول الله للمجاهدين من عمل شيءٍ يمقتهم الله ويغضبه عليهم ويمنع عنهم نصره بسببه، والمقت أشد البغض. وفي ذلك ما فيه من تأكيد وجوب اتباع تعاليم الدين في كل وقت وفي أيام الحروب على وجه الخصوص.

٥ ـ الدعوة إلى البطولة والتضحية والإقدام في المعركة، وذلك هو سبب رحمة الله ومغفرته ورضوانه، ووعده الحق، وقوله الصدق وعقابه شديد، ولنتذكر أن البلاء في المعركة هو سبب رضوان الله ورحمته للمجاهدين الصادقين.

٦ ـ إعلان مزيد التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه. وذلك هو أساس الفوز العظيم(١).

والمضمون العام لهذه الخطبة هو الدعوة إلى الصمود والصبر والاستبسال في المعركة، وعند نزال الأعداء.

الأسلوب

١ ـ أسلوب الخطبة من أروع الأساليب جمالاً وبياناً وبلاغة وإيجازاً وإعجازاً، وبلاغة رسول الله ﷺ في الذروة من الفصاحة بعد بلاغة القرآن الكريم... فالخطبة تجمع إلى الإيجاز الروعة والسحر ودقة المعاني وكثرتها.

٢ ـ وفيها من سمو الروح الإنسانية ما فيها. ومن نبل النفس والالتزام بالفضائل والآداب الإسلامية وبخاصة وقت المعركة، ما يعدُّ أساساً للنصر، وسبباً من أقوى أسبابه...

٣ ـ وهي مملوءة بروح الإيمان العميق، وبالتوكل على الله، وبطلب النصر منه، وبتفويض الأمور إليه. وذلك كله ضروري للمسلم وهو يقاتل أعداء الله والحق والسلام.

٤ ـ وعلى الجملة فإن هذه الخطبة مثل رفيع من أمثلة البلاغة النادرة،

---

(١) معاني المفردات الواردة في الخطبة: الحث على الشيء: الحض عليه. منازلهم: درجاتهم. بمنزل: بمكان وموضع. مواضع الباس: كناية عن الحروب والشدائد. المقت: شدة البغض. ابلوا: من ابلى في المعركة بلاء حسناً، اي بذل غاية الجهد وكل الطاقة فيها.

والفصاحة الباهرة، والبيان الساحر، والقول الحكيم، والمنطق الصادق، والكلمة الفاصلة...

وهـذه كلها هي خصـائص البلاغـة النبويـة الشريفـة. إلى ما تتحلى بـه الخطابة من الوضوح والسهولة والجمال والجلال، والحلاوة والروعة.

فانظر إلى بلاغة رسول الله في قوله: «إنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم»، أي لست ولستم شيئاً إلا بعون الله الحي القيـوم، العظيم القيـام بتدبيـر أمور هذا الكون العظيم، و(القيوم) اسم من أسماء الله عز وجل.

وقوله ﷺ:

«إليه ألجأنا ظهورنا»: أي أسندنا ظهورنا إلى سند قوي وملجأ حصين هو الله عز وجل وحده...

النثر الاسلامي

تمهيد

تبدلت أوضاع الحياة العربية بعد الإسلام تبدلاً ملموساً، وتغيَّر أعظم التغيُّر مظهرها، وانقلبَ انقلاباً شديداً جوهرها، وأصبح السمت غير السمت، والسلوك غير السلوك، والخلائق والشيم غير تلك التي كانت تشيع في الجاهلية، وتسيطر على مناحي الفكر.

كانت الحياة الفكرية في الجاهلية تعتمد على الشعر، به مفاخراتهم، ومنافراتهم، وعليه تقوم خصوماتهم، فكان لسانهم المعبر عن كل ما يضرم في صدورهم من أفكار، ويختلج في أفئدتهم من أحاسيس.

فلما جاء الإسلام طوى ذلك البساط بما عليه من تنافر وتناحر، وما يضمُّ من أحقاد غادرة، وأضغان ثائرة، وخصومات منكرة، وقضى على تلك الحمية، حمية الجاهلية، وبغض إلى الناس التفاخر بالآباء والأنساب، وأمتن على اتباعه وأوليائه بأن الله أذهب عنهم نخوة الجاهلية، وتفاخرها بالآباء. . فقال ﷺ: «أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

ولما كان شعر الجاهلية يحمل بين أطوائه كل المعاني التي حرمها

الإسلام، وأزرى بها، فقد كرهه الإسلام وبغضه، وقال فيه الرسول ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً فيريه[1] خير له من أن يمتلىء شعراً».

لم تقم للشعر في ظلال الإسلام الدولة التي كانت إبان الجاهلية، لأن الإسلام دين العفة والإخاء والوفاء، وصدق الحديث. إنما انتقلت راية الكلام للنثر، الذي حمل أعباء الفكر، ونهض وحده غالباً بالدعوة الجديدة يبين مزاياها، ويكشف أسرارها، ويحاج خصومها ويجادلهم بالتي هي أحسن.

دعا به النبي ﷺ قومه إلى الله، وبصرهم بمحاسن الإسلام وحذرهم وأنذرهم ووعدهم وبشرهم، وكتب به إلى أمرائهم وإقبالهم، ثم كان هذا النثر لسان الدولة التي أحدثها الإسلام، فكانت تكتب به العهود، وتصاغ الوصايا، وتدون دساتير الولاة، ومناهج الرؤساء، وسياسة الحكام.

وعلى مقدار تنوع الحياة الإسلامية، وتعدُّد ألوانها، وتشعُّب مظاهرها، عظمت رسالة النثر، واتسعت مهمته، فكان لسان الخلفاء والأمراء والولاة.

والواقع أنه حيث يكون الملك، وتكون الدولة بما يستتبعها من أمر ونهي وحث وزجر وأخذ ورد، ورسم سياسة وتبريرها، وإقامة حدود ومعالم وتبيينها يكون المكان الأول في هذه الدولة للنثر، ولا يستطيع الشعر أن ينهض بما تقوم به من أعباء، وما تؤدي من رسالات متعددة متنوعة.

ولما كان النثر يتخذ مظهر الخطابة أحياناً، ومظهر الرسائل أحياناً أخرى، فقد آثرنا هنا أن نتحدث عن كلٍّ بذاته.

ونبدأ بالكلام على الخطابة.

---

(١) يريه أي يفسده، وورى القيح الجوف كوعى: أفسده.

الخطابة الإسلامية

كانت الخطابة في الجاهلية ضيقة الحدود قصيرة الآفاق محدودة المعالم والمظاهر أو كانت على الأقل هكذا فيما انحدر إلينا من آثارها وتناهى إلينا من تراثها، وكان يشاركها الشعر في التعبير عن مناحي الفكر وخوالج النفس بل كان الشعر، في أهم المواقف وأعظم الأحداث، اللسان الناطق الذي يؤجج نار الحرب أو يضع لبنات السلم أو يلفت الناس إلى فضيلة من الفضائل أو ينبههم على أمر من الأمور.

ولأن الخطابة لم تكن مما تدوَّن في صحف أو تكتب في رقاع أو يسهل على الذاكرة اختزانها لم يكن اهتمام القوم بها كاهتمامهم بالشعر. إنما يبعث عليها عندهم حدث طارئ أو أمر مفاجئ ربما لم يكونوا قد أعدوا له عدته أو اتخذوا له أهبته.

دواعي الخطابة الإسلامية

ثم جاء الإسلام فتهيأ للخطابة في ظله من نباهة الشأن وارتفاع الذكر وعلو المكانة ما لم يتهيأ لها من قبل.

كانت أداة الدعوة واللسان الناطق بمحاسنها تشرح للناس أسرارها وتبين مزاياها وتوضح خفاياها وتحبب الناس فيها وتدلهم على الهدى والحق والرشد والصلاح، وتجادل خصومها وتفند آراء المخالفين لها.

وإذا علمنا أن الكتابة لم تكن قد شاعت ولا فشت وأن الإسلام قد كره الشعر لما يحمل من المنافرات والمفاخرات وشدة الحمية، أدركنا رسالة الخطابة في الإسلام وجسامة مهمتها وعظم شأنها وقيامها بكل أمر جلَّ أو صغر.

اعتمد عليها رسول الله ﷺ من لدن قام بأمر ربه يدعو عشيرته الأقربين، ثم كان يذهب إلى أحياء العرب يعرض عليهم دعوته ويشرح في كل موقف

عقيدته. وكان يلقى الناس في الأسواق العامة وفي مواسم الحج ويخطبهم، ويقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ثم انتقل إلى يثرب يدعو إلى الله على بصيرة، ويقوم في مجتمعات جديدة يشرح لهم ببيانه، ويفيض عليهم من عذوبة لفظه وسماحة لسانه، وكانت تجيئه وفود العرب فيخطب في كل وفد يدعوهم إلى الدين أو يبين لهم الأحكام الشرعية والآداب الدينية كما أمره رب العالمين بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] وكما يقول لهم ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً الموطأون أكتافاً الذين يألفون ويؤلفون».

وكانت الخطابة لخلفائه من بعده أداة يرسمون بها سياستهم في رعاياهم ويحددون دساتيرهم التي يلتزمونها في حكم الناس ومعاملاتهم أو يحضون فيها على غزوةٍ أو جهاد.

أسباب قوتها

ولعل الذي مكن للخطابة وجعلها منشورة الراية مرفوعة الذرى، يُسرع إليها كل من واجهته مشكلة، أو اختلجت في نفسه فكرة، أو نقم من السلطان أمراً، أو داخلته من الوالي ريبة في بعض تصرفاته، لعل الذي مكن لها ما أسبغه الإسلام على هذا المجتمع من صراحة، وما غرسه فيه من حرية واسعة يستطيع بها الإنسان أن يراجع ويناقش ويجادل ويخاصم ويمدح السلطان أو يثنيه ويؤيده أو يخذله.

وهذه الحرية قد اتسع مداها وامتد أفقها حتى شملت النساء، فلم تكن المرأة تسكت عما تظن أنه حقٌّ لها، بل تخطب في ذلك وتتحدث وتجادل، لقد ذهبت امرأة إلى رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله إني وافدة النساء إليك، ثم ذكرت ما للرجال من الجهاد والأجر، ثم تساءلت: فما لنا من ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ أبلغي من لقيتِ من النساء أن طاعة للزوج واعترافاً

---

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.

بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله، وقالت أخرى: يا رسول الله غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً تحدثنا فيه ولهم كذلك.

وكانت المرأة تعترض عمر بن الخطاب وهو يخطب فتراجعه حتى لقد يرجع عن رأيه ويقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر، وكانت أم المؤمنين عائشة تخطب لترد على خصوم أبيها وتبين مآثره وتذكر مفاخره، وكانت أم الخير بنت الحريش الباروفية تؤيد عليًّا كرّم الله وجهه، وتخطب في ذلك الخطب التي تلهب النفوس وتثير الحماس، وتدفع الناس دفعاً إلى مقابلة أعدائهم والكر عليهم بسيوفهم ورماحهم، حتى لقد أوفدت إلى معاوية بعد أن استقر الأمر واستتب السلطان فسألها عن كلامها حين قتل عمار بن ياسر فقالت: لم أكن زورته قبل ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نَفَثَهُن لساني حين الصدمة، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت فقال معاوية: لا أشاء ذلك.

هذه بعض مآثر الحرية على الخطابة في ظلال الإسلام.

ثم كان الجهاد في سبيل الله وما يستلزمه من تحميس الناس له وتحريضهم عليه، وكذلك جعل أمور الدولة شورى بين المسلمين.

كان ذلك كله داعياً إلى نهضة الخطابة وباعثا على رقيها وارتفاع شأنها.

هذا إلى ما في القوم من ملكة أصيلة في البيان، ومطاوعة سهلة في أزمة الكلام، حتى لم يكن يصعب عليهم قول يند عن أذهانهم خطاب.

موضوعات الخطابة الاسلامية

والدارس لأطوار الخطابة في هذه الفترة يلمس في وضوح كيف كانت تؤدي رسالتها في قوة ودأب لا يعوقها ضعف ولا يلوي بها فتور أو إعياء حتى نهضت بهذه الوضوعات.

١ ـ دعوة الناس إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر

خيره وشره، بدلاً من المفاخرات والمنافرات التي كانت تهدف إليها الخطب في الجاهلية.

٢ ـ الحث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله وإثارة الإيمان والعقيدة في النفوس حتى تقبل على الحرب بعزيمة صادقة وهمة متفانية، بدلاً من الخطب التي كانت تدعو في الجاهلية إلى السلب والنهب والأخذ بالثأر والتحريض على الغارة.

٣ ـ شرح آداب الدين وفضائله وتبيان أسراره ومزاياه، ولفت إلى ما يصلحهم في دنياهم ويسعدهم في أخراهم.

٤ ـ وليس أدلّ على شرف الخطابة ورعاية الإسلام لها حق الرعاية من أنه جعلها جزءاً من العبادة في كل اسبوع وفي كل الاعياد وفي ما ينوب المسلمين من أحداث وملمّات.

٥ ـ وأخيراً لقد استعملت الخطابة في كل ما جاشت به صدورهم، من دفاع عن رأي، أو تحمُّس لمبدأ، أو شرح لنهج سياسي، ونحو ذلك مما استلزمته الخلافة الاسلامية ونظامها الجديد.

مميزات الخطابة الاسلامية

وتقَّسم الخطابة الاسلامية:

١ ـ بأنها كانت تقوم على الإقناع والتأثير في النفوس، بالأدلة الساطعة، والبراهين الناصعة، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم، وأحيانا بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل.

٢ ـ وبأنها كانت تلتزم في مبدئها سمتاً واحداً، هو حمد الله وتوحيده والثناء عليه بما هو أهله، وقد ينضم إلى ذلك الصلاة على رسول الله وأتباعه، وكانوا يحرصون أشد الحرص على بدء الخطبة بالحمد، حتى عابوا على زياد خطبته التي خلت منه، وسموها البتراء، وكانوا يختمون الخطبة بمثل

«أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم»، وكان أبو بكر الصديق يختم خطبه بقوله: «اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك». وكان عمر يلتزم في الآخر قوله: «اللهم لا تدعني في غرة.. ولا تأخذني غرة، ولا تجعلني من الغافلين».

٣ - أما أسلوب الخطابة في هذا العصر فهو الأسلوب الفطري الذي يساوق الطبع ويوائم السليقة ولا يعتسف في لفظ أو فكر أو خيال، فهو لين هادئ أو عاصف على حسب المقتضيات ووفقاً للأحوال، مع وضوح اللفظ وسهولة الأسلوب، والانسجام التام في بناء الكلمات، وترك السجع المرذول، وهجر الوحش، والبعد عن التكلف، والإيجاز في موضع الإيجاز والاطناب فيما يستدعي الاطناب والاكثار.

هيئة الخطيب

أما ما بقي للخطابة من سماتها القديمة فهو القيام على نشزٍ من الأرض، ولعلَّ ذلك للإشراف على السامعين، أو لعلَّ ذلك أيضاً أصل سُنَّة المنبر في المساجد، وكان الخطيب إذا قام للخطابة اعتمد على شيءٍ في يد، كسيف أو قوس أو عصا، وقد يجمع بين السيف أو القوس في يساره والعصا في يمينه، وكانوا يحرصون على اعتمار العمامة، والاشتمال بالرداء، وإصابة الإشارة، وحسن السمت، وجهارة الصوت، وتمام الوقار، وكل ما يدعو إلى التأثير في نفوس السامعين.

أشهر الخطباء

وقد امتاز هذا العصر بكثرة الخطباء والبلغاء كثرة رائعة، وفي صدر الخطباء الخطيب الأول الزعيم الروحي الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ومن الخطباء: أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وعائشة وخالد وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو عبيدة عامر بن الجراح، ومعاوية،

وسواهم من اعلام الخطباء والبلغاء، رضوان الله عليهم اجمعين.

ومن الخطباء المشهورين: عطارد بن حاجب بن زرارة وكان الخطيب عند النبي ﷺ كما يقول الجاحظ [1].

نماذج الخطابة الاسلامية

١ ـ لما كانت أول جمعة للنبي الكريم بالمدينة خطب المسلمين فقال:

«الحمد لله، أحمده، وأستغيثه، وأستغفره، وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفر، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، مَنْ يُطِعِ الله ورسوله فقد رشد، ومن يَعْصِهِ فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً.

وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم: أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، ولا أفضل من ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكراً.

وإن تقوى الله يوفي مقته، ويوفي عقوبته، وإن تقوى الله يبيض الوجوه، ويُرضي الرب، ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

فأحسنوا كما أحسن الله أليكم، وعادوا أعداءه، جاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فاكثروا من ذكر الله، واعلموا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس.

---

(١) البيان والتبيين، ج ١، ص ٢١٤.

وذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله».

* * *

٢ - ومن الخطب النبوية الرفيعة خطبة حجة الوداع وهي مشهورة، وتعد بعد القرآن الكريم أقدم وثيقة عالمية بحقوق الإنسان..

* * *

٣ - ولأمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه المتوفى سنة ١٣ هـ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس إني وليتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدِّدوني، أطيعوني ما اطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي فيكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم».

* * *

٤ - من خطبة أبي بكر رضي الله عنه يوم السقيفة[١]:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه، وشهيداً على أمته، ليعبدوا الله ويوحدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة، وإنما هي من حجر منحوت، وخشب منجور»[٢].

---

(١) هي سقيفة بني ساعدة، وقد اجتمع الأنصار فيها يوم قبض النبي ﷺ وقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام سعد بن عبادة.

(٢) النجر: نحت الخشب.

ثم قرأ:

﴿وَيَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله مَا لا يضرُّهُم وَلاَ يَنْفَعهُم وَيَقُولُونَ هَؤُلاَء شفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[1]، ﴿مَا نَعْبُدُهُم إلاَّ لِيقَرْبُونَا إِلَى اللَّهِ زلْفَى﴾[2].

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم..

* * *

٥ ـ وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ ولي الخلافة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس: إني داعٍ فآمنوا، اللهم إني غليظ فليِّني لأهل طاعتك بموافقة الحق، ابتغاءً وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم، ولا اعتداء عليهم.

«اللهم إني شحيح فسخِّني في نوائب المعروف، قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة، واجعلني ابتغي بذلك وجهك والدار الآخرة.

«اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين.

«اللهم إني كثير الغفلة والنسيان، فألهمني ذكرك على كل حال، وذكر الموت في كل حين.

«اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيها، والقدرة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك.

«اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك والحياة منك، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني، والمحاسبة لنفسي، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات.

---

(١) سورة يونس، الآية ١٨.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣. زلفى: القربى.

«اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت، إنك على كل شيء قدير».

* * *

٦ ـ وكانت آخر خطبة خطبها عثمان بن عفان رضي الله عنه:

«إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكوها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلكم عن الباقية، فآثروا[١] ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله.

«اتقوا الله جل وعز، فإن تقواه جنة[٢] من بأسه، ووسيلة عنده واحذروا من الله الغير[٣]، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا».

* * *

٧ ـ وخطب الإمام علي كرم الله وجهه بعد التحكيم فقال:

«الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجلل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إلهٌ غيره، وأنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

«أما بعد: فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة، وقد كنت امرتكم في هذه الحكومة أمري،

(١) اثروا: فضلوا وقدموا.
(٢) جنة: وقاية.
(٣) غير الدهر: أحداثه المغيرة.

ونحلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر[1]، فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة، والنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضنَّ الزند بقدحه، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن[2]:

أمـرتكم أمـري بمنعـرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

أدب الرسائل في صدر الاسلام

تمهيـد

١ ـ انتقلت الكتابة من الأنبار والحيرة على يد بشر بن عبد الملك أخي أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل، فإن بشراً خرج إلى مكة وتزوج بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، فعلم جماعة من أهل مكة، فكثر من يكتب بها من قريش.

قال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يفتخر على قريش بذلك:

فلا تجحدوا نعماء بشر عليكمو فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فأجريتم الأقلام عودا وبدأة وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا

وعُرف خط أهل الحجاز بالحجازي، ولما نشأت الكوفة أدخل عليه كتّابها شيئاً من الزخرف والتحسين في الخط الكوفي.

٢ ـ والكتابة على أي حال آكد أسباب الحضارة، وأوثق وسائل العمران وكلما ازدادت شئون الحضارة واتسعت مذاهب الملك، وتعدَّدت مناحي التفكير ومناهج الثقافة، ازدادت الحاجة إليها وازداد الكتّاب إقبالاً عليها

(١) قصير: هو مولى جذيمة الأبرش، وكان قد أشار على سيده ألا يأمن الزباء ملكة الجزيرة، وقد دعته إليها ليتزوجها، فخالفه وقصد إليها فقتلته، فقال قصير: «لا يطاع لقصير أمر» فذهبت مثلا.

(٢) هو دريد بن الصمة.

وافتناناً في مناحيها وتجويداً في لغتها ومعانيها وتنويعاً في موضوعاتها وأغراضها.

حالة الكتابة في عصر النبوة

ولما بُعث الرسول ﷺ كان بمكة نفر ممن يحسنون الكتابة ويبلغون نحو السبعة عشر، ثم لما هاجر إلى المدينة ووقعت غزوة بدر وأسر المسلمون نحو سبعين رجلاً من قريش وغيرهم، جعل الرسول ﷺ فداء كل من يعجز عن دفع المال تعليم الكتابة لعشرة من فتيان المدينة، فلا يطلق سراحه إلا بعد تعليمهم فكثرت الكتابة في المدينة، وأخذت تنتشر في كل ناحية دخلها الإسلام في حياة الرسول وبعده.

وبلغ عدد كتّابه عليه السلام ثلاثة وأربعين كاتباً منهم زيد بن ثابت ومعاوية، واختلف في كونه ﷺ يقرأ ويكتب، فمن قال ذلك استدل بقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرة﴾[1]، وبحديث البخاري أنه عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية أخذ الكتاب ليكتب فكتب، ومن قال إنه أميٌّ استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾[2]. وبحديث البخاري: «نحن أمة أمية لا تكتب ولا تحسب»، وليس ما يمنع من أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان أمياً قبل بعثه لتتمَّ له المعجزة، ثم بعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته، تعلم الكتاب وعرفها.

وكان عليّ كرّم الله وجهه، وعائشة وصفية من أمهات المؤمنين، يحسنون الكتابة.

ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد أناف الكتّاب على خمسمائة، بين رجل وامرأة وفتى.

وفي العهد النبوي كتب القرآن الكريم، ورسائل النبي ﷺ إلى الأقيال

---

(١) سورة البينة، الآية ٢.

(٢) سورة العنكبوت، الاية ٤٨.

والأمراء والملوك، وكتبت عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين.

وكان كتّابه ﷺ نوعين: كتّاب وحي، وكتّاب أعمال... ومن كتاب الأعمال: الزبير بن العوام، وجهل بن الصلت، وكانا يكتبان الصدقات، والمغيرة بن شعبة والحسين بن نمير وكانا يكتبان التداين والمعاملات، وحذيفة بن اليمان، وكان يكتب خرص النخل.

الكتابة بعد عهد النبوة

ولما توفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه واتسعت الفتوحات الإسلامية كثرت الحاجة إلى الكتابة، وقام الكتّاب بأعمال الدعوة والدولة، فكتبوا القرآن، واستخدمهم الخلفاء في كتابة رسائلهم إلى العمال والولاة والقواد، وفي وصاياهم إلى قضاتهم، ورسائلهم إلى أهل الأمصار، وفي كتابة وثائق الصلح ونصائح الخليفة وتوجيهاته في الحرب والسلم.

وكان الخليفة أو الوالي يكتب بيده أو يملي على بعض الكتّاب، ولم تكن قد صارت بعد صناعة فنية كما حدث في عهد بني أمية وبني العباس.

بواعث الكتابة في هذا العصر

وكانت الحاجة إلى الكتابة كثيرة:

١ - فقد كان المسلمون في حاجة إليها لتدوين القرآن ولكتابة رسائل الدعوة إلى الإسلام.

٢ - كما كانوا في حاجة إليها في شؤون الملك والسياسة، والحرب والسلم وفي كتابة العهود والمصالحات والمنشورات والوصايا والنصائح.

٣ - الحاجة إليها في تدوين الدواوين وتنظيمها.

٤ - وساعد على ذلك معرفة الخط وانتشار الكتابة في مكة والمدينة وسواهما من الأمصار. ويروى أن زيد بن أرقم بن يغوث، والعلاء بن عقبة كانا

يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء.

تدوين الدواوين

لما اتسعت الفتوحات في عهد عمر وكثرت موارد الدولة ووفرت الغنائم احتاجت الدولة إلى إنشاء الدواوين لضبط مواردها ومصارفها وضبط أعطيات المسلمين.

ويقول الفخري:

«كان المسلمون هم الجنود وكان قتالهم لأجل الدين لا لأجل الدنيا، وكان لا يزال فيهم دائماً من يبذل شطر ماله في وجوه البر والقربى، وكانوا لا يريدون على نصرهم إسلامهم ونصرهم لنبيهم جزاءً إلا من عند الله تعالى. ولم يفرض النبي ﷺ، ولا أبو بكر رضي الله عنه، عطاء مقررا، ولكن كانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم بررته الشريعة لهم. وإذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد، أحضر إلى مسجد رسول الله وفرق فيهم حسب ما يراه. وجرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبي بكر فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم. ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس، فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئا يسمونه ديواناً، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يلاحظ عليها خلل، فتنبه عمر وقال: صفه لي، فوصفه المرزبان فعظمه عمر لذلك، ودون الدواوين».

وقد عهد الخلفاء بالكتابة في الدواوين إلى العرب والموالي والمتعربين. وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل المصر؛ ففي العراق

وفارس بالفارسية، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية، حتى حذفها من العرب طائفة. فحولت بعد ذلك الكتابة في الدواوين إلى اللغة العربية وذلك في عصر بني أمية.

أسلوب الكتابة في صدر الإسلام

ويمتاز أسلوب الكتابة في هذا العصر بما يأتي:

١ ـ سهولتها ووضوحها وقصدها إلى الغرض وبُعْدُها عن التكلف وخلوها من عبارات التفخيم.

٢ ـ ميلها إلى الإيجاز. . . حتى لقد كتب خالد بن الوليد إلى عياض رسالة وهو محاصر بدومه الجندل يقول فيها: «من خالد إلى عياض: إياك أريد». .

٣ ـ وكانت الرسائل تبدأ «باسمك اللهم»، ثم يقول: من فلان إلى فلان. ثم يلي ذلك غالباً قولهم: السلام عليكم، أو السلام على مَنِ اتَّبع الهدى، ثم يثنون بقولهم: «إني أحمد الله إليك»، ثم يأتي الكاتب غالبا «أما بعد»، ويذكر غرضه الذي يكتب لأجله، ويختمها بقوله: «والسلام عليكم ورحمة الله». .

نماذج الكتابة

١ ـ كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. . . سلام على من اتبع الهدى. . . أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1]. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد

(١) هم العمال والفلاحون لأنهم تبع لسادتهم.

إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». .

* * *

٢ ـ ولما ادعى مسيلمة النبوة وكتب إلى رسول الله ﷺ: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك. . . أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض. . ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون».

كتب إليه ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى. . . أما بعد: فإن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

* * *

٣ ـ وهذه وصاة أبي بكر لعمر رضي الله عنهما:

«إني مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوى الله، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف ألا أكون من هؤلاء، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العقاب والعذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة. فإذا حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائل أبغض إليك من الموت، ولست بمعجز الله».

٤ ـ وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري وقد ولاه القضاء: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس. . .

«سلام عليك، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلُّم بحق لا لا نفاذَ له، أسِ[١] بين الناس في وجهك، وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك[٢] ولا ييأس ضعيف من عدلك. . . البينة على مَنِ ادَّعى. . واليمين على من أنكر.

«والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً، أو حرم حلالاً، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك. . واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادَّعى حقاً غائباً، أو بيِّنَةً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيِّنَته وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدٍّ، أو مجرياً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاءٍ أو نسب. فإن الله تولى منكم السرائر، ودارٍ بالبينات والأيمان إياك والغلق[٣] والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن الذخر، فمن صفت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانَهُ الله، فما ظنك بثواب في عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام».

* * *

---

(١) آسى: أي سوَّى بين الناس.
(٢) الحيف: الظلم.
(٣) سوء الخلق، وذلك من ضيق الفطن وانعدام الرؤية والفهم الصحيح.

٥ ـ وكتب عثمان رضي الله عنه إلى عماله حين ولي الخلافة:

«أما بعد. فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم[١] إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء.. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليه، ثم تعتنوا بالذمة[٢] فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء»..

* * *

٦ ـ وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب حين اشتد بينهما الخلاف:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب:

أما بعد، فلعمري لو بايعك القوم وأنت بريء من عثمان، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، ولكنك أغريت بدم عثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت[٣] شورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري حجتك عليّ كحجتك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك، ولم يطعك أهل الشام، فأما شرفك في الإسلام، وقرابتك من رسول الله ﷺ، وموضعك من قريش فلست أدفعه».

(١) تقدم إليه: أمره.
(٢) أي أهل الذمة.
(٣) كانت أي الخلافة.

فكتب إليه الإمام علي:

«بسم الله الرحمن الرحيم... من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر:

أما بعد، فقد أتاني كتابك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاتبعه، زعمت أنه إنما أفسد على بيعتي خفري[1] بعثمان، ولعمري، ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما أن الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى، وما أمرت فلزمتني خطيئة الأمر، ولا قتلت فأخاف على نفسي قصاص القاتل، وأما قولك إن أهل الشام هم حكام أهل الحجاز، فهات رجلا من قريش الشام في الشورى أو تحل له الخلافة، فإن سمعت كذبك المهاجرون والأنصار، ونحن نأتيك به من قريش الحجاز».

* * *

خصائص النثر الاسلامي

تمهيد

كان للعرب في جاهليتهم نثر فني، بقي فيما رُوي لنا من أمثالهم وحكمهم ووصاياهم وخطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم ومحاوراتهم ونثر كهانهم، ثم نزل القرآن الكريم وجاءت الدعوة النبوية الكريمة، واختلف العرب حيالها بين مكذب ومصدق، فكثرت دواعي الحجاج والكلام والخطابة، وأخذ النثر ينمو ويزدهر ويسمو ويقوى.

وتتلمذ على القرآن والحديث أعلام من البلغاء والخطباء والفصحاء، فنهجوا نهجاً في تأييد الدعوة ونشر الرسالة والإرشاد إلى الحق والخير

(١) خفر به كضرب، خفراً وخفوراً: نقض عهده وغدره.

والإسلام، وتحميس الجنود والتبشير بالنصـر، فكان لـذلك كله أثـر في نهضة النثر الفني بعد عصر النبوة.

ولقـد كان في كـلام الله وحديث رسـوله ألـوان رائعة كثيـرة من المعاني الشريفة والأساليب الرفيعة والألفاظ الساحرة، فاقتدى العرب بهما، ونهلوا من مـوردهما، وأخـذوا يصوغـون أدبهم على مثـالهمـا. فـاتسعت أغـراض النثـر واستحكمت أساليبه، وعذبت ألفاظه، وعمقت معانيه.

ومن الجدير بـالذكـر هنا أن القـرآن الكريم والحـديث النبوي الشـريف جعـلا للنثر دولـة وضعاه في منـزلة أسمى من منـزلة الشعـر، فأصبـح هو أهم ألوان الأدب في ذلك العصر الكريم.

موضوعات النثر الفني

شملت موضوعات النثر الفني في هذا العصر ما يأتي:

١ ـ الـدعوة إلى العقيـدة الإسلاميـة وبيان مبـادئها وغـايتها وأهـدافهـا المثلى الكريمة.

٢ ـ بيان السياسة الشرعية والاجتماعية في عهود الخلفاء إلى ولاتهم وقضاتهم وقوادهم، كعهد عليّ رضي الله عنه إلى الأشتر النخعي، وعهـد عمر إلى أبي موسى الأشعري.

٣ ـ الخطابة في الأمور الجامعة والحوادث المفاجئة وفي المناسبات الكثيرة.

٤ ـ وكتبت به الرسائل الدينية والسياسية التي تصدر عن الخليفة أو عن ولاته.

٥ ـ وأصبح أداة الدعوة والدولة، ولسان المدنية الإسلامية كافة.

وهـذه أغـراض لـم يكن للعـرب من قبـل إلْفٌ بهـا، إنمـا هي أغـراض جديدة وجه الدين الجديد العرب اليها.

معاني النثر الإسلامي

ومعاني النثر الإسلامي في هذا العصر كانت:

١ ـ تنبع من معين النبوة وأدب القرآن الكريم، ومن الدعوة إلى التوحيد والخلق والفضيلة والحق والخير والإخاء الإنساني وتقرير الإيمان بالله وأنبيائه وكتبه وملائكته واليوم الآخر.

٢ ـ وكانت تصدر عن عقل خصب وذهن متوقد وتفكير منظم، وملكات حصيفة تثقفت بثقافة الإسلام وكتابه الحكيم.

٣ ـ وصارت المعاني منظمة والأفكار مرتبة بعد الخلط الذي كانت عليه في الجاهلية.

٤ ـ وتمتاز بظهور حرارة الإيمان وقوة العقيدة فيها وبغلبة الروح الديني عليها.

٥ ـ وهي فوق ذلك كله صور للحياة الإسلامية في هذا العصر الكريم بما اشتمل عليه من فتوحات وانتصارات وأحداث سياسية وثورات فكرية واجتماعية.

أسلوب النثر الإسلامي

١ ـ ويمتاز أسلوب النثر الإسلامي بحسن سبكه، وجمال وصفه، وقوة نظمه، وإحكام فصوله، والتئام أجزائه، وذلك من تأثرهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي الجليل.

٢ ـ كما يمتاز ببعده عن الغرابة والاستكراه والسجع المتكلف والخطأ في مقامات الكلام ومقتضيات الأحوال.

٣ ـ وبكثرة ما فيه من اقتباس من القرآن الكريم وكلام الرسول صلوات الله عليه.

٤ ـ وبقوته ووضوحه وجلائه وسلاسته، مما تجده واضحاً في الآثار الفنية الأدبية التي حفل بها أدب هذا العصر.

ألفاظه

وقد بعدت ألفاظ النثر الإسلامي عن الغرابة والوحشية والابتذال، واختيرت اختياراً جيداً، ووضعت في مواضعها الملائمة، ووشيت بالبلاغة والعذوبة والسحر، وبعدت عن الخطأ، وسلمت من العيب واللحن والقصور.

وهذا كله من أثر بلاغة القرآن الكريم والحديث في ألسنة المسلمين في هذا العهد.

الشعر الاسلامي

الشعر في صدر الاسلام
وما طرأ عليه في أغراضه وألفاظه وأساليبه ومعانيه

(١)

كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تساميها منزلة، ومكانة لا تدانيها مكانة، فهو ديوان مآثرهم وسجل مفاخرهم، واللسان الناطق بما لهم من فضل وما هم عليه من مجد أثير وعز شامخ، ما من حرب تقوم بينهم إلا كان الذي هاج نارها وأوقد سعيرها وشب لظاها هو الشعر.

ولا تفتح مغاليق الأنفس، ولا تلين قساوة القلوب، ولا تنال العطايا والهبات، ولا تجزل المنح إلا بالقول الفاتن، والشعر الدافع، الذي يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغيبة، ويحتال به على ما يبغي من غرض. ولا تعمر مجالس السمر ومحافل العلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيد.

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم ﷺ، كانت قد تحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذبة العاقلة

والخلق القويم الذي تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع. فكان يصف المرأة أقبح وصف، ويهتك الحرمات، ويخرق الحجب والأستار، ويثير العصبية، ويوقد الحمية، ويحرض الناس على الاقتتال والتناحر، ويبعثهم على التقاطع والتدابر والتنافر. فكان بهذا السمت وبهذا الروح من عوامل الهدم وأسباب الدمار التي منيت بها الحياة العربية.

ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة، دعوة العفة في القول، والفعل والأدب الذي يليق بالمسلم، فحرم على الناس الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحذرهم من باطل القول وزوره، ومن سيِّئ الظن وخداعه وغروره، ودعا أولياءه وأتباعه إلى أن يبتعدوا عن كل رذيلة ويمتنعوا من كل موبقة، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان في ذلك ما يؤذي نفس مسلم.

أمات الإسلام فيهم روح العصبية، وأخمد في نفوسهم حمية الجاهلية، وحظر عليهم أن يلموا بما يثير النفس، أو يذكر بالخصومات، أو يحرك كامن الأحقاد ومستوى الضغائن.

حرم عليهم شرب الخمر، لأنها رجس من عمل الشيطان، وأوجب عليهم حفظ الفروج، وغض البصر، وكف الأذى، وصيانة الحرمات. ومن هنا وجد الشعراء الذين دخلوا في الإسلام وأشربوا روحه واهتدوا بهديه، وجدوا أدباً غير الأدب، وروحاً غير الروح، وأسلوباً في الخطاب غير الأساليب التي اعتادوها، وطرائق غير الطرائق التي ألفوها، ونحوا من بلاغة الكلام والسمع العفيف تندق أعناقهم وتنقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه أو يقتربوا من حده.

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت، وأن سبيلهم إلى ما كانوا يتناولون من المعاني والصور قد قطعت، وأن ما كانوا يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج، قد حظر عليهم الإسلام أن يلموا منه إلا بما عفَّ لفظه وشرف معناه، من أجل ذلك تحول عن معانيهم التي أجادوها، وأبدعوا فيها إلى المعاني التي يقرها الدين الجديد ويرتضيها، بل إن من شعرائهم من

امتنع عن قول الشعر في الإسلام، لأن الله أبدله به خيراً منه. فإن لبيداً لم يؤثر عنه في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي   حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر إلى أن وافاه أجله، وقد أرسل إليه عمر يسأله ماذا أحدثت من الشعر في الإسلام، فقال: أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران.

والواقع أن تحوُّل الشعر من روحه ومشربه في الجاهلية إلى روح جديدة، وحياة جديدة ومعان ربما ضاقت بها شياطين الشعر، وتخلفت فيها أخيلة الشعراء، هذا التحول قد عاد على الشعر بشيء من الضيق وانقباض الأفق، وجعل شعراء الإسلام يحفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية أو تنفر منه التعاليم الإسلامية، وفرق بين شاعر ينتهب كل معنى يعنُّ له، ويقتنص كل فكرة تتهيأ أمامه في أي موضوع وفي أي ناحية، وبين شاعر يستولي عليه التحرك من كل ما يخالف دينه ولا يلتئم مع عقيدته.

فهذا الحطيئة لم يرقق الإسلام له طبعا، ولم يهذب له نفسا، ولم يغير له من سمت، ولم يعدل له من سلوك، فبقي شعره على ما كان عليه جاهلي النزعة زاخراً بكل ما يمكن أن يحمله الشعر من معنى خبيث أو هجاء مقذع، حتى لقد حبسه عمر بن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هدده بقطع لسانه وأخذ عليه العهد ألاَّ يتناول أعراض المسلمين.

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه ولحمه، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية، ولم نَرَ له بعد ذلك شعراً قوياً إلا قوله في منافحة أعداء الإسلام، ومكافحة خصوم الرسول ﷺ وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه في الجاهلية من القوة إلى الضعف.

على أن الإسلام لم يهجن من الشعر إلا لما يحمله من المعاني التي لا تتفق وجلاله ولا تناسب وقاره وكماله، ولم يغض من الشعراء إلا لما يبدو

منهم من سمات وخلائق لا يرضاها الدين ولا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة ﴿وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[١].

وأما ما عدا ذلك فقد كان النبي ﷺ ينصت للشعر، ويستمع إلى الشعراء ويقول: «إن في الشعر لحكمة». وكان يأمر حسانا أن يردَّ على خصومه ويهجو أعداءه.

ولقد وفد على رسول الله ﷺ وفد بني تميم ـ بعد فتح مكة ـ ودخلوا المسجد وقالوا: «يا محمد، جئناك تفاخراً فأذن لشاعرنا وخطيبنا. فأذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، فأمر رسول الله ﷺ قيس بن ثابت، فرد عليه، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا يقسم الربع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع
ثم ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هويا ثم نصطنع

فلما فرغ الزبرقان بن بدر، أمر رسول الله ﷺ حسانا بالرد عليه فارتجل حسان قصيدته:

إن الذوائب من فهر واخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل مَنْ كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذاحاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فلما فرغ حسان من قصيدته، قال الأقرع بن حابس أحد رجال الوفد:

والله إن هذا الرجل (يعني محمداً) المؤتى له[٢]، لخطيبه أخطب من

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) أي مسهل له في أمره.

خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا... ثم أسلموا.

فنحن نرى أن الشعر حين أخلص في وجهته، وسلم مما كان يدنسه من هتك الأعراض، وكشف الأستار، كان من أسلحة الدعوة الجديدة والألسنة المجاهدة المكافحة في سبيل تثبيت دعائمها واستقرار قوائمها، ومن هنا نستطيع أن ندرك رسالة الشعر في هذه الفترة التي صلحت فيها الأخلاق، وتطهرت القلوب، واستنارت الأفئدة، وأظل الناس عهد وادع يجمله حسن الأدب، وجمال الخلق، وعفة اللسان، وسماحة المقال.

وكانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة لا تعرف الفحش، ولا تحب الجهر بالسوء، ولا تألف الخوض فيما حرم الله، فهي رسالة مستمدة من روح الإسلام، وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة، ودعوته الحقة إلى معاملة الناس أكرم معاملة.

أما من بقي على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد، فقد نعى عليه الرسول عليه السلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب، لأن لسانه ظل سادراً في غيه ممعنا في كفره لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجاً من دين رب العالمين وشريعة أحكم الحاكمين. ولقد أرسل النبي ﷺ محمد بن سلمة ورهطاً من الأنصار، فقتلوا كعب بن الأشرف من شعراء المدينة اليهود لأنه شبب بنساء المسلمين. وهذا ضابىء بن الحارث البرجمي هجا بعض بني جدول بن نهشل فأفحش في هجائهم، حتى رمى أمهم بالكلب فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه وقال: لو أن رسول الله ﷺ حي لأحسبنه نزل فيك قرآن، وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك. ولقد حبس عمر النجاشي الشاعر الذي هجا بني العجلان رهط بن مقبل بقوله:

وما سمي العجلان إلا بقولهم: خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

وكذلك حبس الحطيئة حين أفحش في هجو الزبرقان بن بدر وهدده

بقطع لسانه لولا أنه فزع إليه، وتلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل ليس لديهم ماء ولا شجر.

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الألسنة، ووجه رسالة الشعر إلى أسمى الأهداف وأنبل الغايات.

(٢)

أغراض الشعر في صدر الاسلام

هجر الشعراء الأغراض التي تتنافى والدين وتعاليم الإسلام: كالقول الفاحش والفخر الكاذب والهجاء المقذع، ومن استمر منهم على الهجاء كالحطيئة حبس وزجر من الخلفاء الراشدين، وموقف عمر من الحطيئة معروف... كذلك بطل الكلام في الخمر ووصفها والميسر وفتيانه والجزور التي ينحرونها عليه وفي تملق الناس بالمدح، وفي صيد الوحش وطرده... مما كان بعده المسلم المتأثر بالعقيدة الإسلامية عبثاً ولهواً.

وكان كثير من هذه الأغراض شديد الصلة بحياتهم في الجاهلية كالخمر والميسر وحياة البطالة والصراع والأخذ بالثأر والرغبة في الانتقام والدبيب والاستهتار والفجور في الحب. ومن أجل ذلك كان فيها أجود أشعارهم وأملؤها بالقوة والروعة والعاطفة، وهذا يفسر لك بعض الحق فيما يقال من أن الشعر ضعف في صدر الإسلام.

١ ـ **الدعوة إلى الإسلام** ومبادئه ومفاضلة خصومه ـ وكان من أشهر الذائدين على الدعوة ورسولها الكريم: حسان وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول بشعرهم: ابن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وأبو سفيان بن الحارث، وهبيرة بن أبي وهب، وأبو عزة الجمحي.

٢ ـ **هجاء أعداء الدعوة** في عصر النبوة، وهجاء أصحاب الديانات الزائفة بعد عصر النبوة.

٣ ـ **رثاء من استشهدوا في** غزوات الرسول وفي الفتوحات الإسلامية الكثيرة، ومن قتل ظلماً من خلفائه وكبار أصحابه.

٤ ـ **الفخر والتباهي** بالانتصار على جيوش الفرس والروم والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم ووصف المعاقل والحصون وآلات القتال التي لم يكونوا عرفوها، وأنواع الحيوان الذي لم يشاهدوه، ومنه الفيلة التي حارب الفرس عليها العرب، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام وسفائن البحر، وسوى ذلك مما ملئت به كتب المغازي والفتوح، ويكثر في هذا النوع الأراجيز.

٥ ـ **الحكمة**، وقد كثرت في الشعر في هذا العصر بتأثير ثقافة القرآن والدين وللتجارب الكثيرة التي أفادوها في الحياة.

ويقول حسان أو حفيده سعيد:

وإن امرأ يمسي ويصبح سالماً ... من الناس إلا ما جنى سعيد

ويقول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

ويقول كعب بن زهير:

ومن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

٦ ـ **المدح**، وأشهر شعرائه حسان والنابغة الجعدي وكعب بن زهير والحطيئة. وفي هذا الفن يبدو أثر الإسلام في معانيه وألفاظه.

٧ ـ كما نظموه في **الوعظ والتزهيد** في الدنيا **والدعوة إلى تقوى الله**، متأثرين في ذلك بالإسلام.

معاني الشعر في صدر الإسلام

وقد تأثرت معاني الشعر في هذاالعصر تأثراً واضحاً بالإسلام والقرآن الكريم فغلب على معانيه:

١ ـ العمق والدقة والفهم والاستقصاء وترتيب المعاني والأفكار.

٢ ـ ظهور المعاني الإسلامية والعاطفة الدينية في الشعر وغلبتها عليه وتوليدها من العقائد الإسلامية.

٣ ـ الوضوح والبساطة في المعاني والأفكار والأخيلة.

أسلوب الشعر وألفاظه

تأثر الشعراء في عصر النبوة وبعده بالقرآن الكريم وحديث رسول الله تأثراً ظاهراً في الأسلوب والأداء مما أحدث تغييراً واضحاً في أسلوب الشعر في هذا العصر.

١ ـ فقد هجروا الحوشي والغريب والمبتذل والساقط والملحون، وتردد في شعرهم كثير من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والإسلام.

٢ ـ وأمعنوا في جمال السبك وعذوبته وإحكامه وتلاؤمه.

٣ ـ وأكثروا في شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم كما سبق.

٤ ـ جزالة الأسلوب وقوته، وكثرة روائعه وصوره الأدبية والبيانية.

وبعد فالأقدمون يقسمون الشعراء المخضرمين إلى طائفتين متميزتين: شعراء الوبر من أعراب نجد واليمامة وبواديها، وشعراء المدر وهم أهل القرى كالمدينة ومكة والطائف، وقرى عبد القيس في البحرين، والحيرة بسواد العراق.

ويرون أن شعر أهل نجد واليمامة والبوادي أفحل من شعر أهل القرى، وأجزل لفظاً، وأضخم أداءً، وأوسع مذهباً في تنويع أساليب الكلام... وإن كان شعرهم لا يخلو من حوشية في العبارة، ومنها كان فحول الشعراء.

ويرون أن شعراء المدر ألينُ شعراً، وأرقُّ لفظاً، وألطف كناية، وأدمث أسلوباً؛ وأن أشعرهم جميعاً أهل المدينة، ومنهم كان شعراء النبي الذين

نافحوا عنه الشعراء الناشئين في قريش بعد أن لم يكن لها شعر يذكر، وإن شعر الأنصار في الأوس والخزرج في هذا العصر لَانَ في اللفظ وهانَ في المعنى عما كان عليه في الجاهلية. وعللوا ذلك بأن الإسلام نسخ كثيراً من بواعث الشر التي تثير النفوس وتشعل الأحقاد. . كالعصبية الجاهلية، وحب الانتقام، والأخذ بالثأر، والنشوة بالخمر والهجاء الكاذب، وأكثر ما يجيش بالخواطر عند احتدام الشرور وتسكن إليه النفس عند الرضاء والسرور.

وأمر آخر ذكروه، وهو أن كثرة تلقيهم آيات هذا القرآن المعجز ونزوله بينهم كل حين بما يبهرهم ويأخذ بمجامع قلوبهم، صغر قيمة شعرهم في أعينهم، فاستصغروا معانيهم وأسلوبهم بالمقارنة إلى معانيه وأسلوبه، فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه، ومثلوا لذلك بقسوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام، وشموخ شعر أمية بن الصلت في الجاهلية واستخذائه في الإسلام لمكان حسده لرسول الله.

قال الثعالبي[1]: كان حسان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً، ويغبر في نواصي الفحول، ويدّعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء، ويقول مثل قوله في بني جفنة ملوك غسان:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان ملكا تراجع شعره وكاد يرق في قوله، ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك.

وأكبر من ذلك أن لبيداً العامري وهو من أفحل شعراء الجاهلية، عندما انقطع إلى حفظ القرآن ومدارسته انقطع عن قول الشعر في الإسلام. ويقولون إن مَنْ لم يتعرض لهذا الإفحام والانبهار من أعراب البوادي بقي شعره إلا قليلا على غرار شعر الجاهلية من أمثال الحطيئة وكعب بن زهير،

---

(١) ٨٠ خاص الخاص للثعالبي، ط ١٩٠٨.

وكل هذا كلام مقبول في جملته، ولكن كثيراً من أهل العلم والنقد من المتقدمين والمتأخرين يرون أن بعض ما يستضعف من شعر شعراء مكة والمدينة والطائف مدسوس عليهم.

(٣)

وبعد، فقد كان المسلمون الخلفاء يرعون الشعر والشعراء، وكان أبرز عمل قاموا به هو الدعوة إلى المحافظة على الشعر الجاهلي وروايته وكتابته خوفاً من أن يندثر بكثرة مَنْ قُتل من العرب في الفتوحات، ولما شاهدوه من قلة الرغبة في الشعر عند الناس بتأثير الشعور الديني الجديد، ومحافظة على لغة القرآن ولديهم بلاغته وإعجازه... ولهذا قال عمر بن الخطاب: عليكم بديوانكم لا تضلوا، فقالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم... وكان يعتزون بالشعر ويقدرون رسالته وينصتون لحكمته وينوهون بأثره. قال عمر: أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في حاجاته، يستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها قلب اللئيم.

وسئل مالك بن أنس: من أين شاطر عمر بن الخطاب عماله فقال: أموال كثيرة ظهرت عليهم. وأن شاعرا كتب إليه يقول:

تحج وتغزو كل عام إذا غزوا ... فأنى لهم وفر ولسنا بذي وفر
إذا التاجر الهندي جاء بقارة ... من المسك راحت في مفارقهم تجري
فدونك مال الله حيث وجدته ... سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

قال: فشاطرهم أموالهم..

وقال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب، أنشدني قول زهير فأنشدته قوله في هرم بن سنان حيث يقول:

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

فقال له عمر: ما كان أحب إليّ لو كان هذا الشعر في أهل بيت رسول الله.

ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له: من أنت؟

قال: أنا ابن هرم بن سنان...

قال: صاحب زهير...

ثم قال: أما إنه كان يقول فيكم فيحسن...

قال: كذلك كنا نعطيه فنجزل..

قال: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم...

وكان كثير من الخلفاء والصحابة نقاداً بفطرتهم وذوقهم: فأبو بكر «يقدم النابغة»، ويقول: هو أحسنهم وأعذبهم بحراً وأبعدهم قعرا[1]، وكان عمر يتذوق الشعر وينقده[2]، وقدم زهيراً ولم يحكم بذلك فحسب بل شرح سبب حكومته بأنه كان «لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه»[3]. وكان يرى أنه أشعر الناس[4]، وكان يجلس هو وأصحابه فيتذاكرون الشعر والشعراء وأيهم أشعر[5].

وقال[6] عمر بن الخطاب للوفد الذي قدم عليه من غطفان:

ـ من الذي يقول؟:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مطلب

قالوا: نابغة بني ذبيان.. قال: هو أشعر شعرائكم.

---

(١) ٧٨، ج ١، العمدة.

(٢) راجع: ٩٩ إعجاز القرآن، ١٩٦ و١٧٠ ج ١ و٢٢٤ و٢٢٥، ج ٢ البيان والتبيين، ٣٨ و٥٩ و٦٠ و٧٦ ج ١ العمدة.

(٣) ١٣٥ الموازنة، ٨٠ ج ١ العمدة، ٣٢ جمهرة أشعار العرب، وص ١٠٥ نقد الشعر.

(٤) ٣٧٩ وما بعدها ج ٢ العقد.

(٥) ٣٢ الجمهرة.

(٦) ٣٤ الجمهرة.

وكذلك كان علي بن أبي طالب، وكان يقدم امرأ القيس على الشعراء، ويقول: هو أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة[1].

أشهر الشعراء المخضرمين

مزرد بن ضرار الذبياني ـ زيد الخيل وفد على الرسول عام ٩ هـ وتوفي في هذا العام ـ المخبل السعدي مات في خلافة عمر ـ عمرو بن الأهتم المنقري ـ ربيعة بن مقرم ـ عبدالله بن غنمة الضبي ـ سويد بن أبي كاهل اليشكري وتوفي بعد عام ٦٠ من الهجرة ـ عوف بن عطية بن الخرع التيمي من تيم الرباب ـ قيس بن الخطيم وقد لاقى رسول الله ولم يسلم ـ كعب بن زهير ـ حسان ـ مالك بن الريب.

شعراء الحماسة المخضرمون

عمرو بن الأهتم ـ الخنساء ـ عمرو بن أحمر ـ زرعة بن عمرو ـ عامر بن الطفيل وفد على رسول الله ـ قيس بن الخطيم أدرك النبي ـ الحارث بن هشام توفي عام ١٥ هـ ـ الضرار السلمي ـ عمرو بن شاس ـ سلم بن دارة ـ غسان بن باهلة ـ عبدالله بن غنمة الضبي ـ قبيصة بن جابر ـ عاتكة بنت عبدالمطلب ـ أمية بن أبي الصلت ـ أبو خراش الهذلي ـ عبدة بن الطيب ـ دريد بن الصمة ـ الأسود بن يغوث ـ قتيلة ـ النابغة الجعدي ـ سلمة الجعفي ـ الشماخ ـ عمرة بنت الخنساء ـ معن بن أوس ـ حسان ـ أبو الطمحان القيني.

صور من الشعر الإسلامي

(١)

قال أبو ذؤيب الهذلي ـ وكان له أولاد سبعة فماتوا كلهم ـ يرثيهم:

أمن المنون وريبها تتفجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزعُ
قالت أمامة ما لجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفعُ

---

(١) ٢٧ و٢٨ ج ١ العمدة.

أو مـا لجسمـك لا يـلائم مضجعا ... إلا أقض عـليـك ذاك المـضـجـعُ
فـأجبتـهـا أمـا لـجسـمي إنـه ... أودى بـنـيَّ مـن بـلاد فـودعـوا
أودى بنـيَّ وأعـقـبـونـي حسـرة ... بـعـد الـرقـاد وعبـرة مـا تـقـلعُ
سبقـوا هـويَّ وأعـنقـوا لـهـواهم ... فتخـرّمـوا ولكـل جنب مصـرعُ
فبقيت بـعـدهم بعيشٍ نـاصب ... وأخـال أنـي لاحـق مـستـتبـعُ
ولقـد حـرصت بـأن أدافـع عنهم ... وإذا الـمنيـة أقبلت لا تـدفـعُ
وإذا الـمنيـة أنشبت أظـفـارهـا ... ألـفيت كـلَّ تـميـمـةٍ لا تـنـفـعُ
فـالعين بعـدهم كـأن حـداقهـا ... سملت بشـوك فهي عـور تـدمـعُ
حـتـى كـأنـي لـلحـوادث مـروة ... بصفـا المشقـر كـل يـوم تقـرعُ
وتـجـلدي لـلشـامـتـيـن أريـهـم ... أني لـريب الـدهـر لا أتضعضـعُ
والـنـفس راغـبـة إذا رغبـتـهـا ... وإذا تـرد إلـى قـليـل تـقـنـعُ

* * *

(٢)

وقال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا:

لعمري ومـا دهـري بتأبين مـالـك ... ولا جـزعـاً مـمـا ألمَّ فـأوجـعـا
فـعـيـنـيَّ تـبـكـيـان لـمـالـك ... إذاهـزت الـريـح الكثيب الممـرعـا
ومـا كان وقـافاً إذا الخيـل أحجمت ... ولا طـالبا من خشيـة الموت مفـزعا
ولا بـكـهـامٍ سيفـه مـن عـدوه ... إذا هـو لاقـى حـاسـراً ومقـنـعـا
أبـي الصـبـر آيـات أراهـا وإنني ... أرى كـل حبـل بعـد حبلك أقـطعـا
وإني متى مـا أدع باسمـك لم تجب ... وكنت حـريـاً أن تجيب وتسـمعـا
فـإن تـكن الأيـام فـرقـن بيـنـنـا ... فقـد بـان محمـودا أخي حين ودعـا
فعشنـا بخيـر في الحيـاة وقبلنـا ... أصـاب المنـايا رهط كسـرى وتبعـا
وكنـا كندمـاني جـذيمـة حقبـة ... من الـدهـر حتى قيـل لن يتصـدعـا
فلمـا تفـرقـنـا كـأني ومـالـكـا ... لـطول اجتمـاع لم نبت ليلة معـا
سقى اللهُ أرضـاً حلَّهـا قبرُ مـالـكٍ ... وهـام الغوادي المـزجيات فـأمـرعـا

* * *

(٣)

قصة عربي كريم للحطيئة:

وطاوي ثلاث[1] عاصب البطن مرمل[2] ببيداء[3] لم يعرف بها ساكن[4] رسما
أخي جفوة[5] فيه من الإنس وحشة يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
وافرد في شعب[6] عجوزاً إزاءها ثلاثة أشباح تخالهم بهما[7]
حفاة، عراة، ما اغتذوا خبز ملة[8] ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رأى شبحاً وسط الظلام فراعَهُ فلما رأى ضيفاً تشمَّر واهتما
فقال: هيا رباه ضيف ولا قرى!! بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما
فقال ابنه لما رآه بِحَيْرَةٍ: أيا أبت اذبحني وَيَسِّرْ له طعما
ولا تعتذر بالعدم على الذي ترى يظن لنا مالاً فيوسعنا ذمًّا
فروَّى قليلاً، ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
فبينا هما عنت على البعد عانَةٌ قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها إلى دمها أظما
فأمهلها حتى تروت عطاشها فأرسل فيه من كنانته سهما
فخرت نحوص ذات جحش سمينة قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما[9]
فيا بشره إذ جرها نحو أهله ويا بشرهم لما رأوا كلمها يَدْمَى
وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم وما غرموا غرماً، وقد غنموا غنمًا
وبات أبوهم من بشاشته أباً لضيفهم والأم من بشرها أمًّا

* * *

---

(١) أي مقيم ثلاث ليالي على الطوى: أي الجوع.
(٢) المرمل: الذي نفذ زاده.
(٣) صحراء.
(٤) رسم الدار ما كان من آثارها لاصقا بالأرض.
(٥) الجفوة: الوحشة.
(٦) الشعب: طريق في الجبل.
(٧) جمع بهمة: الصغير من أولاد الضأن والماعز.
(٨) الملة: الرماد الحار.
(٩) النحوص: الأتان السمينة. الجحش: ولد الحمار. اكتنزت: امتلأت.

(٤)

وقال مالك بن الريب المازني[1]، يرثي نفسه ويصف قبره وكان خرج مع سعيد بن عفان أخي عثمان بن عفان لما ولي خراسان، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس خفه فلدغته أفعى فلما أحس بالموت أنشأ يقول:

دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتي ... بذي الطبسين فالتفت ورائيا
فما راعني إلا سوابق عبرتي ... تقنعت منها إن الأم ردائيا
ألم ترني بعت الضلالة بالهدى ... وأصبحت في جيش بن عفان غازيا
فلله درِّي حين أترك طائعا ... بني بأعلى الرقمتين وماليا
تقول ابنتي لما رأت وشك رحلتي ... سفارك هذا تاركي لا أبا ليا
ألا ليت شعري عليٌّ بكت أُم مالك ... كما كنت لو غادى نعيك باكيا
إذا مت فاعتادي القبور وسلمي ... عليهن واسقين السحاب النواديا
ترى جسدنا قد جرت الريح فوقه ... ترابا كلون القسطلاني هابيا[1]
فيا صاحبَيْ رحلي دنا الموت فاحفرا ... برابية إلى مقيم لياليا
وخُطًّا بأطراف الأسنة مضجعي ... وردًّا على عيني فضل ردائيا
ولا تحمداني بارك الله فيكما ... من الأرض ذات العرض أن توسما ليا
خذاني فجراني ببردي إليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
تفقدت مَنْ يبكي عليٌّ فلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وبالرمل لو يعلمن على نسوة ... بكين وفدين الطبيب المداويا
عجوزي وأُختاي اللتان أصيبتا ... بموتي وبنت لي تهيج البواكيا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي ... لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
تحمل أصحابي عشاء وغادروا ... أخا ثقة في عرصة الدار ثاويا
يقولون لا تبعد وهم يدفنونني ... وأين مكان البعد إلا مكانيا

* * *

---

(١) مالك: شاعر فاتك كان يقطع الطريق وكان من أحسن الناس وجها وأرقهم حديثا، قربه سعيد في طريقه إلى خراسان وتألفه واتخذه في خاصته.

(٢) القسطلاني: نسبة إلى قسطلان، وهو الغبار الساطع، والهابي: التراب الدقيق.

(٥)

وقال أبو دعبل الجمحي يمدح النبي ﷺ:

إن البيوت معادن فنجاره ذهب وكل بيوته ضخم[١]

عقم النساء فما يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم

متهلل بنعم، بلا متباعد سيان منه الوفر والعدم[٢]

(١) البيوت: المراد بها القبائل. المعادن: جمع معدن وهو منبت الجوهر. النجار: الأصل، وكل بيوته ضخم: أي القبائل التي اكتنفته من أخواله وأعمامه شريفة عظيمة مثل هاشم وأمية ومخزوم.

(٢) متهلل بنعم: أي فرح يقول نعم. بلا متباعد: أي بعيد من قول لا. وسيان: مثلان، الوفر: المال الكثير، العدم: قلة المال.

النقائض الشعرية بين شعراء المدينة وشعراء مكة في عصر الرسالة

كان أبرز الشعراء الذين دافعوا عن الدعوة الإسلامية ورسولها عليه الصلاة السلام، ووقفوا في مواجهة قريش، ثلاثة من الأنصار هم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وكان حسان أشعرهم، ولم يكن شعرهم شعر أناقة وترف على النهج الذي ألفوا أن يقولوه في الجاهلية، وإنما كان شعر منافحة ودفاع عن الإسلام ورسوله والذين اتبعوه بإيمان. كما كان معايرة لقريش بمخازيها، فقد كان الأولى بها أن تكون أول الواقفين تحت راية الإسلام وفي صفوف المسلمين.

ولقد كان مما قاله أحد الصحابة محرضا ومستحثاً للأنصار ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم. وكان الأنصار في أول الأمر يخشون أن يهجوا مشركي مكة من قريش لأنهم أقرباء الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما أذن لهم الرسول بأن يهجوهم قال حسان بن ثابت: أنا لهم، وأخذ يطرف لسانه ويقول: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء، فقال له الرسول: كيف تهجوهم وأنا منهم، قال: إني اسلُّك كما تسلُّ الشعرة من العجين. . قال الرواة: فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل الوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم

بالكفر، فكان هجاء حسان وكعب لقريش قبل إسلامهم من أشد القول عليهم، وأهونه عليهم هجاء عبدالله بن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم هجاء ابن رواحة(١).

ويبدو أن حسان بن ثابت قد انفرد من بين شعراء التاريخ بأنه كان اللسان الشاعر المبين لدعوة دينية شاملة، ندبه رسول الله ﷺ أن ينافح، وخلد مواقفها في غرر شعره، وخلع عليه صاحبها من التكريم ما تنقطع دونه أعناق النظراء، حيث نصب له منبرا في مسجده يلقي من فوقه شعره، ودعا له أن يؤيده روح قدس، ووهب له (سيرين) أخت مارية القبطية، ووعده الجنة جزاء إجابته عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد اعتلى حسان المنبر في يوم انتصاره الأدبي العظيم على شعراء بني تميم في وفودهم على رسول الله ﷺ، حين قدموا عليه بعد فتح مكة، وكانوا سبعين أو ثمانين رجلاً، فيهم وجوه القوم وسادتهم، وكانوا غلاظاً جفاة، فنادوا الرسول من وراء الحجرات وقالوا: يا محمد جئناك لنفاخرك فائذن لخطيبنا وشاعرنا، فأذن لهم، وخطب منهم عطارد بن حاجب بن زرارة فغلا في وصفه لقومه، وزعم لهم الملك والغنى والكثرة والمنعة والسيادة والقوة على العرب جميعا، فأشار الرسول ﷺ إلى ثابت بن قيس الأنصاري ففاخر بالرسول وأتباعه من المهاجرين والأنصار، فدمغ بحقه باطلهم وطامن من غرورهم، وكبريائهم، وفند دعاواهم ومزاعمهم.

ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد شعراً جمع فيه المكارم والمحامد لقومه، فأومأ الرسول إلى حسان، فأنشد قصيدته السينية، التي أزال بها الغشاوة عن أعين القوم، وجلا الصدأ الذي ران على قلوبهم حتى قال الأقرع بن حابس: والله إن هذا الرجل (ويقصد محمدا ﷺ) لمؤتى له، والله لشاعره أشعر الناس، ولخطيبه أخطب من خطيبنا، ولأصواتهم أرفع من

---

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول، ص ١٥٠، د. سيد حنفي حسنين.

أصواتنا، ثم قال: أعطني يا محمد، فأعطاه عليه الصلاة والسلام، فقال: اللهم إنه سيد الناس... ثم أسلم الوفد...

وكان من أبيات القصيدة التي أنشدها حسان قوله:

إن الذوائب من فهرٍ واخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبعُ[(١)]
يرضى بها كل من كان سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا[(٢)]
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق - فاعلم - شرها البدعُ[(٣)]
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ[(٤)]
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم ... في فضل أحلامهم عن ذاك متسعُ[(٥)]
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم الطمعُ[(٦)]
اعطو نبي الهدى والبر طاعتهم ... فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا[(٧)]
إن قال سيروا أجدوا للسير جهدهم ... أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا[(٨)]
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم ... أهل الصليب ومن كانت له البيعُ[(٩)]
لا فخر إنْ هم أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولاجزعُ[(١٠)]
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد بيبيشة في أرساغها فدعُ[(١١)]

---

(١) الذوائب: جمع ذؤابة وهي أعلى الشيء، وفهر: اسم الجد الأعلى لقريش وأصله حجر صلب.
(٢) السريرة والسر: ما يكنه الإنسان في صدره ويخفيه عن غيره.
(٣) السجية: الغريزة.
(٤) أي هم أسبق الناس وغيرهم لهم تبع.
(٥) المقصود بالجهل هنا: الطيش والحمق، والأحلام: جمع حلم والمقصود منه: الأناة، والعقل: أي انهم لسعة عقولهم لا يتسرعون في الغضب إذا استثارهم أحد.
(٦) لا يطبعون: لا يقعون في الدنس والخسة، ولا يرديهم الطمع: لا يهلكهم ويدفعهم إلى المغامرة.
(٧) ونى: أبطأ وتأخر، وما نزعوا: ما انصرفوا عن اتباعه ونصرته.
(٨) عوجوا: أنزلوا، ربعوا: وقفوا وأقاموا - كناية عن كمال الخشوع والاستسلام.
(٩) استقاد: خضع وأسلم القياد. أصحاب البيع: اليهود.
(١٠) الخور: الضعف والجبن، والجزع والجازع: الخائف المذعور.
(١١) الموت مكتنع: أي دان قريب... وبيبيشة: مأسدة في واد بطريق اليمامة اشتهرت أسودها بقوة البطش، والرسغ: المفصل ما بين الساعد والكف وما بين الساق والرجل، والفدع: اعوجاج الرسغ، وهو في الأسود دليل الصلابة والقوة.

أكــرم بقــوم رســول الله شيـمتـهم إذاتـفــرقت الأهــواء والـشيــعُ[١]
أهــدي لــهم مــدحـي قلب يـؤازره فيمـا يحب ـ لسان حـائك صنَعُ[٢]
فــإنـهم أفـضــل الأحـيــاء كـلهــم إن جد بالناس جد القول أو شمعوا[٣]

وهكذا كان لهذه قصيدة أثرها في اعتراف «تميم» أولاً بأن محمـدا عليه الصلاة والسلام مؤتى له، وثانيا بهذا الدين الذي يدعو إليه.

والحق أن حساناً كان آية من الآيات التي أيِّد بها رسوله ﷺ، فقد كـان المشركون أهل لسن وفخر وهجاء، وقد حاربوا الرسول بهـذا السلاح، فكـان لا بد له أن يعدَّ لهم شاعرا سليط اللسان قوي البيان سريع العارضة، وقد كان لمعسكـر المسلمين شعراؤه، ولا بـد أن يكـون الكثيـر منهم قـد تـطلع لهـذا الشرف السامي، ولكن الرسول، عليـه الصلاة والسـلام، بثاقب نـظره، ندب حسان لهذا الثغر من ثغور الدعوة، فحسان أنصاري والأنصار قد نصروا رسول الله بسيـوفهم، فهم أجدر أن ينصـروه بألسنتهم، وهـو من بني النجار ـ ذؤابـة الخزرج ـ وهو شاعر ناضج معروف المكانـة، وقد كمـل رسول الله ﷺ نـاحية النقص في عدته الهجائية، فعهد إلى أبي بكر أن يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، وقد ظهر أثر ذلك كله في شعر حسان ظهوراً لم يخف على فطانة قريش، فقالت بعد سماع شعـر حسان: «إن هـذا الشتم ما غـاب عنه ابن أبي قحافة».

وقد سرَّ النبي ﷺ لهـذا التوفيق الـذي أصاب شـاعره، فكـان يستشهده ويطيل الاستماع إليه ثم يقول: «لهذا أشـد عليهم من وقع النبـل». وروي أنه قال: «أمرت عبـدالله بن رواحة فقـال وأحسن، وأمرت كعب بن مـالك فقـال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى»[٤].

---

(١) شيعتهم: حزبهم ومعدهم.
(٢) يؤازره: يعاونه ويسانده، والصنع والصناع: الحاذق في صنعته.
(٣) شمع: لعب ومزح، يعني أن فضل رسول الله ﷺ، وقومه على سائر الأحياء لا يجادل فيه أحد سواء كانوا في معرض الجد أو الهزل.
(٤) راجع: دراسات في الأدب الإسلامي للأستاذ محمد خلف الله أحمد، ص ٣٥، نسمات من عبير الأدب للدكتور محمد سرحان، ص ١٠٤، ط ٢.

وواضح من المواقف التي وقفها حسان وأمثاله، أنه كما كان للدعوة شعراؤها المؤمنون بها المنافحون عنها، فلقد كان لها كذلك أعداؤها ممن أخذوا يكيدون لها شعراً مثل أمية بن أبي الصلت، وكعب بن الأشرف، وعبدالله بن الزبعرى، والحارث بن هشام، وغيرهم.

وإذا كان لهؤلاء وأولئك مواقفهم شعرية بعد فتح مكة، فقد كان لهم كذلك مواقفهم قبل الفتح.

ففي وقعة بدر الكبرى ـ مثلا ـ حيث كان نصر المسلمين رائعاً مؤزراً، يقول حسان بن ثابت:

سرنا، وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون بعين العلم ما ساروا[1]
دلاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرارُ[2]
وقال: إني لكم جار فأوردهم شر الموارد فيه الخزي والعارُ

ويمضي شعر المسلمين يسجِّل على قريش بغيها وبطرها الذي سجله القرآن الكريم من قبل، فقال كعب بن مالك:

عجبت لأمر اللَّهِ واللَّهُ قادر على ما أراد، ليس لله قاهرُ
قضى يوم بدر أن نلاقي معشرا بغوا، وسبيل البغي بالناس جائرُ
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم من الناس، حتى جمعهم متكاثرُ

أما مَنْ فرَّ من المشركين يوم بدر، فقد اشتفى منهم شعر المسلمين بالتعيير، والهزء والزراية، ومن أوجع ما قيل في ذلك ما أنشأه حسان في قصيدة تعدُّ من أقوى ما قيل من الشعر في غزوة بدر، وسجل فيها فرار الحارث بن هشام وتركه أخاه عمرا (أبا جهل) يقتل في ميدان القتال، هذه القصيدة التي بدأها حسَّان بقوله يتغزل:

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقي الضجيع ببارد بسامِ

---

(١) الحين: الهلاك.
(٢) دلاهم بغرور: أي أن الشيطان خدعهم وغرهم وزين لهم محاربة المسلمين فأسلمهم للهلاك.

ثم يخلص من الغزل إلى قوله:

إن كنتِ كـاذبـة الـذي حـدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشامِ
تـرك الأحبـة أن يقـاتـل دونـهم ... ونـجـا بـرأس طـمـرة ولـجـامِ
وبنـو أبيـه ورهـطه في معـركٍ ... نـصـر الإلـهُ بـه ذوي الإسـلامِ
لـولا الإلـه وجـريـهـا لتـركـتـه ... جَـزْر السباع ودسنـه بحـوامي(١)

ومن أكثر ما ردَّده شعراء المسلمين يومئذ، تعديدهم الصرعى من عظماء قريش ووصف هوانهم وقد ألقوا على أرض المعركة ينتظرهم مصير آخر مؤلم في نار جهنم، ووصفهم الأسرى وقد شُدُّوا بالأغلال وقُيِّدوا بالأصفاد. وها هو ذا حسان يصف المعركة التي دارت على المشركين فيقول:

طحنـتـهـم والله ينـفـذ أمـره ... حـرب يشبُّ سعيـرهـا بـضـرامِ
من كـل مـأسـور يشـدُّ صِفـادَه ... صقـرٌ إذا لاقى الـكـتيبـة حـامي
ومجـدل لا يستجيب لِـدعـوةٍ ... حتى تـزولَ شـوامـخُ الأعـلامِ
بـالـعـار والـذلِّ المبيـن إذا رأوا ... بيضَ السيوف تسوقُ كـلَّ همامِ

ويقول كعب بن مالك:

بـهن أبَـدْنَـا جـمعـهـم فـتـبـدَّدُوا ... وكـان يـلاقي الحين من هـو فـاجـرُ
فَخَـرَّ أبـو جهـلٍ سـريعـاً لـوجهـه ... وعتبـة قـد غـادرنـه وهـو عـاثـرُ
وشيبـة والتيـمي غُـودرن الـوغـى ... ومـا منهم إلا بـذي العـرشِ كـافـرُ
فـأمسـوا وقـودَ النـار في مستقـرهـا ... وكـل كـفـورٍ في جـهـنـم صـائِـرُ
تلظى عليهم وهي قـد شَبَّ حميمها ... بـزبـر الحـديـد والحجـارة سـاجِـرُ

ولم يَنْسَ المسلمون ما هددهم به المشركون من الإغارة عليهم والأخذ بالثأر، فهون شعراء المسلمين من ذلك، بل أكدوا أن سيأتي يوم ويغزون فيه مكة ويستولون عليها، وفي ذلك يقول كعب بن مالك:

---

(١) راجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية، ص ٢٤٧: رسالة ماجستير، د. صلاح الدين محمد عبدالتواب، من النقد والأدب، د أحمد بدوي ص ١٤ ـ ١٦.

فلا تعجل أبا سفيان وارقب جياد الخيل تطلع من كداءِ

أما موقف شعراء المشركين من تلك الغزوة، فيظهر أن قريشاً تواصت على أن تخفي حزنها في صدرها، وأن لا تبوح بآلامها أول الأمر، إلا أنه لم يلبث أن انطلق الشعر من عقاله، معبراً عما يجيش في النفوس إزاء هذه الهزيمة التي حاطت بقريش وإزاء تلك السخرية اللاذعة التي تنطلق من أشعار المسلمين.

وكان مما قاله شداد بن أوس يبكي من لقي مصرعه في وادي بدر ويعدِّد عظماء القتلى ويصف مشاعره إزاء قتلهم:

تحيي بالسلامة أم بكر وهل لي بعد قومي من سلامِ
فإذا بالقليب قليبِ بدرٍ من القينات والشرابِ الكرامِ

وهذا هو أمية بن أبي الصلت يبكيهم ويثني عليهم ويصف مقدار ما ألم مكة لفقدهم:

ألا بكيت على الكرا م بني الكرام أُولي الممادحِ
ماذا ببدر فالعقنقـ ـل من مرازبة جحاجحِ
شمط وشبان بهاليـ ـل مناوير وحاوحِ
ألا ترون كما أرى ولقد أبان لكل لامحِ
أن قد تنير بطن مكـ ـة فهي موحشة الأباطحِ

ومضى بعض الشعراء يبكون مصابهم الخاص أو يندبون بني قبيلتهم أو يرثون بعض عظمائهم، ومن أمثلة ذلك ما يقوله الحارث بن هشام يرثي أخاه أبا جهل:

ألا يا لقومي للصبابة والهجر وللحزن مني والحرارة في الصدر
وللدمع من عيني جرارا، كأنه فريد هوى من سلك ناظمه يجري
على البطل الحلو الشمائل انثوى رهين مقام للركية من بدر

وتوعد بعضهم الأوس وهددهم بالانتقام والثأر، وأخذ يخفف من غلواء

الأنصار فيما ملأهم من الابتهاج بالنصر، ويدعو المكيين بأن يناموا على الضيم، وفي ذلك يقول ضرار بن الخطاب:

عجبت لفخر الأوْسِ والحين داثر ... عليهم غدا والدهر فيه بصائرُ
وفخر بني النجار أن كان معشر ... أصيبوا ببدرٍ، كلهم ثم صابرُ
فإن يك قتلى غودرت من رجالنا ... فإن رجالا بعدهم سنغادر
ونترك صرعى تعصب الطير حولهم ... وليس لهم إلا الأماني ناصرُ
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة ... لهن بها ليل عن النوم ساهرُ

ولقد أسهمت المرأة بدورها في البكاء على صرعى بدر من المشركين، ومما يرون من شعر هند بنت عتبة في هذا المضمار، قولها تبكي أباها عتبة بن ربيعة(١):

أعيني جودا بدمع سرب ... على خير خندف لم ينقلب
تداعى له رهطه غدوة ... بنو هاشم وبنو المطلب
يذيقونه حدَّ أسيافهم ... يعلونه بعد ما قد عطب
يجرونه وعفير التراب ... على وجهه عارياً قد سلب

وكان من أجمل ما قالت المرأة من الشعر في هذه الغزاة، شعر قتيلة بنت الحارث تبكي أخاها النضر، وتعاتب الرسول ﷺ فتقول(٢):

يا راكباً إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفقُ
أبلغ بها ميتاً بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفقُ
مني إليك وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها، وأخرى تخنقُ
هل يسمعن النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطقُ
أمحمد، يا خير ضنءٍ كريمة ... في قومها، والفحل فحل معرقُ
ما ان ضرك لو مننت ربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظُ المحنقُ

---

(١) راجع: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ليحيى الجبوري، طبعة بغداد، ص ١٧١ و١٧٢، والأثر القرآني في الصورة الأدبية، ص ٢٤٩، د. صلاح الدين محمد عبدالتواب.
(٢) المرجع السابق، من النقد والأدب، د. أحمد بدوي ص ٢٣ ـ ٢٤.

والنضر أقرب من أسرت وسيلة ... وأحقهم إن كان عتْقٌ يعتقُ
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشققُ
قسراً يقاد إلى المنية متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق

وفيما يرى أن رسول الله ﷺ قال عندما بلغه هذا الشعر: «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه». . .

ولقد كان من الذين هاجتهم انتصارات المسلمين في بدر وأضرمت نيران الحقد وطلب الثأر في نفوسهم: أبو أسامة معاوية بن زهير حيث يقول:

ولما أن رأيت اقوم خفوا ... وقد زالت نعامتهم لنفر(1)
وإن تركت سراة القوم صرعى ... كأن خيارهم اذباح عتر(2)
وكانت جمة وافَتْ حماما ... ولقينا المنايا يوم بدْرِ(3)
فاقسم بالذي قد كان ربي ... وأنصاب لدى الحجرات مغرِ(4)
لسوف ترون ما حسبي إذا ما ... تبدلت الجلود جلود نمر

وينهض شاعر يهودي قد ملأ قلبه غيظاً وحقداً على محمد ﷺ ودعوته، وقد رأى في موقعة بدر نذير سوء عليه وعلى قومه وعلى دياره في يثرب وما حولها فيذهب إلى مكة مستنهضاً قريشاً مستثيراً رجالها وليأخذوا بثارات قتلاهم في بدر فيقول:

طحنت رحى بدر لمصرع أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمعُ
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرعُ
نُبِّئْتُ إن الحارث بن هشامهم ... في الناس يبني الصالحات ويجمعُ
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمي على الحسب الكريم الأروعُ

---

(١) زالت نعامتهم: ذهبت نفوسهم.
(٢) عتر: صنم.
(٣) الجمة: الجماعة من الناس.
(٤) مغر: جمع أمغر، يعني: أحمر.

ومهما كان القوم من جانب شعراء المسلمين، أو شعراء المشركين فقد كان لواء الشعر معقوداً على حسان، حيث كان يضرب بشعره في مقاتل قريش، ويحشد كل إمكانياته البيانية في إطار إيمانه المنيع العميق وحبه للرسول ﷺ، وكان مما قاله كذلك في هجاء قريش والتهكم بهم بعد بدر:

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم ... وماء بدر زعمتم غير مورود
ثم وردنا ولم نسمع لقولكم ... حتى شربنا رواء غير تصدير

ويتعرض حسان لقريش ولأبي سفيان بصفة خاصة، وقد عادى النبي ﷺ عداءً شديداً، وهجاه وسخر من دعوته فيقول حسان:

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولست له بكفءٍ ... فشركما لخيركما الفداء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وفاء

وإذا كان حسان لم يكن وحده الذي يصور أحداث المعارك بين المسلمين والمشركين، وإنما شاركه في ذلك أيضاً كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، غير أن حساناً كان قد فاقهما في كثرة النظم، وكثرة ما أجاد أيضاً، حتى علت منزلته واحتل من قلب الرسول ﷺ المكانة الأولى بين الشعراء.

وكنا قد وقفنا من قبل على بعض أشعار كعب بن مالك في تسجيل بعض الأحداث في غزوة بدر...

أما عبدالله بن رواحة فقد أسهم بدوره بقدر لا بأس به في معركة الإيمان ضد الشرك، وكان يضفي على الرسول ﷺ من رائق القول ما ينم عن إحساس صادق ويقين خالص، وكان مما قاله في وداع النبي ﷺ حين خرج إلى غزوة مؤتة:

فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرا كالذي نصروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدرُ

ولكن يبدو أن حساناً كان قد غطى كل أحداث عصر الرسول ﷺ بشعره، بجانب ما نظم من مناقضات يرد بها على شعراء المشركين، كما فعل في ردِّه على ابن الزبعرى أو الأعشى بن زرارة التيمي حليف بني نوفل بن عبد مناف، فقد كان كلاهما يبكي على بدر، ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش، ومن هذه المناقضات والقصائد التي قالها حسان:

ابـك بـكت عـينـاك ثـم تبـادرت بـدم تـعـل غـروبـهـا سـجـام

ومنها:

خـابت بنـو أسـد وآب عـزيـزهم يـوم الـقـليـب بـسـوءة وفـضـوح

ومنها:

جمحت بنـو جمح لشقـوة جـدهم إن الـذلـيـل مـوكـل بـذلـيـلِ

وإلى غير ذلك من القصائد والمناقضات التي سجل بها حسان أخبار غزوة بدر. أما في أحد، فنراه يؤدي دوره كما أداه في بدر، فهو يرد على المشركين حين أخذتهم الحمية في هذه الغزوة بعد أن قدر لهم فيها النصر، وكانت مهمة حسان فيها لذلك أشق، ولأنه مطالب بأن يقلل من نشوة المشركين بالنصر، وأن يؤكد ـ في هذه الظروف ـ أن الغلبة للمسلمين، فهو يرد على أبي سفيان بن حرب افتخاره بأبياته التي أولها:

ذكـرت القروم الصيـد من آل هاشم ولـسـت لـزور قـتـله بـمـصـيـب

كذلك يعيِّر قريشاً بأن أعطت لواءها لعبد حبشي يُسمَّى (صؤاب) وهو في كل ذلك يسجل المعركة بتفاصيلها وبقتلاها وشهدائها، فنراه يقول:

فـخـرتـم بـالـلواء وشـر فـخـر لـواء حـيـن رد إلـى صـؤاب
جـعـلتـم فـخـركـم فـيـه بـعـبـدٍ وألأمِ مـن يـطا عـفـر الـتـراب

وها هوذا يهجو عتبة بن أبي وقاص لأنه رمى رسول الله ﷺ في أُحُد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ﷺ، فيسجل حسان هذه الحادثة في هجائه فيقول:

فأخزاك ربي يا عتب بن مالك ... ولقاك قبل الموت إحدى الصواعقِ
بسطت يمينا للنبي تعمداً ... فأدميت فاه، قطعت بالبوارقِ

وتتكرر الصورة ـ والحرب سجال ـ وحسان يرد على المشركين ويمدح الرسول ﷺ ويفخر بالمسلمين، ويؤدي دوره في كل ذلك خير أداء، فهو مراسل حربي، يسجل الأخبار، وهو صحيفة يومية ينشر هذه الأخبار ويلوّنها بما يتفق وهدف المسلمين(١).

إلى أن كان الفتح الأكبر، وهو الذي استعد له كل شعراء المسلمين حتى لا تفوتهم فرصة المشاركة فيه ـ فتح مكة:

فشارك حسان بشعره منذ أول هذه الغزوة استعدادا لها، فقد أخذ يحرض الأنصار على الفتح، ويذكرهم بما فعلت بهم قريش:

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة ... رجال بني كعب تحز رقابها
بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم ... وقتلى كثير لم تُجَنَّ ثيابها
ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي ... سهيل بن عمرو وَخْزُها وعقابها

إلى أن يقول:

ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا ... لها وقعةٌ بالموت يفتح بابها

ثم يتمُّ فتح مكة، ويدخل الجيش الإسلامي وعلى رأسه قائده محمد ﷺ، فيعلن حسان انتصار الإسلام، وانتصار الأنصار، بقصيدته التي عرف بها ومطلعها:

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

وفيها تلك المقدمة التي استنكرها المسلمون بسبب ما ذكر فيها من وصفه للخمر وشربها، ولكن علَّل ذلك النقادُ بأنها من نظمه في الجاهلية وأكملها في الإسلام(٢).

---

(١) راجع: حسان بن ثابت شاعر الرسول، ص ١٦١، د. سيد حنفي حسين.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٤.

ومن هذه القصيدة يقول حسان:

عدمنا خيلنا إن تروها ... تثير النقع موعدها كداءُ
ينازعن الأسنة مصغيات ... على أكتافها الإسلُ الظماءُ
تظل جيادنا متمطِّراتٍ ... يلطمهن بالخمر والنساءُ
فأما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاءُ

وتتوالى الأحداث، وحسان يشارك فيها بشعره كما شارك قبل ذلك وهو في كل مرة يسجل الحدث، معبِّراً عن شعوره إزاءه، وشعور سائر المسلمين.

ثم يأتي يوم يقبض الرسول ﷺ فيه، وتصعد روحه إلى الملأ الأعلى، فيبكيه حسان، لا كما يبكيه كل المسلمين، ولكن كما يبكيه شاعر رافق الرسول في أجلّ فترات حياته، وشارك في كل حدث مرَّ به، ﷺ، بقلبه ولسانه، وأحس بمشاعر المسلمين وعواطفهم تجاهه، فكان بكاؤه تسجيلاً لهذا الحدث الجلل، وتعبيراً عن أحزان أمة أسسها رسول الله ﷺ برسالته وإرشاده وقدوته، وكانت أهم قصيدة رثى بها حسان رسول الله ﷺ، تلك التي مطلعها:

بطيبة رسم للرسول ومعهدُ ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمدُ[1]

هذا هو حسان بن ثابت، الذي يمكن أن نلمس في شعره ـ وبعض شعر صحابه الذي تمثلنا به ـ روحاً جديدة، وسمة من الإيمان العميق بالذين اقتنعوا به فاعتنقوه، متخلين بذلك عن الأسلوب الذي تعوَّدُوا أن يلتزموه في الجاهلية. ومن هنا جاء الشاعر أغزر معنى وأقل أسلوباً، وربما يكون حسان نفسه قد أحسَّ ذلك، ومن ثَمَّ كان يعمد بين الحين والحين إلى الأسلوب الجزل الذي كان يطرب هو نفسه له وتطرب لسماعه الآذان، ومن أمثلة ذلك قوله في قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق، وكان الأول قد شبب بنساء المسلمين، وألَّب قريشاً على الرسول ﷺ، وكان الثاني قد حزَّب الأحزاب ضد المسلمين.

---

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول، ص ١٦٥.

قال حسان:

لله در عصابة لاقيتهم ... يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرفِ
يسرون بالبيض الخفافِ إليكم ... مرحا كأسد في عرين معرفِ
حتى أتوكم في محل بلادكم ... فسقوكم حتفا ببيضٍ ذففِ
مستنصرين لنصر دين نبيهم ... مستغربين لكل أمر مجحف

وكان حسان يحن إلى هذا اللون من الشعر الجزل المتسم بالفحولة الذي تعود أن يقوله في الجاهلية كلما كانت المناسبة عظيمة، وأي مناسبة أعظم من فتح مكة، ذلك الحادث الذي هزَّ أعطاف الزمان ما عاش رواة التاريخ، ففي معركة فتح مكة انتصار للمؤمنين على عبدة الأوثان وتوكيد وتثبيت للرسالة السماوية، واسترداد للبيت العتيق، وتغلُّب على معدن الكيد للرسول ولرسالته في شخص قريش، ولذلك فقد أطلق حسان لشاعريته العنان، فرجْعت به في تحليقها إلى نمط الأسلوب الجاهلي لفظاً واصطلاحاً[1] فقال:

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاءُ
ديار من بني الحسحاس قفر ... تعفيها الروامس والسماءُ
وكانت لا يزال بها أنيس ... خلال مروجها نعم وشاءُ
عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداءُ
ينازعن الأعنة مصغيات ... على أكتافِها الأسل الظماءُ

والقصيدة طويلة موسومة بالفحولة، ولم يتحرج الشاعر فيها من ذكر الخمر إرضاء لشيطان شعره الأصيل، مشيراً إلى الأماكن الغسانية التي تتصل بطرف من حياته القديمة قبل الإسلام في ظل الغساسنة ملوك الشام.

لقد كان شعر حسان وصحابه من شعراء الرسول ـ وخاصة في تلك الفترة وهذه الظروف، حيث كانت المناقضات والمناظرات، وحيث كان

(١) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص٦٢، د. مصطفى الشكعة.

الدفاع عن الإسلام ورسوله ـ فكان شعر حسان وصحبه إذن جامعاً بين فحولة شعر الجاهلية وبين المعاني الإسلامية، فإذا كان حسان جاهلياً في قصيدته الهمزية السابقة، ورغم أنها قيلت في أعز مناسبة إسلامية أراد أن يخلدها بكل إمكانياته ومواهبه، فأطلق لشاعريته العنان بغير تحرُّر، فإنه هو نفسه القائل في رثاء حمزة بعد أن قتل في موقعة أُحُد، موازناً بين مثواه في جنة الخلد، ومثوى الهالكين من قريش في القار، مركِّزاً على المعاني الإسلامية:

وإن جنان الخلد منزلة بها وأمر الذي يقضي الأمور سريعُ
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميم معا في جوفها وصريعُ

ويمكن القول بأن الشعر على ألسنة الشعراء المنافحين عن العقيدة كحسان وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك، كان مكسوًّا ثوب الإيمان ملتزما المعاني الإسلامية، طالما كان في التزامها مزيد من القوة للدفاع عن الدعوة، جانحاً عنها إلى أسلوب الشعر الجاهلي متى كان في ذلك فائدة للدعوة أيضاً[١]، وبعبارة أخرى، كان الشعر يلتزم المعاني التي تؤذي نفوس قريش بالحديث عن الأنساب والوقائع والأيام والمآثر، وهو السلاح الذي ينفع مع قريش، ذلك أنها لم تكن تحفل بوصمها بالشرك والكفر وعبادة الأوثان، لأن ذلك كان مصدراً لفخرهم والاعتزاز بدين آبائهم، فكان طبيعياً أن يهجوهم حسان وكعب بما يعدونه حقا هجاء[٢].

ولعله من أهم الملاحظات في هذا الشعر الإسلامي ـ في إطاره العام ـ أنه شعر مقطوعات، وليس شعر قصائد، وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع الشاعر إلى موضوعه مباشرة دون تقديم، وكانت الظروف التي

---

(١) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب، والأدب في موكب الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة.

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص ١٦، د. شوقي ضيف، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، ص ٦٣.

يعيشها المسلمون ـ وخاصة الشعراء منهم ـ تقتضي أن يكون شعرهم سريعاً في مقاومة المشركين حتى يردوهم مخذولين.

ومن هنا كانت الأحداث التي تمضي سراعاً لا تدع للشاعر فرصة أن يتأمل ويفكر لينظم، وإنما كانت تلح عليه إلحاحاً من أجل أن يلاحقها بنفس سرعتها، ومع ذلك لم يخل هذا الشعر الإسلامي من روعة وجودة وإتقان.

الباب الثالث

الإعلام في الأدب الاسلامي

للدكتور عبد العزيز شرف

القرآن الكريم ونظرية الاتصال الأدبي

بسم الله الرحمن الرحيم.. ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١).

بهذه الآيات الكريمة افتتحت الدعوة المحمدية، أو الرسالة الإسلامية التي حملها الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم محمد بن عبدالله ﷺ، وكلفه بتبليغها للناس كافة والإعلام عن الدين الحق والإله الواحد الذي لا شريك له ولا ولد.

وكان ذلك في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(٢).

وكان رسول الله ﷺ قد خرج إلى غار حراء كعادته في تلك الفترة التي كان يعتزل الناس فيها، ويقضي الليالي ذوات العدد، متعبداً، متحنثاً،

(١) سورة العلق.

(٢) سورة القدر.

متأملاً. . في الكون مناجياً من كونه سبحانه وتعالى. ففاجأه جبريل عليه السلام بأمر الله جل جلاله ـ قال رسول الله ﷺ: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب. . فقال: «اقرأ. قلت: ما أقرأ. قال: فغتّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ. فغتّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أقرأ. فغتّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿اقرأ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَم * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَم * عَلَّمَ ٱلإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾. قال: فقرأتها ثم انتهى، فانصرف عني، وهببت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاب».

قال رسول الله ﷺ: «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء انظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

قال ﷺ: «فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. . . فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني».

وقد أجمع المفسرون على أن قوله تعالى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي اقرأ مبتدئاً باسم ربك و﴿اقرَأْ وَرَبُّك الأَكْرَم﴾ أي الذي لا يداني كرمه كرماً مهما كان، و﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمْ﴾ أرشد ووفق إلى الكتابة به، وفي هذا تنبيه على فضل علم الكتابة، فما دونت العلوم ولا ضبطت كتب الله تعالى المنزلة إلا بالكتابة، ولولاها لما استقامت أمور الدين والدنيا و﴿عَلَّمَ ٱلإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ أي علمه ما لم يكن يعلم، أو عرفه ما لا يستطيع معرفته بقواه البشرية المحدودة.

وإن من ينظر إلى الكهرباء واللاسلكي والصواريخ الموجهة والطائرات التي تخترق حاجز الصوت والإذاعات المرئية والمسموعة والأقمار الصناعية ورحلات الفضاء وكل وسائل الاتصال وغيرها في الصناعات والمعلومات والتكنولوجيا الحديثة، يعلم حق العلم أن العقل البشري مهما سما وارتفع وتوغل في دنيا العلوم فهو عاجز قاصر لا يستطيع أن يحقق شيئاً من المعرفة بغير إلْهام وتعليم من العليم الخبير عز وجل.

ولا شك أن افتتاح الرسالة المحمدية بكلمة «اقرأ» يعني التأكيد على اقتران العلم بالدين وارتباطه بالدعوة والاتصال، وبيان أن العلم أساس للحقائق الكونية كلها، وأن العلم بالله أو معرفة الله سبحانه وتعالى هي رأس جميع الحقائق الكونية.. إن الله يأمر بالقراءة التي هي أهم وسائل العلم وأولها، وقد كرر الأمر بالقراءة مرتين، وذكر العلم ثلاث مرات، وذكر القلم مرة في هذه السورة، ثم ذكره بعد ذلك عندما أقسم سبحانه قائلا ﴿ن وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون﴾[١].

والعلم في الإسلام من وسائل تثبيت الإيمان، والعلماء هم أعرف الناس بالله وأكثرهم خشية له جل جلاله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾[٢]، وللعلماء عند الله مكانة لا يرقى إليها غيرهم، فهو سبحانه يقول ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ﴾[٣]،ولقد أمر الله رسوله الكريم أن يلجأ إليه داعياً أن يزيده علماً فقال ﴿وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْماً﴾[٤]، والآيات القرآنية في فضل العلم وفي الحض على التعليم وفي تقدير العلماء كثيرة.

والعلم الذي يدعو إليه الإسلام ليس قاصراً على الدين وحده، وإنما هو

---

(١) سورة القلم، الآية الأولى.
(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨.
(٤) سورة طه، الآية ١١٤.

العلم بمعناه الواسع. والله سبحانه وتعالى يدعونا إلى التأمل في خلق السموات والأرض، وفيما سخره لنا من بحار وأنهار وجبال وسهول ووديان وأنعام وغيرها.. وهو يقول عز من قائل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمواتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه إنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وهكذا اقترن الإسلام بالعلم منذ تلك الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم على محمد رسول الله ﷺ.

والثابت أن العرب كانوا في جاهليتهم أُميين أي بلا كتاب، ولم يكن فيهم من يعرف الكتابة إلا قلة قليلة لعلها كانت ممن تسلسل من ولد إسماعيل عليه السلام. وقد وردت في القرآن كلمة الأُمي والأُميين ووصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالنبي الأمي، وقد وردت في سورة مكية ومدنية. ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلأُمِّيَّ الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُم فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾(٢)؛ وفي البقرة قوله عز شأنه ﴿وَمِنْهُم أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(٣)؛ وفي آل عمران قال جل جلاله ﴿... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلأُمِّيينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

ولعل هذا ما جعل بعض العلماء يقولون إن الأميين مَنْ لا كتاب لهم من الناس، ومن هؤلاء العلماء الطبري الذي فسر الآية ١٩ من آل عمران ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلأُمِّيينَ أَأَسْلَمْتُم فَقَد ٱهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ بأن قال: «المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يقول: يا محمد، قل للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والأميين الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب أأسلمتم ...».

---

(١) سورة الجاثية، الآية ١٣.
(٢) الآية ١٥٦.
(٣) الآية ٧٧.
(٤) الآية ٧٥.

وهنا تفسير آخر يقول سُمي بـ«الأُميّ» لأنه من أمة العرب التي لم تكن تكتب أو تقرأ، وقد بعثه الله بالحق رسولا وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة وهذه إحدى المعجزات، لأنه ﷺ تلا القرآن على قومه كما أنزل عليه فلم يغير ولم يبدل لفظاً أو حرفاً وفي ذلك يقول العلي القدير: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(1).

وقال القرطبي ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ الضمير في قبله عائد إلى الكتاب أي القرآن المنزل على محمد ﷺ - أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله ولا تختلف إلى أهل الكتاب - بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك. فلو كنت ممن يقرأ كتاباً ويخط حروفاً لارتاب المبطلون أي أهل الكتاب - وكان لهم في ارتيابهم متعلق - وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أُمي لا يكتب ولا يقرأ - قال مجاهد: «كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ. . . فنزلت هذه الآية». ولا شك أن نزولها دليل على نبوة محمد ﷺ لقريش لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ومع ذلك فقد جاءهم بأخبار الأنبياء والأمم والأحداث التي وقعت في الأيام الموغلة في جوف الزمن.

وقد تعرَّض الجاحظ لهذا الموضع أيضاً فقال مقالاً عن كلام شيخ من البصريين «أن الله إنما جعل نبيه أميا لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب، ولا يقرض الشعر ولا يتكلَّف الخطابة ولا يتعمد البلاغة، لينفرد سبحانه بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ويقصره على معرفة مصالح الدين، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر والبشر، ومن العلم بالأنواء وبالخيل وبالأنساب وبالأخبار، وتكلُّف قول الأشعار، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم وتكلَّم بالكلام كان ذلك أدلَّ على أنه من الله.

«ورغم أن الله تعالى لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظا من الحاسب والكاتب، ومن الخطيب الناسب، ولكن ليجعله

(1) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

نبيًّا، وليتولى من تعليمه ما هو أزكى وأنمى، فإنما نقصه ليزيده، ومنعه ليعطيه، وحجبه عن القبائل ليجلي له الكثير». .

وقد ردَّ الجاحظ على كلامه هذا بقوله: «وقد أخطأ هذا الشيخ وإن كان لم يرد إلا الخير ـ وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ـ ولو زعم أن أداة الحساب والكفاية وأداة قرض الشعر ورواية جميع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة، ولكنه ﷺ صرف عن تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أذكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء، وأنسب من كل ناسب وأقوف من كل قائف، ولو كان في ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب ومتفرس ناسب، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة. . وما كان ذلك بمانع من وجوب تصديقه ولزوم طاعته والانقياد لأمره، على سخطهم ورضاهم ومكروههم ومحبوبهم، ولكنه أراد ألا يكون متعلقاً عما دعي إليه حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق، وليكون ذلك أخف في المؤونة وأسهل في المحنة، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون عليها».

وحديث الجاحظ هذا يذكرنا بالآية الكريمة ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إنْ هُوَ إلا ذِكْر وَقُرْآن كَرِيم﴾[1]. كما يذكرنا بحادثتين وقعتا لرسول الله ﷺ وهو فتى يرعى الغنم، وكان مع زميل له، فحدثته نفسه يوماً أن يلهو كما يلهو الفتيان، فأفضى إلى زميله بذلك ذات مساء وطلب منه أن يقوم على حراسة أغنامه، لكنه ما أن بلغ أعالي مكة حتى استرعى انتباهه حفل زواج، فوقف عنده ثم ما لبث أن غلبه النوم، ونزل مكة ليلة أخرى لهذه الغاية فامتلأت آذانه بأصوات موسيقية عذبة كأنما هي موسيقى السماء، فجلس يستمع ثم غلبه النوم حتى الصباح.

---

(١) سورة يس، الآية ٦٨

وماذا عسى أن يكون الشعر والنثر والموسيقى وكل المغريات بالنسبة لرجل أعده الله سبحانه وتعالى ليكون الإعلامي الأمثل، والداعية الأول إلى دينه الحق؟ نعم لقد عصمه الله وصرف اهتمامه إلى ما هو أهم وأعظم إلى الرسالة التي أعده لحملها والقيام بتبعاتها.

وإذا كان القرآن الكريم قد بدأ بلفظ «اقرأ» فإن ذلك لدليل على حكمة بالغة الأهمية تهدف إلى حض الناس على التعليم والتثقيف والاستشارة، فالقراءة تفتح أمام الجاهل صفحات جديدة للحياة الكريمة وتأخذ بيده إلى الحقائق، بل تصل به إلى جوهر القيم وتضعه على المسار الصحيح، أو بعبارة أخرى تضع له المنهج السليم، والمنهج السليم الذي وضعه الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم هو جانب من جوانب الإعجاز الإعلامي في القرآن الكريم، ذلك الذي يحدد معالم نظرية إعلامية متكاملة تتضمن علم النبوة أو علم الرسائل الإلهية، كما تتضمن علم المعجزات وتشييد المجتمع الإسلامي على الصورة التي يريدها الله، فإنها تتضمن عدداً من العناصر الاتصالية المتكاملة المتصلة الحلقات اعتماداً على نظرية الوحي، حيث يوحى إلى الرسول ﷺ من عند الله فيقوم الرسول بالتبليغ والإعلام، والرسالة القرآنية تعتمد على أسس وضعها الله سبحانه وتعالى في نفوس الجماهير الذين يتلقون هذه الرسالة.

فالعنصر الأول: وهو الوحي، أشار إليه القرآن الكريم في أكثر من موضوع، فقال تعالى ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ**﴾(١). وقال سبحانه: ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ**﴾(٢)، وقال عز من قائل: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**﴾(٣)، وقال جل جلاله: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ**

---

(١) سورة النساء، الآية ١٦٣.
(٢) سورة يونس، الآية ٢.
(٣) سورة يوسف، الآية ٣.

بِأَمْرِهِم هَـذَا وَهُم لاَ يَشْعُرُون﴾(١)، ﴿كَـذَلِكَ أَرْسَلْنَـاكَ فِي أُمةٍ قَـدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَـا أُمَم لِتَتْلُو عَلَيْهِم آلـذِي أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ وَهُم يَكْفُـرُون بـالْـرَحْمَن﴾(٢)، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ آلْكِتَابِ هُوَ آلحَق مُصَدقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(٣)، ﴿ذَلِـكَ مِن أَنْبَاءِ آلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْك﴾،(٤)، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَـا بَشَرٌ مِثْلكُم يُـوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهكُم إِلـهٌ وَاحِد﴾(٥)، ﴿وَأَنَـا اخْتَرْتُـكَ فَاسْتَمِـع لِمَا يُـوحَى﴾(٦)، ﴿قُلْ إِنَّمَـا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهكُم إِلـهٌ وَاحِد فَهَـل أَنْتُم مُسْلِمُون﴾(٧)، ﴿وَاتَّبِـع مَا يُـوحَى إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ إِن آللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُون خَبِيـرا﴾(٨)، ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمـا أَنَـا نَذِيـرٌ مُبِين﴾(٩)، ﴿قُلْ إِنَّمَـا أَنَـا بَشَـرٌ مِثْلكُم يُـوحَى إِلَيَّ أَنَّمـا إِلَهكُم إِلـه وَاحِد﴾(١٠)، ﴿أَن اتَّبِعَ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِين﴾(١١)، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(١٢).

وكل هذه الآيات الكريمة تؤكد أن عنصـر الوحي في النـظرية القـرآنية للإعلام هو العنصر المعجز، لأن ما يُوحي به الله سبحـانه وتعـالى لا يمكن أن يأتي به بشر، ومن هنا كانت معجزة محمـد عليه الصـلاة والسلام تختلف عن معجزات الأنبياء السابقين، فإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم كانت معجزاتهم معجـزات حسية تـراها العين وتسمعهـا الأذن وتلمسها الأيـدي، ولكن معجزة

---

(١) سورة يوسف، الآية ١٥.
(٢) سورة الرعد، الآية ٣٠.
(٣) سورة فاطر، الآية ٣١.
(٤) سورة آل عمران، الآية ٤٤.
(٥) سورة الكهف، الآية ١١٠.
(٦) سورة طه، الآية ١٣.
(٧) سورة الأنبياء، الآية ١٠٨.
(٨) سورة الأحزاب، الآية ٢.
(٩) سورة ص، الآية ٧٠.
(١٠) سورة فصلت، الآية ٦.
(١١) سورة الأحقاف، الآية ٩.
(١٢) سورة النجم، الآية ٤.

محمد عليه الصلاة والسلام كانت معجزة عقلية تعتمد على التأمل ومخاطبة العقل ـ ولله سبحانه وتعالى في ذلك حكمة ـ فالبشرية في عهودها الأولى كانت في مراحلها البدائية التي تحتاج في الإقناع إلى الوسائل الملموسة، في حين أنها في عهد محمد ﷺ كانت قد بلغت درجة من الرقي العقلي واللغوي تجعلها في حاجة إلى معجزة عقلية وبلاغية تبهر عقولهم، وتكسف شمس بلاغتهم، وقد أرسل الله إليهم القرآن الكريم معجزة في اللغة والعقل متحدياً الأجيال كلها أن يأتوا بمثله ﴿قُل لَئِن اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا ٱلقُرْآن لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْض ظَهِيراً﴾(١).

ومَنْ يدرس القرآن الكريم يجد، حجة الله سبحانه على خلقه، وحجة النبي في رسالته، ومرجع الشريعة المحكم في بيانه، والفيصل عند الاختلاف، والنهج السليم عندما تلتوي الطريق، والسراج المنير عندما يطبق الظلام.

حدّث الترمذي بسنده عن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم». فقلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله تبارك وتعالى.. فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْد﴾(٢) من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»...

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٧.

(٢) سورة الجن، الآية ٢.

وفي معنى هذا الحديث الشريف رُوي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم. . إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمة مَنْ تمسَّك به ونجاة مَنِ اتبعه. لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستوعب، ولا تنقضي عجائبه. فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات».

ومن الإعجاز الإعلامي في القرآن الكريم نزوله منجماً على مدى السنوات الثلاث والعشرين التي هي مدة الرسالة المحمدية. فقد نزل على فترات غير محددة الأوقات، ولم ينزل دفعة واحدة كما نزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام، وكما نزل الزبور على داود عليه السلام. وقد تساءل القريشيون عن السبب في هذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[1]. وهذا الرد الإلهي قد تضمن ثلاث إجابات[2] تفسر السبب في نزوله منجما: **أولها**، تثبيت فؤاد الرسول بموالاة الواحي بالقرآن، فإن موالاته فيها أنس للنبي عليه الصلاة والسلام وتثبيت لعزيمته وتأييد مستمر له، فيقوم بحق الدعوة بالجهاد في سبيلها، وإذا كان المرء يستأنس بوليه إذا داوم الاتصال به، فكيف لا يستأنس رسول الله بلقاء الروح الأمين الذي يجيئه بكلام رب العالمين في موالاة مستمرة؟

وثانيها، أن تثبيت الفؤاد بنزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءاً جزءا، ذلك أن هذا القرآن نزل ليحفظ في الأجيال كلها جيلا بعد جيل، وما يحفظ في الصدور لا يعتريه التغيير ولا التبديل، وما يكتب في السطور قد يعتريه المحو والتحريف والتصحيف.

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٢.

(٢) محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى للقرآن، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠، ص ٢٢ وما بعدها.

ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ. . . كان رسول الله ﷺ يحفظ جزءا جزءا، وكان حريصاً على أن يحفظه عند نزوله فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه. وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه في ذلك ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(١).

ونرى من هذا النص حرص النبي ﷺ على أن يحفظ ما يُوحى إليه. . . فيحرك به لسانه متعجلاً الحفظ، فينبهه الله تعالى إلى أنه سبحانه يتولى جمعه والقراءة له، وأنه مبينه وحافظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾(٢).

وثالثها، ترتيل القرآن بتعليم تلاوته، وإن هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريقة ترتيله هي من تعليم الله تعالى، إذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل إليه تعالت قدرته وسمت كلماته وعظم بيانه، فنحن بقراءتنا وترتيلنا إن أحكمنا، إنما نتبع ما عَلَّم اللَّهُ تعالى نبيَّهُ من ترتيل محكم جاء به التنزيل، وأمر به النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(٣).

وما كان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتوافر إذا لم ينزل القرآن منجماً. فلو أنه نزل جملة واحدة ما تمكن النبي عليه السلام من تعليمه لقومه مرتلا وهم حملته إلى الأجيال من بعده.

وهناك سبب آخر يراه الشيخ محمد أبو زهرة لنزول القرآن منجماً نلمسه من حال العرب ومن شؤونهم، ذلك أنهم كانوا أمة أمية والكتابة فيهم ليست رائجة، بل يندر فيهم من يعرفها، وأندر منه مَنْ يتقنها، فما كان في استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا أنزل جملة واحدة، إذ يكون بسُوَره وآياته عسيراً عليهم أن يكتبوه، وإن كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيف والتحريف.

(١) سورة القيامة، الآيات ١٦ - ١٩.
(٢) سورة الحجر، الآية ٩.
(٣) سورة المزمل، الآية ٤.

ونحن نرى أن التفسير الإعلامي لفائدة إنزال القرآن منجما، أنه كان ينزل لمناسبات وأحداث، فيكون في هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه، والمبين الأول هو النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وقد اهتمت الآيات المكية ـ وهي التي نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ـ بالعقيدة، وركزت على عبادة التوحيد باعتبارها العبادة الحقة، ودعت إلى الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ولد، ثم بينت ضلال الشرك وإثم الكفر وما حاق بالمشركين والكافرين من مختلف العصور من عذابٍ أليم مرير. وروت قصص الأنبياء وأخبار الأمم الغابرة، ثم حذرت من المحرمات.

أما الآيات المدنية، فيمكن القول إنها في مجموعها تشريع شامل كامل لم يترك صغيرة ولا كبيرة للدولة الإسلامية المثالية كما يريدها الله سبحانه وتعالى للبشر. فقد نظمت فيها العلاقات بين الناس، وشرعت لهم النظم والقوانين التي تضمن لهم الحياة الكريمة المتعاونة، وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق داخل الدولة. كما وضعت أسس العلاقات الدولية ونظم الحرب، وروعيت فيها حقوق الإنسان حتى العدو في ساحة القتال وبعده، وأحسن مثل على هذا ما جاءت به الآيات الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون * وَأَوفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا ٱلأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُم اللَّهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُون * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِي نَقَضَت غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُم دَخَلاً بَيْنَكُم أَن تَكُون أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّة إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون﴾(٢).

---

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.

(٢) سورة النحل، الآيات ٩٠ ـ ٩٢.

ولقد أحصى القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن الكريم السور المدنية فقال عن قتادة: «نزل بالمدينة من القرآن... البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبي لم تحرم إلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله، أما بقية القرآن فقد نزلت سوره بمكة في مرحلتي السر والعلن».

ولا ندري لماذا جعل سورة النحل من السور المدنية مع أنها نزلت في مكة كما تقول المصاحف التي بين أيدينا؟ والمتتبع لأسباب نزول الآيات القرآنية يرى أن كلا منها قد نزل لسبب قوي كان يحتم نزول الآية بذاتها، من ذلك مثلا قصة المجادلة خولة بنت ثعلب الخزرجية وزوجها أوس بن الصامت التي نزلت الآيات فيها تقول: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِن نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِم إِنْ أُمَّهَاتُهُم إلا ٱللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُم لَيَقُولُونَ مُنْكَرا مِنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً وإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُور * وَٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِم ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُم تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِع فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مُسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيم﴾[1].

وكان أوس قد حرم زوجته خولة عليه كما حرمت عليه أمه إذ قال لها: «أنت علي كظهر أمي»، وكان الظهار من أشد طلاق الجاهلية لأنه في التحريم أوكد، وفي قطع الصلة أبين، فأسقط في يد خولة وحارت في أمرها، وعز عليها أن تنفصل عن أوس وهو زوجها الحبيب إليها وأبو أولادها، فذهبت إلى الرسول ﷺ تستنجد به ليجد لها مخرجاً.

(١) سورة المجادلة، الآيات ١ - ٤.

وانتظر الرسول أن ينزل الوحي بشيء في أمرها ليقضي لها ولكن الوحي تأخر عليه، فأخذت خولة تلح وهي تبكي وحار الرسول الكريم ماذا يفعل أوَ يَقُول لها وهو لم يتلق وحياً بشأنها، فقال لها: ما عندي في أمرك شيء، فعادت خولة إلى الرسول شاكية متوسلة راجية أن يرحم حالها، ففتحت لتوسلاتها أبواب السماء وسمع الله شكاتها فغشي الرسول ما كان يغشاه عند نزول الوحي، ثم نطق لسانه بتلك الآيات الكريمة، وهكذا حلت المشكلة وجعل الله للمسلمين وسيلة يتحللون بها من تلك العادة الجاهلية الذميمة.

محمد عليه الصلاة والسلام وبلاغة الاتصال

والداعية الأول والأمثل في الإسلام هو محمد بن عبدالله ﷺ، الذي اختاره الله وأدَّبه وأعدَّه الإعداد الصالح اللازم للدعوة.. فكان مثلا في الأمانة والشجاعة والصدق وكريم الأخلاق. ويكفي أن الله سبحانه وتعالى وصفه في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(1). لقد كان خلقه القرآن، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرا﴾(2).

ولما كان رسول الله ﷺ قد تخلَّق بالقرآن، فإن أفعاله كانت تفسيراً له، ولما كان قد انفعل بالقرآن فإن نطقه كان تعبيراً عنه، وعلى المسلمين جميعاً خاصة رجال الإعلام والدعاة والمشتغلين بالاتصال الجماهيري في الدول الإسلامية كافة، أن ينسجوا على منواله وأن يسيروا على نهجه قدر استطاعتهم، وأن يحاولوا الوصول إلى القمة الشامخة السامقة التي تربع عليها.

وأول ما اشتهر به رسول الله ﷺ هو الصدق والأمانة حتى لقد سُمِّي بالصادق الأمين.. وحتى أن أعداءه من المشركين كانوا يشهدون له بالإجماع

(1) سورة القلم، الآية ٤.
(2) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

بهذه الصفات، ويذكر أصحاب الأخبار أن أبا سفيان الذي كان من زعماء الشرك في الوقت الذي جرى فيه حديث بينه وبين «هرقل» ملك الروم عن النبي ﷺ، وقد سأله عن نسبه الكريم قال: «إنه من أوسطنا نسباً». ولما سأله عن أخلاقه ﷺ قال: «لولا أني أخشى أن يحفظ عني كذبة في العرب لكذبت، ولكنني أقولها ناصعة إنه الصادق الأمين في القول وفي الفعل».

ولما اختلفت قريش ووصل الخلاف بهم إلى حدِّ التهديد بسفك الدماء، حكَّموا بينهم أول داخل من باب المسجد، فلما دخل محمد بن عبدالله صاحوا جميعاً: «هذا هو الصادق الأمين». وقد استطاع بعقله وحكمته وسداد رأيه أن يفضَّ النزاع.

وكثيراً ما احتكم إليه المتخاصمون من العرب قبل بعثته ﷺ، وقد روى له «الربيع بن خيثم» كان يتحاكم له رسول الله في الجاهلية قبل البعث، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة وحبه للعدل وكونه لا ينطق إلا بالحق، ولقد بلغ من إحساسه ﷺ بالعدل والأمانة أنه قام في مرض الموت وقد بلغ به الإعياء أشده وقال: «أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري، فليقتد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليقتد منه، ومن أخذت منه مالاً فليأخذه مني ولا يَخْشى الشحناء فإنها ليست من شأني، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقًّا إن كان له، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس».

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ينهى عن الظلم ويحض على العدل، وكثيراً ما نبه أصحابه المسلمين إلى العدل وقال: «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». وقال: «مَنْ مشى مع ظالم فقد سعى إلى النار». وقال أيضاً: «لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة إلا إذا رأوا ولم ينكروا». وقال كذلك: «والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرن على الحق أطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

ويقـول القاضي عيـاض في فضل عقـل الرسـول ﷺ وآثاره في الـدعوة الإسلامية: «وإنما وفور عقله وذكاء لبه وقـوة حواسـه وفصاحـة لسانـه واعتدال حركاتـه وحسن شمائله فـلا مريـة أنه كـان أعقل النـاس وأذكاهم، ومَنْ تـأمل تدبيره أمر بواطن الخلق، وظـواهرهـم، وسيـاسة العـامة والخـاصة مـع عجيب شمائله وبديع سيره، فضلاً عما أفـاضه من العلم وقـرره من الشرع دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقـدمت، ولا مطالعـة للكتب منه. . . لم يمتـرِ في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا ما لا يحتـاج إلى تقريـره لتحقُّقه». ولقـد قـال وهـب بن منبه: «قـرأت في أحد وسبعين كتـاباً فـوجـدت في جميعهـا أن النبي ﷺ أرجح النـاس عقلاً وأفضلهم رأياً». وفي رواية أخرى: «فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا».

أما بلاغته ﷺ وبراعته في الاتصال بـالجماهيـر ومقدرتـه على إقناعهم، فقد كانت مثلا يُحتذى في هـذه النواحي أيضـاً، وقد وصف الجـاحظ بلاغتـه فقال: «الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيـه، وجل عن الصفـة ونزه عن التكلـف، استعمـل المبسوط في مـوضـع البسط، والمقصـور في مـوضـع القصر، وهجر الغـريب الوحشي، ورغب عن الهجين السـوقي، فلم ينطق إلا عن ميـراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكـلام حفَّ بالعصمـة وشدَّ بـالتأييـد ويسِّر بالتوفيق، وهـذا الكلام الـذي ألقى الله تعالى المحبـة عليه، وغشَّـاه بالقبـول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإلهام وقلة عـدد الكلام، وهـو مع استغنائه عن إعـادته، وقلة حـاجة السـامع إلى معـاودته، لم تسقط لـه كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يبرز لـه خصم ولا أفحمه خـطيب، بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصيـر، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بمـا يعـرفـه الخصم، ولا يحتـج إلا بـالصـدق، ولا يـطلب الفخـر إلا بـالحق، ولا يستعين بـالخلابـة ولا يستعمل المواربـة، ولا يهمـز ولا يلمـز، ولا يبـطئ ولا يعجـل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لا يسمـع الناس بكـلام قط أتمَّ نفعـاً، ولا أصـدق لفـظاً، ولا أعـدل وزنـاً، ولا أجمـل مـذهبـاً، ولا أكـرم مـطلبـاً،

ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح في معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ».

وقالت عائشة رضي الله عنها في وصف كلامه ﷺ: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد الكلام كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه».

ومما قاله القاضي عياض في وصف بلاغة الرسول وفصاحته ﷺ: «وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يحل سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله تعالى، ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك وتحققه وليس مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد هدف كلامه مع «وطيفة الهندي»، و«قطن بن حارثة العليمي»، و«الأشعث بن قيس» و«وائل بن حجر الكندي» وغيرهم من أقيال «حمير» و«ملوك اليمن»...

ومن الذين وصفوه وصفاً دقيقاً صادقاً «أم معبد» فقد قالت تحدث زوجها عنه: «مرَّ بنا رجل مبارك، ما مسح ضرع الشاة الجاف بيده، حتى تفاجت وردت واشترت، فأتيت له بالإناء فحلب فيه فجة حتى غلبه الثمال، وقد شربت حتى رويت فسقى صاحبيه حتى رويا وشرب هو آخرهم». وقالت في وصف النبي: «هو رجل ظاهر الوضاءة، مبتلج الوجه، حسن الخلق، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي صوته صحل، ليس بالطويل المغط، ولا بالقصير المتردد، ولا بالجعد القطط، ولا السبط، شديد سواد الشعر، في عنقه سطح وفي لحيته كثافة، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب، وإذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر، غصن بين غصنين»... الخ.

وإذا كانت نظريات الإعلام الحديثة تؤكد على ضرورة وجود الثقة كاملة بين المصدر والمتلقي، بل إن النتائج التي وصل إليها الباحثون أخيراً في جامعة «ييل» تشير إلى أن أهم مكونات تصديق المصدر تتلخّص في ثلاثة أشياء هي: النية والخبرة والثقة... فإن هذه الصفات كانت من أسس الدعوة المحمدية قبل هذا بأربعة عشر قرناً من الزمان، فقد كان ﷺ على خلق عظيم حبب الناس فيه وجعلهم يثقون به ثقة كاملة.

وقد قال عن نفسه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقد وجهه الله سبحانه وتعالى إلى أسلوب الدعوة القائمة على الخلق العظيم في قرآنه الحكيم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنْتَ لَهُم وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُم وَٱسْتَغْفِرْ لَهُم وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِين﴾[1].

ولقد أحب الناس محمد بن عبد الله وتآلفوا معه، وأقبلوا على دعوته لما اتصف به من حلم وصبر وصفح وعفو عند المقدرة، وليس أدل على ذلك من قصته مع «غورث بن الحارث» حينما تصدَّى ليفتك برسول الله وهو نائم في ظل شجرة وقت القيلولة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف مصلت على رأسه في يد «غورث» وهو يقول: «مَن يمنعك مني؟». فقال عليه السلام بهدوء وإيمان ولسان صادق: «الله!» فسقط السيف من يد «غورث»، فأخذه النبي ﷺ وقال لغورث: «مَن يمنعك مني؟»، قال غورث: «كن خير آخذ»، فتركه وعفا عنه، فدنا قلب الرجل بعد نفور، وصار داعية لمحمد ﷺ بعد أن كان يريد قتله، وقد ذهب الرجل إلى قومه يحببهم في محمد ﷺ ودينه، فقال لهم: «جئتكم من عند خير الناس»، وهكذا حول عفو رسول الله «غورث» من الشر إلى الخير وجعله من خيرة الدعاة لمحمد ودينه بعد أن كان يريد قتله والقضاء على دينه.

---

(١) سورة آل عمران، الاية ١٥٩.

ولقد كان العفو من الصفات التي جمعت القلوب على حب رسول الله ﷺ، وألفت بين النفوس وجعلت الناس يحبونه إلى درجة جعلتهم على استعداد لفدائه بأرواحهم، ولم يخرج على هذا الإجماع إلا مَنْ ركب الشيطان رأسه فطغى وبغى واستكبر، وآثر الضلال على الهدى.

يقول هند بن هالة ربيب رسول الله ﷺ في وصفه: «وإن من أول صفات محمد بن عبد الله ﷺ أنه يخزن لسانه فلا يظهره إلا لخير يرتجيه. . . فلا يشجع على نفره، بل إنه لا ينطق إلا فيما يعني الذين يخاطبهم ويفيدهم ويكون فيه تأليف لقلوبهم، وتقريب لنفوسهم، وتأنيس غريبهم، ويأمر بإعطاء ذي الحق، ولا يتكلم في مراء، ولا يذم أحداً ولا يكثر في قول خشية سقط اللسان، لا يعيب الحرمات، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يشبع نهمة القول، فإذا تكلم هو كان كلامه فصلا، وكان قوله حكماً».

ومن أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام التي كان لها أثرها الكبير في الدعوة الإسلامية، أنه كان يأتلف مع أصحابه، ويوزع محبته بينهم، وكان متواضعاً، فإذا دخل على جماعة يجلس حيث ينتهي المجلس، وقد حث أصحابه على ذلك، وإن أرشد ففي رفق يكتفي معه بالإشارة، فإن لم يكف كان التعريض، فإن لم يكف كان التنبيه في تعميم، فإذا رأى بعض الناس يسيءُ فلا يواجهه بالإساءة، بل يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟ ومن ذلك ما قاله يوم خرج على الناس بعد قصة الإفك فقال: «أيها الناس. . . ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت منه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي».

ولم يكن ﷺ يذم أحداً مهما كان السبب، بل إنه قد امتنع طول حياته عن الذم إلا أن يضطره الحق اضطراراً فإنه يتكلم بالكناية.

روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة أنها قالت في أخلاق محمد ﷺ: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده

شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما إلا أن يكون إثما، ولا انتقم لنفسه من شيءٍ يؤتى إليه حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله عز وجل»...

وقد وصفه أبو هريرة رضي الله عنه فقال: «كان يقبل جميعاً ويدبر جميعاً ـ بأبي وأمي ـ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخابا في الأسواق»...

ومن هذا الوصف يتضح لنا أنه ﷺ كان يحسن استقبال الناس فيقبل على الواحد منهم إقبالاً كاملاً، وإذا تركه فإنه لا يتركه إلا بعد أن يتم حديثه وينتهي راضياً مستريح النفس؛ وأنه ﷺ لم يكن ينطق فحشاً أو يستعمل ألفاظاً نابية، أو يصخب، أو يغاضب، أو يمازح، أو يجادل في الأسواق والأماكن العامة.

وروى أبو أمامة رضي الله عنه فقال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا فقمنا له، فقال: «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا». وقال: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، أو أجلس كما يجلس العبد».

وفي حديث لعمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم.. إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله». وقال ﷺ: «إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

وقد أجمع الرواة على أنه ﷺ كان متواضعاً في غير ذلة، وكانت له هيبة ترهب الكفار والمشركين وتملأ قلوبهم رعباً وهلعاً.. وهي للمؤمنين رحمة تزيدهم إيماناً به وحبًّا له.

ومما يرويه ابن اسحق أن رجلا من أراش قدم إلى مكة بإبل له، فاشتراها منه أبو الحكم عمرو بن هشام «أبو جهل»، ثم ماطله في الدفع، فأقبل الأراشي حتى وقف بدار الندوة ورسول الله ﷺ بناحية من المسجد جالس فقال الأراشي: يا معشر قريش مَنْ يؤديني على أبي الحكم، فإني رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي؟ فقال له أهل ذلك المجلس:

أتـرى ذلك الـرجل الجـالس؟ ـ وأشاروا إلى رسـول الله وهم يهزؤون بـه لمـا يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة ـ اذهب إليه فإنه يؤديك عليـه. فأقبـل الأراشي على رسول الله وروى له القصة، فقام معه رسول الله ﷺ. فلمـا رأوه قام معه قالوا لرجلٍ ممَّن معهم: اتبعـه فانـظر ماذا يصنـع. وخرج رسـول الله حتى جاء بيت عمرو بن هشام فضرب عليـه بابـه، فقال عمـرو بن هشام: من هذا؟ قال الـرسول: محمـد... فاخـرج إليَّ. فخرج إليـه وما في وجهـه من رائحة قد انتقع لونه. فقال له الرسـول: اعط هذا الـرجل حقـه. قال عمـرو: نعم... لا تبرح حتى أعطيه الذي له. فدخل وعاد بحق الرجل فـدفعه إليـه، ثم انصـرف رسول الله وقـال للأراشي: الحَقْ بشـأنك، فـأقبـل الأراشي حتى وقف على النـدوة وقال: جـزاء الله خيراً فقـد والله أخـذ لي حقي. وجـاء من بعده الرجل الذي بعثوا به معه فسألـوه عما رأى فقـال: عجبا من العجب... والله مـا هو إلا أن ضـرب عليه بـابه فخـرج إليه ومـا معـه روحـه. وروى لهم ما حدث، ثم لم يلبث أن جاء عمرو بن هشام فقالـوا له: ويلك... مـا لك؟ واللات ما رأينا مثل مـا صنعت قط. قال: ويحكم! والـلات ما هـو إلا ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فـوق رأسه لفحـلاً من الإبـل ما رأيت مثـل هامتـه ولا قصارتـه ولا أنيـابـه لفحـل قط.. والـلات لو أبَيْتُ لأكلني.

وتروى لأبي جهل قصة مماثلة، فقـد حاول يـوماً أن يضـرب رسول الله بحجر ضخم أعده لذلك عندما يسجد للصلاة، ولكنه ما كـاد أن يرفـع الحجر ويهم بإلقائه فوق رأس رسول الله ﷺ حتى انتابه الفزع وألقى بالحجر بعيـداً، ثم أسـرع إلى أصحابـه وهو يـرتعد. فسـألوه مـا به فـروى لهم القصة وقـال: «ومـا أن هممت بـإلقـاء الحجـر حتى وجـدت بيني وبين محمـد فحـلاً بشـع الصورة مكشر عن أنيابه يريد أن يلتهمني، فنجوت بنفسي».

ومن الأمـور التي تؤكد مـا كـان لـرسـول الله ﷺ من هيبـة ومهـابـة بين أصحـابه وصف الـواصفين لمجلسه، فقـد أجمعوا على عـظم مهـابتـه وشـدة

وقاره، وسمته وقالوا: «إن مجلسه كان يحفه الوقار، لا يتكلم فيه أحد إلا إذا أذن له الرسول في القول، وإذا صمت عليه السلام صمتوا جميعاً في هدوء واطمئنان».

ولهذا عجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أشد العجب عندما دخل يوماً إلى رسول الله فوجد بعض النسوة يتسابَقْن في سؤاله ويتصايحن عليه، وما كدن يرين عمراً حتى سكتن جميعاً، فابتسم رسول الله ﷺ حتى بدت سنه، فقال عمر: «أضحك الله سنك يا رسول الله. . . ما الذي أضحكك؟» فقال عليه الصلاة والسلام: «هؤلاء النسوة كن يتصايحن علي، فلما رأينك سكتن». فقال عمر: «أي عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟» فقالت إحداهن: «ولكنك أفظ وأغلظ». فأسكتها الرسول وقال نافيا الغلظة عن صاحبه: «لا . . إن الشيطان لا يسير في فج يسير فيه عمر».

ويروي عمرو بن العاص أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت والملأ من قريش جالسون في فنائه، فكلما مر النبي ﷺ غموا بالقول فيبدو ذلك في وجهه. وكرروا ذلك سبعاً حتى أتمَّ الطواف. ثم التفت إليهم وقال لهم في قوة المؤمن وهيبته: «يا معشر قريش شاهت الوجوه! وأرغم الله هذا المعاطس! لقد جئتكم بالذبح». أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فما كان منهم أحد إلا كان يقابله بأحسن القول ويقول: «اذهَبْ أبا القاسم موفورا، ما علمنا عليك شراً قط».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: «دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوزان: «زِنْ وارجح». فوثب التاجر إلى يد النبي يقبلها، فجذب يده، وقال: «هذا ما يفعله الأعاجم بملوكهم ولست بملك. إنما أنا رجل منكم». ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها، فقال ﷺ: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

هكذا كان رسول الله من حيث التواضع والوقار والهيبة وهو على نفس الدرجة من الرحمة والشفقة والرأفة. . وقد وصفه الله سبحانه وتعالى في كتابه

العزيز بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١) وقال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين﴾(٢).

سأله أصحابه يوماً قائلين: «يا رسول الله، أكثرت من ذكر الرحمة.. ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا». فقال ﷺ: «ما هذا أريد... إنما أريد الرحمة بالكافة».

ومما يروى عن رحمته عليه السلام أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه ثم قال له: «أأحسنت إليك؟». قال الأعرابي: «ولا أجملت». فغضب الحاضرون من المسلمين وقاموا إلى الرجل. فأشار الرسول لهم أن كفوا... ثم قام عليه الصلاة والسلام ودخل منزله ثم أرسل إلى الأعرابي وزاد شيئاً، ثم قال: «أأحسنت إليك؟» قال: نعم... فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيراً. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء. فإن أحببت فقل ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك». قال: نعم. فلما كان العشي جاء فقال ﷺ لأصحابه: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي بذلك. قال الأعرابي: نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا. فقال النبي ﷺ: مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلُّوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه لها بين يديها فأخذها من قمام الأرض فردها حتى جاءت إليه واستناخت، وشد عليها رحلها واستوى عليها. وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار.

هذه صورة من صور الرحمة عند رسول الله ﷺ، وهي تبين لنا كيف كان رحيماً مع المسلمين رءوفاً بهم حريصاً على صالحهم، وكيف كان قدوة

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

لهم وأسوة حسنة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوم الآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾[1].

وهناك صور أخرى كثيرة تبيِّن كيف أن الرحمة عند رسول الله ﷺ تنبئ عن حكمة الدعوة والإرشاد والهداية إلى الحق.. تقرب الشارد وتصلحه ولا تعاقبه أو تنفره. وتسوس النفاق وتحوله من الباطل إلى الحق وتضعه على الجادة بدون عنف أو عقاب أو قسوة. وفي ذلك كمال التبليغ للدعوة الإسلامية، وبيان للإعلاميين والدعاة يشرح لهم كيف أن الرحمة وسيلة الوصول إلى النفوس والاستئثار بالقلوب وإقناع العقول.

وتتجلى الرحمة في أرق صورها وألطف مشاهدها بين الرسول وأهل بيته... بينه وبين أولاده وأحفاده. فقد كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلي فيخفف في صلاته ليكون بجوار الطفل مَنْ يرحم بكاءه. وقد روت لنا الكتب أن أحد السبطين كان يركب على ظهره وهو ساجد، فكان عليه السلام يطيل السجود حتى لا يزعجه. ويستمر الطفل مرتحلاً ظهر جده الرؤوف الرحيم حتى يتركه.

وعندما أرسلت إليه ابنته زينب الكبرى لتقول إن ولدها يحتضر، أرسل إليها عليه الصلاة والسلام يقول: إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيءٍ عنده مسمًّى فلنحتسب لنعتبر. فأصرت زينب على أن يحضر وأقسمت عليه. فقام ﷺ ومعه مَنْ بحضرته من الصحابة، فلما رأى الطفل حمله ثم وضعه في حجره ونفس الطفل يخرج، ففاضت عيناه عليه الصلاة والسلام. فقال له سعد بن أبي وقاص «ما هذا يا رسول الله؟» قال: هذه رحمة وضعها الله في قلوب مَنْ شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء»

وكما كان ﷺ رحيماً بالأبناء كان رحيماً بالآباء كذلك، والعلاقة بين الآباء والأبناء في الرسالة المحمدية تأخذ وضعاً سامياً رفيعاً... وقد بلغ من

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

تقدير القرآن لقوة هذه العلاقة أن قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾(١).

ولم يسمح الإسلام للابن بأن يعقَّ أبويه حتى ولو كانا مشركين، ولكنه أباح للابن ألا يطيع أبويه في الشرك دون أن يهدر حقهما عليه، وأن يصاحبهما في الدنيا معروفا.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾(٢).

وقد قدم الرسول ﷺ برَّ الوالدين على الجهاد في سبيل الله. جاء إليه رجل فقال: جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان. فقال ﷺ: ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما.

وجاءه صحابي يسأل الإذن في الجهاد، فسأله الرسول: ألك أبوان؟، قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد. وحدَّث الصحابي معاوية بن جاهمة السلمي، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني كنت أردت الجهاد معك ابتغي وجه الله والدار الآخرة. قال: ويحك أحيَّة أمك؟ قلت: نعم، قال: ارجع فبرها. ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت: يا رسول الله.. إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة. قال: ويحك أحيَّة أمك؟، قلت: نعم يا رسول الله. قال: فارجع إليها فبرها، ثم أتيت من أمامه وأعدت ما قلت... فقال: ويحك الزم رجلها فثمَّ الجنة.

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان ٢٣ و٢٤.

(٢) سورة لقمان، الآيتان ١٤ و١٥.

وعن أبي أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟ قال: هما جنتك ونارك.

وإذا كنا فيما تقدم قد تحدثنا عن الرحمة وصلة الرحم وعن الصلة بينهما وبين مفهوم الاتصال، فإن الإعلام الإسلامي يحرص على أن تكون الرحمة بجميع أشكالها وصورها إحدى وسائله وأساليبه في الاتصال بالجماهير. وكذلك العفو والتسامح وهما صفتان من صفات رسول الله ﷺ، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بهما في قوله الكريم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وأعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾(1). وفي قوله أيضا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(2).

وقال أنس بن مالك: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذاً شديداً حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله فإذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال الأعرابي: يا محمد مُرْ لي من مال الله تعالى الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، ثم أمر له بعطاء.

ولو كان أحد رجالات قريش في مكان رسول الله وقام هذا الأعرابي بهذا العمل معه لضربه فشدخه أو قتله، ولكن سماحة الرسول الكريم أبت أن يفعل ذلك فالتفت إليه وضحك وكأن شيئاً لم يحدث، بل القارئ لهذه القصة قد يرى أن الرسول قد ضحك لكي يخفف من وَقْع هذا التصرف الغليظ على صاحبه وعلى من يشهدون الواقعة.

ورُوي أنه لما كذبت قريش دعوة الإسلام وبالغت في الإساءة إلى النبي وإيذائه، حتى أنه لجأ إلى ثقيف بالطائف يرجو إن يجد النصرة عندهم، فما

---

(1) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

(2) سورة فصلت، الآية ٣٤.

كان منهم إلا أن أغروا سفهاءهم به فطاردوه وضربوه بالحجارة، فاشتكى إلى الله سبحانه وتعالى ما يجد منهم وقال: «اللهمَ إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى مَنْ تكلني؟ ألِى بعيد يتجهمني، أو إلى عدوٍّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: «إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». فناداه ملك الجبال وقال: «مُرْني بما شئت.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». قال النبي ونفسه تقطر رحمة وسماحة: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وعن السماحة والعفو عند رسول الله تحدثنا القصة التالية وقد وقعت يوم الفتح الأبلج - فتح مكة - فقد طلب الرسول الكريم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وأعطاه مفتاح الكعبة وهو يقول: «خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله سبحانه وتعالى استأمنكم على بيته فخذوها بأمانة الله عز وجل». وابتسم الرسول الكريم لعثمان ابتسامة ذات معنى، فأطرق عثمان في خجل وكان لذلك قصة. فقد كان الرسول ﷺ قد قال لعثمان يوماً وهو يدعوه للإسلام: «ولعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت». فقال له عثمان يومها: «قد هلكت قريش وذلّت». فأجابه الرسول الكريم عليه أزكى الصلاة والسلام: «بل عزَّت وعمرت يومئذ يا عثمان».

هكذا عفا رسول الله عن عثمان وسامحه في لحظة كان فيها هو المنتصر الذي بيده أن يمنع ويمنح، وكان فيها يستطيع أن يفعل بعثمان ما يشاء، ولكنه رسول الله ونبيه الكريم الذي جبل على مكارم الأخلاق.

وفي نفس اليوم - يوم الفتح - بعد الخطبة، التفت رسول الله ﷺ إلى

الـذين عادوه وحـاربوه بكـل وحشية وشـراسة ويـذلوا كـل ما في طـاقتهم لكي يقضوا عليه وعلى دعوته، وقال لهم: «ما ترون أني فاعـل بكم؟». قالـوا وهم يـرتعـدون: «خيـرا.. أخ كـريم وابن أخ كـريم. فقـال ﷺ: «اذهبـوا فـأنتم الطلقاء». فذهل القوم وتسابقـوا إلى الدخـول في الإسلام وبـاتت مكة ليلتهـا وقد رفرف عليها الإيمان.

نستخلص من هذه القصص التي تؤكد ما كان عليـه رسول الله من عفـو وسماحة، أن الداعيةالإسلامي يجب أن يطهر نفسه من كل حقد وغـلّ، حتى ولو كان لمقـابلة إساءة قـديمة بمثلهـا، أو الانتقام لمـوقف سبق أن تعرَّض لـه على يد أحد الذين يدعوهم. وأن يطهـر نفسه أيضـاً من الأنانيـة والأثرة، ولن يكون له ذلك إلا الفناء في دعوته، ولقد قالت عـائشة رضي الله عنهـا في هذا المعنى: «إن النبي ﷺ لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح».

ومن الصفات التي زانها رسول الله ﷺ صفة الحياء، وقد قال أبو سعيـد الخـدري رضي الله عنـه: «كـان رسـول الله ﷺ أشـد حيـاء من العـذراء في خدرها». وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء: «كـان النبي ﷺ أشد النـاس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء».

وقد تمثل القاضي عياض بقول الله سبحانـه وتعالى: ﴿وَإِنَّ ذَٰلِكُم كَـانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِي فَيَسْتَحِي مِنْكُم﴾(1)، وقد نزلت هذه الآية لأن بعض أصحابه كانوا يستغلون كرمه الشديد وحياءه الشديد أيضاً، فكانوا يجلسون في بيته فيتناولون الطعام ويأخذون في الحديث مما يؤدي إلى اضطراب في بيته وإقـلاق لراحـة أهله، ولم يكن النبي لفـرط حيائـه يأمـرهم بالكف عن ذلـك أو يـطلب إليهم الخروج، فتولى الله تعـالى ذلك عنـه وعلم المؤمنين الأدب في هذا المقـام، وأعفى رسوله من هذه المهمة التي تجعله يخرج عن طبيعته في الحيـاة، فقال تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَـا ٱلَّـذِينَ آمَنُـوا لَا تَـدْخُلُوا بُيُـوتَ ٱلنَّبِيِّ إلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَـاظِرِينَ إِنَـاه وَلَكِنْ إِذَا دُعِيْتُم فَٱدْخُلُوهَـا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَـٱنْتَشِرُوا وَلَا

(1) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.

﴿مُسْتَـأْنِسِينَ لِحَـدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَـانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُم وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[(١)].

جاء في كتاب الشيخ محمد أبو زهرة سؤال حول صلة الحياة والشمائل النبوية بدعوة الرسول ﷺ وتبليغ الرسالة، وهو سؤال يرتبط بالإعلام الإسلامي بوجه عام:

يقول: «إن خلق الداعي يجذب إلى موضوع الدعوة، فلو كان الداعي فحاشاً، أو صخاباً، أو يغلب عليه أن يلوم وتقرع عباراته، لنفر منه الناس وما استجاب له إلا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة بمقدار ما يهمهم لبها».

وإذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس ويوجهها نحو الحق، فإن الحياء أشد الأخلاق اجتذاباً للنفوس، فإن الحياء يجعل صاحبه لا يفاجئ الناس بما لا يسرهم بل يجيء إليهم من جانب ما يألفون فلا تتشعب عن الحق، وإن عنف الداعي وتفحش قوله يعوق دعوته ويكون استثقاله مؤدِّياً إلى رَدِّه، وإذا كان مع الحياء لين في الطبع من غير ضعف، وقوة في الحق، وصل إليه في مداخل سهلة لينة، ولقد قال في وصفه عليّ بن أبي طالب: «كان أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألْيَنهم عريكة، وأكرمهم عشرة». ولقد كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف والمعشر مع الحياة والاستمساك بالحق مزيجاً من أخلاق كريمة جعله لا يترك التنبيه إلى الحق في رفق، وجعله يصل إلى ما يريد من إيغاله في القلوب.

وقد ذكر ابن عباس صفات رسول الله ﷺ فقال: «كان أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة».

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.

ولقد قالت له خديجة رضي الله عنها: «أبشر يا ابن العم واثبت، فوالله الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هـذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبـداً. . إنك لتصـل الرحم، وتصـدق الحديث، وتحمـل الكـل، وتقـوي الضعيف، وتعين على نوائب الحق».

وقد عرف عن النبي ﷺ أنه ما كان يرد أحدا، وأنه كان يجود بالموجـود كله، وقد ذكر أن رجلا جاءه يسأله حاجة، فقال: «ما عندي شيء، ولكن اتبع عليَّ فإذا جاءنا شيء قضيناه».

ولقـد قال عمـر رضي الله عنه وقـد رأى الرسـول الكـريم يتحمـل ثمن البيعـات ليؤديه إذا لـم يكن معـه، فقال لـه: «ما كلفـك الله تعالى مـا لا تقـدر عليه». فكره عليه الصلاة والسلام من صاحبه ذلك لأنه لا يريد أن يحول أحد بينـه وبين سجيته التي فـطره الله عليها، وقـد لاحظ أنصاري كـان في حضـرة الرسول وصاحبه فقال: «يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقـلالا». فتبسم رسول الله ﷺ، وعرف البشر في وجهه، وقال: «بهذا أمرت».

والمعـروف أنه كـان يأمـر بـلالاً قـائـلاً: «انفق بـلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً». .

ويقـول عليه الصـلاة والسـلام: «مـا من يـوم يصبـح إلا وملكـان يقـول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا».

والمـطلع على السيرة النبـوية يجـد أن من شمائـل الرسـول ﷺ الوفـاء بالعهد ورعايته، وأوضح مثل على ذلك وفاؤه بـأم المؤمنين خديجـة إلى درجة جعلت عائشة رضي الله عنها تغار من كثرة ذكره لهـا وبره لمن كـان على صلة بهـا، فقالت: «هـل كانت إلا عجـوزاً بدَّلـك الله خيـراً منهـا». فقـال: «والله ما أبدلني خيـراً منها. آمنت بي إذ كفـر الناس، وصـدقتني إذ كذبني النـاس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء».

ومن ذلك بره بحليمة السعدية وأولادها، وبره بأم أيمن التي كان يقول عنها: «هي أمي بعد أمي».

ولما كانت الشجاعة إحدى الصفات التي يتحتم وجودها في الداعية بصفة خاصة، ورجل الاتصال بصفة عامة، فإنها كانت في أعظم صورها إحدى صفات الرسول ﷺ. ولم تكن شجاعة حسية فحسب وإنما اجتمعت عنده ﷺ الشجاعة الحسية مقترنة بالشجاعة المعنوية، وسلامة التصرف وسداد الرأي والإقدام حيث يتحتم الإقدام، والمبادرة حيث تكون إحدى الضرورات التي يفرضها الموقف.

وليس أدل على ذلك من تصرفاته قبل البعث حيث كان لا يحفل بأصنام القوم ولا يسجد لها ولا يعترف بها، وهو يعلم خطر ذلك عليه، وأنهم جميعا يفرضون احترامها وتبجيلها. ولم يكن ﷺ يحلف بها، ويُروى أنه في إحدى رحلاته اختلف مع البائع على الثمن، فطلب منه البائع أن يحلف باللات والعزى فرفض.

وعندما اشتد الخلاف بين القبائل القرشية، وأصرت كل واحدة منها أن تستأثر بشرف وضع الحجر الأسود إلى مكانه من جسد الكعبة، واشتعلت الخصومة وتطاير الشرر ينذر باقتراب حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس، وبقيت قريش أربع ليال والخطر يتهددها، وراح الكل يستعد ويعد العدة للقضاء على الآخر، وحاول العقلاء والكبار من رجالات قريش أن يحسموا الأمر قائلين: «إن رفع الحجر لم يكن ضمن الاقتراع عند البناء، وأنه يمكن الاقتراع عليه من جديد». ولكن محاولتهم كلها راحت عبثاً إذ استمر الخلاف واستحكم وبلغ أشده، وجاءت بنو عبد الدار بجفنة مليئة بالدماء وصاح كبيرهم: «يا عبد الدار هذه جفنتنا قد امتلأت بالدماء، فتعالوا وغمسوا أيديكم فيه ولنتعاقد على الموت إن فاتنا شرف وضع الحجر الأسود مكانه». وجاء بنو عبد مناف وقالوا: «لن يفوتنا هذا الشرف، الموت لنا إن فاتنا». وصاح بنو أسد: «ونحن بنو أسد ومعنا بنو عدي نعلن أن هذا الشرف لن يستأثر به

غيرنا إلا بعد أن نكون قد أصبحنا طعاماً تهضمه بطون الوحوش في الجبال».

وهنا تقدم منهم أبو حذيفة المخزومي وقال: «كفى يا معشر قريش. لقد أردنا البر ولم نرد الشر! فلا تحاسدوا ولا تنافسوا فإن فعلتم تشتتت أموركم وطمع فيكم غيركم، حكِّموا بينكم أول من يدخل من هذا الباب فيفصل في خلافكم، فوافقت القبائل كلها على ذلك وتعلقت أعينهم بالباب الذي أشار إليه أبو حذيفة، تترقب الداخل المجهول للحكم بينهم ويفض خلافهم، وإنهم لكذلك إذ يدخل محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فهتفوا جميعاً: «هذا الأمين... هذامحمد بن عبد الله الهاشمي، قد رضينا بحكمه»، وأقبلوا جميعاً عليه وشرحوا له ما كان من أمرهم فطلب ثوباً ثم وضع الحجر بيده الكريمة فيه، وقال ﷺ: «ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل». فكان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة وفي الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود، وفي الربع الثالث العاص بن وائل، وفي الربع الرابع أبو حذيفة المخزومي نفسه. ثم قال ﷺ: «ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعاً». ثم ارتقى ﷺ على الجدار ورفع القوم له الركن، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده الكريمة في مكانه.. وهكذا حلت المشكلة العويصة وحقنت دماء قريش.

قبل رسول الله ﷺ الحكم في هذا الخلاف المستحكم المشتعل بشجاعة، ولم يجفل أو يتردد مع علمه أن هذه القبائل قد جبلت على المشاكسة وحب السيطرة والاستئثار، وأن إرضاءهم جميعاً أمرٌ من الأمور التي تكاد تكون مستحيلة، ولكنه أقدم وحكم بشجاعة، فكان أن وفقه الله وجعلهم جميعاً يرضون عن حكمه.

وبعد أن بعثه الله تعالى بدعوة التوحيد تجلت شجاعته في المجالين ـ المعنوي والحسي ـ في معارك الرأي ومعارك السيف.

عن علي رضي الله عنه قال: «لقد رأيت يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ

وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا»[1].

وعنه أيضاً قـال: «كنا إذا حمي البـأس واحمرت الحـدق اتقينا بـرسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»[2].

وعن سعد بن عياض الشمـالي قال: «كـان رسول الله ﷺ قليـل الكلام قليل الحديث، فلما أمر بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأساً».

وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمـره ثارت حـرب اشتركت فيهـا قريش وهي حرب الفجار، فإذا هو يصحب الجيش المحارب ويقف على خط القتال ويخـوض أول معركـة من المعارك الحـربية، وكـانـوا قـد حـددوا لـه دوره في المعركة وهـو أن ينبل على أعمـامه ـ أي يمـدهم بالنبـال ـ ولكن ما أن بـدأت المعركة وحمي وطيسها حتى جاوز هذه المهمة وأخذ يرمي بالسهام والنبل.

لقـد غلبته شجـاعته ودفعتـه إلى أن يكون مقـاتلا على الـرغم من عوده الأخضر وسنه الصغيرة.

وهو الذي حـدث فيما بعـد بقولـه: «ليس من اللهو محمـود إلا ثلاثـة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله، فإنهن من الحق. . . ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة فإنها نعمة تركها».

وليس من شـك في أن هذه الأمثلة ـ وغيـرها كثيـر ـ للشجاعـة النـادرة تتيح صاحبها أن يبلغ الدعوة وأن يؤدي الرسالة غير هياب ولا وجل ولا متردد.

ولقد فرض الجهاد في الإسلام بهدف تبليغ الدعوة، وكان ذلك بعـد أن حاول الرسول بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد أن جادلهم بالتي هي أحسن ولم يبق إلا أن يستعمل السيف.

---

(١)، (٢) الحافظ أبو محمد عبدالله لأصبهاني المتوفى سنة ٣٦٩ هـ، كتاب أخلاق النبي ﷺ وآدابه (مخطوط) حققه: حسن محمد مرسي وراجعه محمد عبدالرحمن عثمان، القاهرة، مؤسسة الأهرام، ١٤٠١ هـ.

يقول الدكتور إبراهيم إمام: «الأصل في الجهاد أنه يمهد الطريق لحرية الإعلام الإسلامي، ويتيح الفرصة أمام رجاله كي يبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة، لأنه بعث رحمة للعالمين في وقت كان العالم فيه يئن تحت نير الظلم والتعسف والطغيان، وكانت الديانات السائدة آنذاك تفرض الطاعة المطلقة لكل طاغية، غير أن تبليغ الرسالة والإعلام بالدين الحق أسمى واجبات المسلمين مهما كانت العقبات التي تكتنف الطريق، ومهما كانت الصعوبات التي تواجه المؤمنين. وقد وعد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأنه يعصمه من الناس في سبيل الدعوة إلى الحق ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُول بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغت رِسَالَته وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوم ٱلْكَافِرِين﴾(١).

وقد نشط الطغاة والأباطرة للقضاء على دعوة الإسلام ورسوله، فأرسل كسرى من يقتل النبي ﷺ وقتل العديد من المؤمنين، وقد حاول بعض اليهود أن يقتلوا الرسول وأصحابه وحاولوا أن يفتنوه وأن يسحروه، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً.

ولقد كان الجهاد في وقت من الأوقات هو الوسيلة الوحيدة لتعبيد الطريق وتمهيده أمام الإعلام الإسلامي، وتهيئة المناخ اللازم لإبلاغ العباد كلمة الله العليا ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونُ فِتْنَة وَيَكُون ٱلدِّين لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوا فَلاَ عدْوَانَ إِلاَّ عَلَى ٱلظَّالِمِين﴾(٢).

فالمسلمون يجاهدون بالسيف لرفع كلمة الله، ويقاتلون لإزاحة العقبات عن الطريق للدعوة إلى سبيله. وهم يؤمنون بأن حرية الإعلام هي القاعدة الأساسية التي يختار على هَدْيها الإنسان دين الحق. فليس القتال لإزهاق الأرواح وإنما رغبة لإشاعة جو الدعوة إلى التوحيد، وإعلام الناس بحقائق الدين القائم على الحق والحرية والعدل والإيمان بالواحد الأحد ﴿كُتِبَ

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

عَلَيْكُم ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

فالإعلام الإسلامي ضرورة حتمية لكمال الرسالة حتى تصل حقائق الإسلام إلى كل إنسان، فإذا كفر فقد كفر عن بينة وبذلك يتحقق قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نبعَثَ رَسُولاً﴾[1].

ولا يتحقق مغزى بعث الرسول إلا إذا تم التبليغ، وحمله الدعاة والإعلاميون والمرشدون والمفسرون كما حمله الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد أوصى الرسول من بعده بأن يخلفوه في حمله... وهذه رسالة الإعلام الإسلامي... فلقد خاطب النبي عليه الصلاة والسلام مَنْ عاصروه من العرب ومَنْ جاورهم من دول أخرى، وكان من أسس الدعوة مطالبة الأجيال كلها في مشارق الأرض ومغاربها بالاقتداء بمنهج الرسول الكريم من أجل الإنسانية كلها.

﴿لَقَد كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ يَرْجو ٱللَّهَ وَاليَوْم ٱلآخِر وَذَكَر ٱللَّهَ كَثيراً﴾[3].

فالإعلام الإسلامي مهمة مستمرة دائرة في كل زمان وفي كل مكان، لذلك كان هذا التكليف موجهاً إلى الأمة الإسلامية جميعاً.

وقد اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة الإسلامية، وكان ذلك الاتفاق إجماعاً انعقد في عهد الصحابة وفي عهد التابعين رضي الله عنهم، والإجماع لا ينقضي بتخلي المسلمين عنه أو عدم القيام به.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية ١٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

الأشكال الاتصالية في الأدب الاسلامي

اتسمت الأشكال الاتصالية في صدر الدعوة الإسلامية بالطابع الشخصي والجمعي والحضاري، وقد تحدثنا عن رسول الله ﷺ كداعية أمثل في إطار نظرية الوحي التي تمثل نظرية متكاملة للاتصال، وسوف نتحدث هنا عن الاتصال الشخصي الذي يتحقق في الجماعات الأولية التي يرتبط أفرادها بعلاقات شخصية ويتم فيها الاتصال بالمواجهة ـ سرية كانت أو علنية ـ.

الاتصال الشخصي في الأدب الإسلامي

ذلك أن الرسول ﷺ لم يجهر بالدعوة إلا بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى بأن ينذر عشيرته الأقربين، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه، ثلاث سنوات تمثل المرحلة السرية في الاتصال الشخصي بعد نزول الوحي.. إذ قال عز وجل ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١)، وقال جل جلاله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

ومن ذلك يتضح أن هاتين المرحلتين السرية والعلنية، كانتا تستندان

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٢١٤ و٢١٥.

إلى الاتصال الشخصي الذي يكون بطبيعته بين أفراد العشيرة والأقربين من الأهل والصحاب.

فقد اعتمد رسول الله ﷺ في الاتصال الشخصي بمن يثق ويطمئن إليهم، كزوجته خديجة رضي الله عنها، وابن عمه عليّ كرم الله وجهه، وصديقه أبي بكر، ومولاه زيد بن حارثة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبد الله، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي سلمة بن عبد الأسد، وزوجته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وغيرهم من الأبرار رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

ولقد كان الاتصال يتم خفية وبعيداً عن أعين المشركين من قريش، وظل كذلك سنوات ثلاثا أثمرت فيها الدعوة غرسها، وأصبح حول رسول الله واحد وخمسون مسلماً يمثلون أوائل الدعاة في الإسلام وللإسلام، وهم الذين نزلت فيهم الآية الكريمة ﴿وَٱلسَّابِقُون ٱلسَّابِقُون أُولَئِكَ ٱلْمُقَرَّبُون﴾(١).

وقد تضمنت المرحلة السرية هذه صفحات مشرقة لكل واحد من هؤلاء، فأول مَنْ أسلم كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وقد احتضنت الدعوة في بدايتها منذ هبط الوحي على النبي ﷺ، وكلنا يعرف موقفها حينما جاءها وهو يرتجف فطمأنته، ثم آمنت به وصدقت بما جاءه من عند الله، وآزرته على أمره فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، وقد أرسل إليها سبحانه وتعالى تحية طيبة مباركة من السماء، فقد أمر نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأنه عز وجل يقرئها الإسلام وأن لها بيتاً في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

أما عليّ بن أبي طالب فكان في حجر الرسول ﷺ قبل الإسلام، ويذكر هشام أن رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان ١٠ و١١.

معه عليّ بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، وقد عثر عليهما أبو طالب يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله: يا بن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ فأجابه ﷺ: «أي عم.. هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسوله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال ﷺ - بعثني الله به رسولاً إلى العباد.. وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق مَنْ أجابني إليه وأعانني عليه» فقال أبو طالب: «أي ابن أخي إني لا استطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت».

وقال ابن هشام إن أبا طالب قال لابنه عليّ: «أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه؟» فأجابه: «يا أبتي، آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته»، فقال أبو طالب: «أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه».

وأما زيد بن حارثة فقد أسلم كذلك فور نزول الوحي على الرسول ﷺ وصلى معه، يقول ابن هشام إن زيداً كان رقيقاً على عادة الجاهلية اشتراه حكيم بن حزام، ثم وهبه لعمته خديجة رضي الله عنها فوهبته بدورها إلى زوجها قبل البعث، فأعتقه ﷺ وتبناه إلى أن أنزل الله عز وجل ﴿ادْعُوهُم لآبَائِهِم﴾(١)، وقد بلغ من حب رسول الله لزيد أن ناداه الناس بـ «حبيب رسول الله»، وقد دخل زيد في الإسلام فور دعوة رسول الله له، فكان من الأوائل الذين صدقوا به وآمنوا معه.

وكان أبو بكر بن قحافة التيمي صديقاً حميماً لمحمد ﷺ وكان يقدر أمانته ونزاهته وصدقه وحبه للعدل والحق، وكان رسول الله يبادله الحب

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥.

والتقدير ويعتز بصداقته ويفضي إليه بأسراره، ولذلك كان أبو بكر أول من تلقى تفاصيل الوحي من رسول الله ﷺ.

ولم يتردد أبو بكر لحظة واحدة في التصديق والدخول إلى الدين الحق، وقد أعلن إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وقد استجاب الكثيرون إلى الإسلام بدعوته لأنه كما يقول ابن هشام كان «رجلاً مألفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بقريش وما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يفدون إليه ويألفونه لغير واحد من الأمر. . لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ـ فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَنْ وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه».

أما الاتصال الشخصي في المرحلة العلنية فقد توسل بالقرآن الكريم والقدوة الحسنة، إلى جانب الأحاديث النبوية الشريفة.

يقول الرواة: إن النبي ﷺ بعد أن أمر بالجهر وإنذار عشيرته الأقربين وخفض جناحه للمؤمنين، جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فقدم لهم طعاماً صنعه لهم ثم قال: «خذوا باسم الله»، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، ثم أراد رسول الله أن يكلمهم فبادره أبو لهب إلى الكلام فتفرق القوم ولم يكلمهم، وفي اليوم التالي أمر عليًا فصنع لهم طعاماً ودعاهم إلى المائدة مرة أخرى، فحضروا وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً، ثم تكلم رسول الله فقال: «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم رجلاً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه»، ويقول الطبري: «صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه! فاجتمعت قريش فقالوا: ما لك؟ قال ﷺ، أرأيتم إن أخبركم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب، تباً لك. . ألهذا دعوتنا وجمعتنا؟

فأنزل الله عز وجل ﴿تَبَّت يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد توسل بكل الوسائل التي تحقق أهداف الاتصال الشخصي، فقد دعا قومه إلى طعامه مرتين، وأقام لهم حفلاً وتحدث إليهم بلطف ولين، ولم يكن فظاً غليظ القلب، ثم قدم لحديثه بأسئلة يعرف إجابتها مقدماً، وذلك ليستدرج القوم لما يريد ويمهد للأمر في نفوسهم.

ولولا معارضة أبي لهب له لانصاع الناس وآمنوا جميعاً به، ولكن هذه المعارضة في حد ذاتها جاءت لتؤكد أن الأمر ليس أمراً عائلياً أو عصبية أسرةٍ أو إجماع قبيلةٍ تريد أن تسود وأن يكون لهذا الأمر الدنيوى، ولكنها رسالة رب العالمين إلى الناس كافة.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين نزل عليه قوله تعالى ﴿وَأَنْذِر عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِين﴾[2]، وقف وقال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً. . يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً. . يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً. . يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مال لا أغني عنك من الله شيئاً»، وهذا الحديث يخرج على شرط البخاري، وروى مثله الإمام أحمد في مسنده.

ولقد جاء في التاريخ الكبير لابن الأثير: «لما أنزل الله تعالى على رسوله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرتكَ وَٱلأَقْرَبِين﴾، اشتد ذلك على النبي ﷺ وضاق ذرعاً فجلس في بيته كالمريض، فأتته عماته يعدنه فقال: ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي، فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك، فدعاهم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين، فبادرهم أبو لهب فقال: هؤلاء عمومتك وبني عمك، فتكلم ودع

---

(١) سورة المسد، الآية ١.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

الصبأة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وأنا أحق مَنْ أخذك فحبسك. . وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وغيرهم من العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في هذا المجلس.

وكان رسول الله ﷺ حكيماً غاية الحكمة، مدركاً تمام الإدراك لأبعاد الموقف الاتصالي وما تمثله معارضة أبي لهب من معوقات اتصالية أمام الدعوة الجديدة، لهذا بادر بالصمت وأرجأ الحديث إلى مجال آخر لا يكون فيه الجو الذي شحنه أبو لهب بالمعارضة.

فلما اتيحت له الفرصة وتهيأ له المجال الاتصالي المناسب، قال ﷺ: «الحمد لله أحمده وأستعينه وأثق به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، ثم قال «إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعلمون، وإنها للجنة أبداً أو للنار أبداً».

ولقد أفحم أبو لهب بهذا القول فلم ينطق بحرف، وتكلم أبو طالب فقال: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقاً لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعين وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأنفعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب، وهنا استفز أبو لهب فقال: هذه واللات السوأة. . خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم، فأجابه أبو طالب بإصرار: والله لنمنعه ما بقينا.

وتعتبر الأحاديث النبوية الشريفة الدعامة الثانية للإعلام الإسلامي بعد القرآن الكريم، ذلك أن القاعدة الأساسية في نظرية الإعلام الإسلامي تقوم على أساس من الثبات في الأصول والتطور في الفروع.

الأحاديث النبوية الشريفة في الاتصال الشخصي والجمعي والحضاري

والأحاديث النبوية الشريفة تمثل بطبيعتها وسيلة من أهم وسائل الإعلام الإسلامي ذلك أن «الحديث» من حيث المعنى هو أداة اتصالية، فقد كان لكلمة الحديث معنى عام هو الخير أو المحادثة ـ دينية كانت أم غير دينية ـ ثم أصبح لها معنى خاص هو ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل يروى عنه.

وتأسيساً على هذا الفهم فإن الحديث أصبح يطلق عند المسلمين على ما يروى عن الرسول، ويطلق على العلم الخاص به علم الحديث.

أولاً: طابع التعليم والتوجيه والإرشاد.

ثانياً: طابع الإعلام والدعوة والتبليغ.

وهذان الطابعان يمثلان الوظائف الأساسية للإعلام بوجه عام، وللإعلام الإسلامي بوجه خاص.

ومن أحاديث الرسول ﷺ جميعاً نجد تحقيقاً لهذه الوظائف سواء أكانت تستهدف التنشئة الاجتماعية أو التوجيه أو الهداية على النحو المستفاد من الدلالة التي ترتبط بلفظ السنة ذاته، والتي كان المقصود بها عند العرب «النهج القديم المأثور الذي يعتاده المرء في كافة المعاملات»، وهذا اللفظ كان له احترامه عند الجاهليين الذين يعتبرون السنة فضيلة من الفضائل.

ولما جاء الإسلام، كان في جوهره ثورة على السنن الجاهلية وما يرتبط بها من وثنية وعادات سيئة وتقاليد ضارة بالمجتمع، وقد استبدل الإسلام سنن الجاهلية وعاداتها وتقاليدها بسنن قوية وعادات سليمة وتقاليد مفيدة يتوسمها المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان، ذلك أن الدرس المستفاد من الأحاديث النبوية، إلى جانب ما أوضحه القرآن الكريم حول الدعوة والتبليغ أن الإعلام الإسلامي إنما هو فريضة واجبة يتوجَّه بها إلى العالم كله، لا إلى

أمة بعينها، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «نصرت بالرعب عن مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث لقومه خاصة وبعثت للناس عامة»(١).

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى في أصول الإعلام الإسلامي، إذ قال تعالى ﴿قُل يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾(٢)، فأصبح الواجب إذن على القائمين بالإعلام الإسلامي أن يتخذوا من شخصية الرسول وخلفه، وشخصيات الصحابة وخلفهم مُثُلاً علياً يترسمونها ويحتلون خطواتها في أداء رسالتهم الخالدة العامة.

وإذا كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، قد بذلوا كل ما في طاقتهم في سبيل جَمْع أحاديث الرسول وأخباره نبراساً للإعلام الإسلامي في كل العصور، فإن هذه الأحاديث والأخبار ذاتها كانت في حينها تمثل رسالة إعلامية مباشرة للقوم الذين تخاطبهم، وقد استمرت فعاليتها إلى يومنا هذا، وسوف تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

وينقسم الحديث إلى: حديث إلهي وهو الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل، وحديث نبوي وهو ما تحدث به رسول الله وما رُوي عنه ﷺ.

وهذان النوعان من الحديث يمثلان الرسالة الإعلامية المفسرة للقرآن الكريم، وقد توسل بها الرسول ﷺ في كل مراحل الدعوة الإسلامية، وقد طبعت بطابع الاتصال الشخصي الشفهي الذي يؤكد علماء الإعلام أنه ناجح في الاقناع، لأنه يتلافى سلبيات الإعلام الأخرى وخاصة مقاومة المستقبل

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

التي تضعف بدورها تأثير الإعـلام، فالاتصـال الشفهي يتسم بالحوار والاقناع وتبادل الأفكار، ودحض الحجج والبراهين، ومحاولة التغلب على كل أساليب الاحتجاج ما يجعل المستقبل يؤمن تأميناً قلبياً على الرسـالة التي تلقـاها، بـل إنه يصبح في أغلب الأحوال داعية لنفس الرسالـة بين جماهيـر أخرى لا يلبث بعضهم أن يتحول بدوره إلى دعاة كذلك، وهكذا تـدور الدورة الاتصـالية في الإعلام الإسلامي.

لـذلك لم يكن غـريباً أن يتـوسل الـرسول ﷺ بـالاتصال الشخصي في مراحل الدعوة المختلفة وتبليغ رسالة ربـه إلى الناس، ولقـد نجح ﷺ نجـاحاً باهراً منجزاً شدَّ انتباه غير المسلمين وكـل من تصدَّى لـدراسة حيـاته والكتـابة عنـه، وتقول دائـرة المعارف البـريطانيـة في مادة قـرآن: «جاء محمـد بدعـوة جـديدة هي دعـوة الإسلام، وكـان هذا الـرسول أفضـل الأنبياء والشخصيـات الـدينية وأكثـرهـم حظّاً من النجـاح، فقد أنجـز في عشـرين عـامـاً من حيـاتـه ما عجزت عن إنجـازه قرون من جهـود المصلحين ـ يهوداً أو نصـارى ـ الذين كانت تؤيدهم السلطة الزمنية، ورغم أنه كان أمـام ذلك الـرسول تـراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والميسر ومعاقـرة الخمور واضـطهاد الضعفاء والحروب والمنازعات بين القبـائل العـربية، ومئـات الشرور والآثـام الأخرى».

وهذا التأكيـد من دائرة المعـارف البريـطانية الـذي نقلناه بنصـه يوضـح ما نعنيه بنجـاح الاتصال الشخصي في دعـوة الرسـول ﷺ، في مراحلهـا التي أشرنا إليها.

الاتصال الشخصي بالقبائل العربية

ومن وسائل الاتصال التي لجأ إليها الرسـول ﷺ لتبليغ دعـوة الإسلام، عَرْضُ نفسه على القبائل العربية الوافدة إلى مكة للحج أو العمـرة أو التجارة، كمـا كان يحـرص على حضور الأسـواق خاصـة في المواسم والأعيـاد ويروى أنـه ﷺ كان يقف على منـازل القبائـل من العرب فيقـول: «يـا بني فـلان إني

رسـول الله إليكم يأمـركم أن تعبدوا الله ولا تشـركـوا بـه شيئـاً، وأن تخلصـوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتتبعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به».

وكثيراً ما كان أبو لهب يحرك العوامل الوسطية عند هذه القبائل بأن يتبع ابن أخيه فيقول معقباً على قوله ﷺ: «يا بني فلان.. إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى عن أعناقكم، وحلفـائكم من الجن من بني مالـك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه».

العوامل الوسيطة ومقاومة المضمون الاتصالي

وإذا كان علماء الإعلام في عصرنا هذا يقـولون إن الاتصـال قد ينجـح مرة وقد يفشل أخرى أو يحقق عكس المطلوب منه، فإننا نستطيع أن نستقـرئ هذا من المواقف التي عرض فيها الرسول ﷺ نفسه على القبائل، وما لقيه من نجـاح أو فشل بسبب محـاولات أبي لهب المضادة والتي كـانت تثير العـوامل الوسيطة في النفـوس وتستهويهـا استهواءً عكسيـاً، ولم تكن المقاومـة قاصـرةً على أبي لهب، بـل كانت تشمـل الكثيـر من سـادة قـريش وأصحـاب الـرأي والجاه والمال فيهـا من الذين غلبت عليهم الضـلالة فـلا يتبعون الحق لـذات الحق، وهؤلاء هـم المعـانـدون المكـابـرون الـذين عميت قلوبهم وكـان على إدراكهم غشاوة.

يقـول ابن كثير إن رسـول الله ﷺ: «استمر يـدعـو إلى الله تعـالى ليـلاً ونهاراً، وسراً وجهـاراً، لا يصرفـه عن ذلك صـارف، ولا يرده عن ذلـك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجـامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحـج يدعـو مَنْ لقيه من حـر وعبـد وضعيف وقـوي وغني وفقيـر، جميع الخلق في ذلـك شرع سـواء، وتسلط عليه وعلى مَنِ اتبعـه من أحد الناس من ضعفائهم، الأشداء الأقوياء».

وكان أشدهم قوة بعد أبي لهب أبو جهل عمرو بن هشام المعروف بأبي الحكم، والذي كان فاجراً في القول والعمل، ولم يدخل في الإسـلام وسعى

في مقاومة الدعوة واضطهاد كل من آمن بها خاصة الضعفاء ومَنْ لا حول لهم ولا قوة. أما أبو لهب فهو كما تقدم فقد اختار لنفسه موقعاً يناوىء منه الدعوة الإسلامية، وقد يكون سادة قريش هم الذين وضعوه في هذا الموقع استغلالاً منهم للصلة الفعالة بينه وبين ابن أخيه، مما يجعله مصدر ثقة، وعاملاً من العوامل الوسيطة الفعالة في مقاومة النبي ﷺ، وإضعاف حجته وإصابته بالإحباط وإيلامه في نفسه، لإن الظلم هنا يقع من أقرب المقربين إليه، وهو الذي يفترض فيه أن يكون أول المؤيدين والمساندين لدعوته.

قال ابن اسحاق: «كان رسول الله ﷺ كلما اجتمع له الناس بالموسم، أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصَّدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده».

وقد لقي رسول الله قوماً من الخزرج في أحد المواسم عند العقبة، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال لبعض: يا قوم.. تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقونكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعكم الله بهم، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

وكانت هذه بداية نجاح الاتصال الشخصي بين رسول الله ﷺ، وانتصاره على مقاومة العوامل الوسيطة التي أزكاها أبو لهب وغيره من أشباهه.

وإذا كان لفظ الجمع في اللغة العربية يعني تأليف المتفرق، فإن الاتصال الجمعي كما يذهب إلى ذلك علماء الإعلام يكتسب من هذه الدلالة

اللغـوية خصـائصه ومفهـومـه من حيث اعتمـاده على التفـاعـل المبـاشـر بين الجماعة والداعية أو المرسل.

الاتصـال الجمعـي

ولما كان الإسلام هو الدين القائم على جمـع الناس تحت رايـة واحدة لا إلـه إلا الله، وتوحيـد صفوفهم وبث التـواد والتراحم والتـآزر والتضـامن في نفوسهم، كان الاتصال الجمعي من أهم مميزات الإعلام الإسلامي.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاس إِنِّي رَسُول ٱللَّه إِلَيْكُم جَمِيعاً﴾(٢).

وقال عز شأنه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَـا رَبنَا ثُمَّ يَفْتَـحُ بَيْنَنَا بِـٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّـاحُ ٱلعَلِيمُ﴾(٣).

وقال جل جـلاله: ﴿ لَا حُجَّـةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّه يَجْمَـعُ بَيْنَنَا بِـٱلْحَقِ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيم﴾(٤).

هـذه الآيات وغيـرها تؤكـد على أهميـة الاتصـال الجمعي في الإعـلام الإسـلامي لما تتضمنـه من التأكيـد على الإلفة والاجتمـاع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله والاعتصام بحبله سبحانه، وهـو الذي يقـول عنه المفسـرون إنه السبب الموصل إلى البقية والحاجة، ولذلك سمِّي الأمان حبلاً لأنـه سبب يوصل به إلى زوال الخوف والنجـاة من الجزع والـذعر، كمـا كره الله الفـرقة وحذر المسلمين منها ونهاهم عنها.

وقـال رسول الله ﷺ: «إن بني إسـرائيـل افتـرقت على إحـدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة».

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.
(٣) سورة سبأ، الآية ٢٦.
(٤) سورة الشورى، الآية ١٥.

قيل: يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قبض يده وقال: الجماعة، ثم استشهد ﷺ بالآية الكريمة ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(١).

ولقد شرع الإسلام صلاة الجماعة في المساجد لحكمة بالغة هي التأليف بين قلوب المسلمين وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم وتحقيق المساواة بينهم، والتمرس على المشاركة العملية والوجدانية، والتدريب على العمل تحت قيادة واحدة، ثم إن صلاة الجماعة فيها حركة السعي إلى المساجد، وفيها سهولة إعلام الناس بالأمور العامة والأحداث الهامة أيضاً.

ولذلك أكد الرسول الكريم على طلب صلاة الجماعة التي أصبحت سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الإسلام، بل دعامة، وقد داوم على إقامتها رسول الله ﷺ والخلفاء والتابعون من بعدهم، وما زالت إلى يومنا في كل مجتمع إسلامي، وستظل إلى يوم الدين بإذنه تعالى.

قال ﷺ: «صلاة الجماعة تعادل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة»،(٢) وقال: «وما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»(٣).

أما صلاة الجمعة فقد قال الله عز وجل بشأنها ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ﴾(٤).

وقال رسول الله ﷺ «من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه».

كما قال: «إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه، وهدانا الله تعالى له وآخره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم، فهم أولى الناس

---

(١) سورة ال عمران، الاية ١٠٣.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أبو داود بإسناد حسن.
(٤) سورة الجمعة، الآية ٩.

به سبقاً وأهل الكتاب لهم تبع»[1]، ـ وقد أجمع المسلمون كافة على وجوب صلاة الجمعة التي ثبتت فريضتها بالكتاب والسنة.

ومن مظاهر الاتصال الجمعي في صلاة الجمعة الخطبة، وهي الرباط الروحي للمصلين والمخبر الإعلامي للمسلمين، ومن خلالها يمكن توجيه الناس وإرشادهم وإعلامهم والأخذ بأيديهم إلى خير السبل وأسلمها.

الخطب النبوية والاتصال الجمعي

يقول ابن القيم الجوزية عن خطب النبي ﷺ: «إنها كانت تقريراً لأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة والنار وما اعد لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبه إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه... لا كخطب غيره التي تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له، ولا معرفة خاصة، ولا تذكيراً بأيامه، ولا للنفوس على صحبته والشوق إلى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلي التراب أجسامهم... فيا ليت شعري إي إيمان حصل بهذا، وأي توحيد وعلم نافع يحصل به؟

ومن تأمل خطب الني ﷺ وخطب أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم. ثم طال العهد وخفي نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تقوم من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنّة لا ينبغي

---

(١) الحديثان متفق عليهما.

الإخـلال بها، وأخلُّوا بـالمقـاصـد لا ينبغي الإخـلال بهـا فـوضعـوا الخـطب بـالتسجيع والفقـر وعلم البديـع فنقص.. بل عـدم حفظ القلوب منهـا وفـات المقصود بها».

أما النووي فيقول: «يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مـرتبة مبينـة من غير تمطيط ولا تقعير، ولا تكون ألفاظاً مبتـذلة ملفقـة لأنها لا تقـع في النفوس موقعاً كاملاً، ولا تكـون وحشية لأنهـا لا يحصل مقصـودها، بـل يختار ألفـاظاً جزلة مفهمة».

أمـا الخطابـة النبويـة الشريفـة فيتمثل فيهـا الاتصال الجمعي في أسمى معـانيه فقـد كانت أداة الـدعوة، واللسـان الناطق بـالرسالة الإسـلامية، وأداة الاتصال والتعبير في مجالات العقيدة والشريعة والأخلاق، فإذا كـانت الكتابـة غير شائعة في هذا العصر، فإن الخطابة كانت مثل الوسيلة الأساسية للاتصـال الجمعي، ولـذلك اعتمـد عليها النبي ﷺ في دعـوته عشيـرته الأقـربين، وفي اتصاله بـأحياء العـرب وبالأسـواق العامـة ومواسم الحـج، فكان عليـه السلام يخطب ويقول: «قولوا لا إلـه إلا الله تفلحوا». ثم انتقـل إلى يثرب يـدعو إلى الله على بصيـرة، ويقوم في مجتمعـات جديـدة يشرح لهم ببيـانه وفصـاحته، رسالة الإسلام، وهي فصاحة فطر عليها وقواها تلمذته للقرآن الكريم.

سـألـه أبـو بكـر رضي الله عنـه مـرة: لقـد طفت في العـرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدَّبـك. فقال: «أدَّبني ربي فـأحسن تـأديبي». وفي الخطابـة النبويـة الشريفـة تتجلى قيمـة الحـريـة في الاتصـال الجمعي، فكان عليه السلام يقول بعد الثناء والتشهد «أما بعـد». وكأنـه يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه، ويأمـرهم وينهاهم في خـطبته إذا عرض له أمر أو نَهْي.

فالاتصال الجمعي ـ كمـا يتضح من دراسـة الخطابـة النبويـة الشريفـة ـ لا يتم من جانب واحد، وإنما كان يتـاح فيه للمتلقي تـوجيه الأسئلة والتفـاعل

الـذي يتيحه رجـع الصـدى من المستقبـل إلى الـرسـول ﷺ وهي الميـزة التي يفتقدها الاتصال الجماهيري المعاصر، ذلك أن الرسول ﷺ كان يقطع خطبته لحاجة تعرض، والسؤال لأحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها، وكان ﷺ يأمر بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضّهم عليها ولم يكن يأخذ بيده سيفاً أو خلافه، وإنمـا كان يعتمـد على عصا أو قوس قبـل أن يتخذ المنبـر، وكان يخـطب للنساء على حـدة في العيدين ويحرضهن على الصدقة.

ولقد كانت الخطابة من أهم وسـائل الـرسول ﷺ في الاتصـال الجمعي في الإعلام الإسلامي بعـد الجهر بـالدعـوة مباشـرة، حين صعد على الصفـا حاملا عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، ويذكر ابن كثير أن أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله بعـد النبي ﷺ هو أبو بكر رضي الله عنه.

ولما كانت أول جمعة للنبي ﷺ بالمدينة، خـطب المسلمين فكان ممـا قاله:

«الحمد لله، أحمده واستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفر، وأُعادي مَنْ يكفر، وأشهـد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريـك له، وأن محمـداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والمـوعظة على فتـرة من الرسـل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعـة، وقربٍ من الأجل، مَنْ يطع الله ورسـوله فقـد رشد، ومن يعصـه فقد غـوى وفرط وضـلَّ ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله فإنـه خير مـا أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحـذروا ما حـذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وإن تقوى الله يوقي مقته ويوقي عقوبتـه، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضي الرب ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفـرطوا في

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

جنب الله، قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين كذبوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه. جاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة، فأكثروا من ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس.

«وذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله».

خطبة الوداع وحقوق الانسان

ومن الخطب النبوية الرفيعة خطبة حجة الوداع، وهي مشهورة وتعد بعد القرآن الكريم أقدم وثيقة عالمية بحقوق الإنسان.

قال رسول الله ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى مَن ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

«أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إنْ يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحتقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

«أيها الناس إنّ النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، فيحلوا ما حرّم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

«أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهم ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله.

«فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت. وقد تركت فيكم ما أن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا... أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه... تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمُنَّ أنفسكم. اللهم هل بلغت؟ فقال الناس: اللهم نعم. فقال رسول الله: اللهم اشهد».

ومن خطبة الوداع نستخلص دستوراً للإعلام الإسلامي ينص على الدعوة إلى التوحيد الخالص، والإيمان بالله، كما ينص على الدعوة إلى وجوب احترام حقوق الإنسان وبخاصة في النفس والمال والعرض، وإلغاء التعامل بالربا، وتأكيد حقوق المرأة ووجود رعايتها ورعاية العلاقة الزوجية والأسرية، وصيانة الروابط الدينية والأخوية والاتصالية بين المؤمنين كما تنص هذه الخطبة على إعلان المساواة التامة بين بني الإنسان في الحقوق والواجبات مساواة تامة، بغض النظر عن اللون والجنس، وهذا النص يمثل عماداً من أعمدة الإعلام الإسلامي الذي أكدت عليه خطبة الوداع. وهي الخطبة التي أرست كذلك من مبادئ الإعلام الإسلامي: التحذير من وسائل

إفساده للأخوة، وللاتصال بين المسلمين وتفريق صفوفهم. وكذلك الدعوة إلى وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، لأنهما الهدى الذي لا يضل من تمسك بهما.

وقد نصت خطبة الوداع صراحة على أن الإعلام الإسلامي إنما يقوم على أساس من تبليغ الرسالة للناس كافة، وهذا الأساس يمثل جوهر الإعلام الإسلامي.

صلاة العيدين والاتصال الجمعي

وصلاة العيدين شعيرة تمثل الاتصال الجمعي في أروع مظاهره، فالأعياد بطبيعتها مواسم إعلامية، والعيدان الكبيران في الإسلام هما عيد الأضحى وعيد الفطر، وأكبرهما هو الذي يأتي بعد مشقة الحج والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وثانيهما هو الذي يأتي بعد شهر الصيام، ويحتفل به الصائم وقد راض نفسه على مغالبة الجوع والظمأ ومخالفة العادات التي جرى عليها في سائر الشهور. وكلاهما ـ كما يقول العقاد ـ رمز واضح إلى فضيلة التضحية وفضيلة ضبط النفس، أو إلى الفضيلة الإنسانية الجامعة لكل الفضائل، وهي حرية الاختيار والقدرة على مغالبة الغرائز والأهواء والعادات.

وصلاة العيدين سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الدين، وفيها نسمع التكبير ثلاثا نسقاً، فنقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا. لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. وفي هذا التكبير تلخيص لرسالة الإعلام الإسلامي حيث يتم التواصل بين المسلمين ودينهم على أتم ما يكون التواصل، وتصبح الأعياد الإسلامية تجديداً للتوادّ والألفة والتعارف بين المسلمين.

فالعيد إذن وسيلة أساسية من وسائل الاتصال الجمعي في الإعلام الإسلامي. وقد تكون كلمة العيد باللغة العربية أصدق الكلمات دلالة على

ما تعنيه. فالعيد يعود كل سنة في موعد محدد، كما أنه سيوجب مجتمعا مستقراً له دينه ونظامه الاجتماعي القائم على أسس راسخة.

وهذه الدورية للعيد أي عودته سنوياً في الموعد المحدد، صفة من أهم صفات الإعلام بوجه عام.

والعيدان الإسلاميان ـ وهما عيد الفطر وعيد الأضحى ـ كان لهما أصل قديم قبل الإسلام، فكان العرب يصومون من أسبوع إلى أسبوعين في موعد الانقلاب الصيفي الذي وافق شهر القيظ، أو شهر رمضان. وكانوا يحجون إلى الكعبة ويقدمون قرابين إلى أربابهم عند منصرفهم من الطواف، وكانوا يؤدون شعائر الحج عراة إلا من الكساء الذي يخصصه السدنة للحج في جوار مكة. فلما جاء الإسلام هذب هذين العيدين وأزال عنهما بقايا الصبغة المادية وحولها إلى العبادة الإلهية، وساعد على زوال الأثر المادي منهما أن الإسلام حرم النسأ، وهو زيادة شهور على السنة كل بضعة أعوام لإعادة التاريخ القمري إلى الحساب الشمسي الذي تنتظم عليه مواسم الزراعة والتجارة.

الحج والاتصال الإعلامي

ويمثل الاتصال الإعلامي شكلاً من أشكال الاتصال في الدعوة الإسلامية، إذ يعني الاتصال على مستوى الأمة، الأمر الذي يتفق مع جوهر الإسلام كرسالة للناس كافة وليس لقبيلة أو شعب معين، وهو الأمر الذي لاحظه الأستاذ مونتجمري وات عميد قسم الدراسات العربية الأسبق بجامعة «أدنبره» في كتابه «الإسلام والجماعة المتحددة»، حين ذهب إلى أن فكرة «الأمة»، كما جاء بها الإسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق إليها ولم تزل إلى هذا الزمن ينبوعاً لكل فيض الإيمان يدفع بالمسلمين إلى «الوحدة» في «أمة» واحدة، تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة.

وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض

على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها، بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم إلى تعزيز وحدتها ولمِّ شملها ونفي الغرباء عنها.

ويذهب العقاد[1] إلى أن مونتجمري قد أصاب في التنويه بمعنى «الأمة» في العقيدة الإسلامية، واعتباره أنه معنى فريد خلقته العقيدة الإسلامية ولم يكن له مرادف في لغة من اللغات لا قبل الإسلام ولا بعده.

فكلمة (Nation) التي تقابل هذه الكلمة باللغات الأوروبية، مأخوذ في أصلها من معنى الولادة، ومفادها أن الولادة في مكان واحد هي الرابطة التي تكسب أبناء الوطن حقوق هذه الوحدة الاجتماعية، وكلمة (People) تقابل عندهم كلمة الشعب أحياناً باللغة العربية، وترجع في أصلها إلى السكن والاقامة، وكلا المعنيين ـ معنى الولادة ومعنى السكن ـ قاصر عن الدلالة على «الأمة» التي جاء بها القرآن الكريم في معارض كثيرة تفيد معنى الجماعة الكبرى التي تحيط بشعوب كثيرة، ويلزم من دلالتها وحدة الوجه الإسلامي في نهاية الأمر.

وإذا كان الاتصال الإعلامي بالمعنى الحديث، وبشكله التكنولوجي، يتجاوز اللقاء المباشر والتفاعل المواجهي، فإن الحج يمثل قمة الاتصال بين المسلمين الذين يلتقون فيه من كل فج عميق على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وتتحقق فيه الدلالة الإسلامية لمعنى «الأمة» على أفضل نحو حيث جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمناً، وجعل الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه «عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين فيه»، على حد تعبير الإمام الغزالي رضي الله عنه ـ وقد أنزل الله عز وجل قوله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلَامَ دِيناً﴾[2].

---

(١) عباد محمود العقاد: المجموعة الكاملة، ج ٦، الاسلاميات ٢، ص ٥٢١ (م ٩ نظرية الاعلام).
(٢) سورة المائدة، الآية ٣.

وقال الله عز وجل ﴿وَأَذِّنْ فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(1).

وقال قتادة: لما أمر الله عز وجل إبراهيم ﷺ وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن في الناس بالحج، نادى: يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتاً فحجوه، وقال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾(2)، قيل التجارة في الموسم والأجر في الآخرة، وهذه المنافع تتضمن فوائد إعلامية بطبيعة الحال من حيث تبادل الأفكار والمعلومات في إطار القيم الإسلامية، وقد جعل رسول الله ﷺ طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج، والمماراه تناقض طيب الكلام ولقد اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة المكرمة منزل الوحي والدعوة الإسلامية الأولى، وجعلها مصدر الإعلام العربي على قدر ما عند العرب من معرفة، وبها حج بيت الله الحرام، وملتقى العرب في موسمه، وبها أسواق الأدب التي يتبارى فيها الشعراء والخطباء في عكاظ وذي مجاز ومجنة.

ولذلك كانت الأحداث فيها تنتقل أخبارها إلى بلاد العرب، ومنها سار خبر الرسالة الإسلامية ودعوة النبي ﷺ الحق وتجاوبت أصداؤها، ومن العرب مَنْ كان يجيءُ مكة المكرمة بهدف التعرف على أمر ذلك الرسول الكريم ﷺ، ومنهم مَنْ يرسل إليه مَنْ يتعرف دعوته كما فعل أكثم بن صيفي حكيم العرب، إذ أرسل نبيه إلى النبي ﷺ يتعرف ما يدعو إليه، فلما حضروا وسألوا النبي ﷺ، تلا عليهم قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾(3)، فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول ﷺ قال: إنه إن لم يكن ديناً فهو خلق الناس أمر حسن، يا بني كونوا في هذا الأمر أولاً، ولا تكونوا آخراً.

---

(1) سورة الحج، الآية ٢٧.

(2) سورة الحج، الآية ٢٨.

(3) سورة النحل، الآية ٩٠.

وقد أسلم أبو ذر الغفاري بهذا الإعلام العام الذي اشتهرت به دعوة النبي ﷺ، كما أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو إذ جاء النبأ بدعوة النبي ﷺ، وكان رجلاً شريفاً شاكراً، وكذلك فعل الجارود بن المعلى وغيرهم من زعماء القبائل الذين دخلوا في الإسلام.

الاتصال الحضاري والأدب الإسلامي

والاتصال الحضاري من أهم أشكال الإعلام الإسلامي، لأنه يقوم على أسس إسلامية مستقاة من القرآن والسنة، ويرتكز على التوحيد والإيمان والتسليم والطاعة لله رب العالمين، ويتغيا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإذا كان مقياس المدنية الغربية هو التفوُّق المادي، فإن الحضارة الإسلامية تقوم على حرية الفكر، ودعم حرية الإنسان وكرامته، وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس في ظل إخاء شامل، وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية، ذلك أن الحضارة الإسلامية قد استمدت مقوماتها من الإسلام ذاته، الذي أتم صَقْل الأمة العربية والإسلامية وتهذيبها، وأودع في شعوبها طاقات جديدة، وصفى طاقاتها الموروثة فاستأصل منها الغريب والشاذ وما لا يتلاءم مع طبيعة المجتمع المثالي الذي يريده الإسلام.

فالاتصال الحضاري في الإسلام لم ينسخ النظرة الواقعية، بل اهتم بتطويرها ودعا الناس إلى الاهتمام بدنياهم إلى جانب الاهتمام بدينهم، كذلك وجه عنايته إلى رفاهية المسلمين، وتكامل سعادتهم بسعادة الروح والجسد فسعادتهما مكفولتان في الإسلام ولا يطغى حقّ واحد منهما على الآخر، وهذه التعادلية في الاتصال الحضارى الإسلامي بين المادة والروح، بين الدنيا والآخرة، بين العقل والقلب، مسايرة لطبيعة الإنسان وخلقه، هو مادة وروح، جسد وقلب، ولقد كان المجتمع العربي قبل الإسلام يحيا على واحدة منهما ويهمل الأخرى، فكانت النتيجة الانغماس في الفوضى وعدم

الاستقرار والإخفاق في الوصول إلى هدف منشود. . وتكفل التعادلية بين القوتين في الاتصال الحضاري البقاء للإنسانية والسير قدماً، فالقوانين المادية الوضعية وحدها لا تفي برفاهية الخلق، ولا تنهض وحدها بحل مشكلات الإنسان.

والمجتمع المتحضر هو المجتمع الأخلاقي أو «المدينة الفاضلة» بتعبير الفارابي، وهنا يغدو الاتصال الحضاري وسيلة لجَعْل أمور الحياة خاضعة لقانون الأخلاق النابع من جوهر الإسلام، كدين إنساني عام يخاطب الأمم جميعاً فلا يفرق بين أمة وأمة بفارق الجنس أو اللون أو اللغة، فكل إنسان في جوانب الأرض أهل لأن يأوى إلى هذه الأخوة الإنسانية حيث شاء، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

هكذا أعلنها القرآن الكريم دعوة عامة منذ ألف وأربعمائة سنة، وهكذا أعلنها النبي عليه السلام وخلفاؤه الراشدين وتابعوهم الأبرار في صدر الإسلام، ولم يَمْضِ ربع قرن من التاريخ الهجري حتى قامت بينات الواقع على حقيقة الاتصال الإنساني في الدعوة الإسلامية، فدان بالدين الجديد أناس من جميع الأقوام والسلالات، ولم تنقض على الهجرة ثلاثة قرون حتى كان في عداد المسلمين ساميون وآريون وحاميون وطورانيون، عرب وفرس وترك وهنديون وصينيون وأفريقيون من السود الأسويين، وهكذا يتأكد لنا أن الاتصال الحضاري في الإعلام الإسلامي يتسم بالشمولية في مخاطبة الناس جميعاً بلا تفرقة.

يقول العقاد:

«إن ديناً من الأديان الأخرى لم يكسب أمة ذات كتب عريقة في الحضارة، وإنما كانت الأديان مقصورة على العصبية القومية، أو على تحويل

---

(١) سورة سبأ، الآية ٢٨.

الـوثنيين الذين درجـوا على عبادة الأصنـام وما يشبـه الأصنام من رمـوز القوى الطبيعية».

«فالموسوية قصرت دعوتها على العبريين أو اليهود، ولما قام المكابيـون ليكرهوا قبائل البادية على قيود الشعائر اليهودية كانت هذه القبائل وثنية مغـرقة في الجهالة وكان المكابيـون يسمون أمـراءهم رؤساء كهـان ولا يسمحون لهم بلقب الملك وشاراته ومراسمه، فإكراه القبائل على قبـول سلطان «يهوا» إنمـا كان عندهم بمثابة الخضوع السياسي الـذي يلزم الأجانب والغـرباء كمـا يلزم أبناء الأمة وأهل السلالة».

«والبرهمية ظلت ديانة قومية عنصرية حتى خرجت منها النحلة البـوذية، فنجحت في تحويل الوثنيين إليها في الصين واليابان ولم تحـول إليها قط أمـة ذات كتـاب.. والمسيحيـة حـولت إليهـا الـرومـان وغيـرهم من الغـربيين أو الشرقيين، ولكنهم كانوا جميعاً من الوثنيين الذين وقفوا عند خـطوات الدين الأولى ولم يجاوزها إلى عقائد أهل الكتاب».

«أما الإسلام فقد حول إليه على خلاف ذلك أعرق الأمم في الحضـارة وفي الإيمـان بالعقيـدة الكتابيـة، فأسلمت فـارس وأسلمت مصـر وهمـا على التحقيق أعرق أُمم العالم يومئذ في تاريخ الحضارة، أولاهما كـانت تؤمن بالله واليـوم الآخـر والحسـاب والعقـاب وغلبـة الخيـر على الشــر وخلود الـروح، وثانيهما كانت تدين بالمسيحية وتحمل لواءها في العالم القديم».

هذه المزية ينفرد بها الإسلام بين جميـع الديـانات، وهي آيـة العالميـة والصلاح لدعوة الأمم جمعاء، سواء منها الأمم المغرقة في الحضـارة والدين أو الأمم التي لم تبلغ بعد الارتقاء في التحضر والاعتقاد»[1].

فالاتصال الحضاري في الإسلام اذن اتصال موجه إلى الإنسانية جمعاء على توالي العصور واختلاف الأزمان، وهو ملتزم بما أنزله الله للإنسانية، وهو

(١) العقاد: المجموعة الكاملة، م ٨، الإسلاميات ٤، ص ٣٣٥.

سبحانه وتعالى بكل شيء عليم وبعباده رؤوف رحيم، وهو يهدي الناس إلى صراط مستقيم[1].

قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُون﴾[2].

ولقد اشتمل التشريع القرآني على معالم هذا الاتصال الحضاري من مبادئ وقيم تصلح للإنسانية جمعاء، فالأخوة الإسلامية أصبحت هي الأساس في الاتصال الحضاري بدلاً من العصبية، والاتحاد أصبح هو العماد الذي يقوم عليه هذا الاتصال الحضاري، والحياة التي تقوم على الخير هي الهدف المنشود من هذا الاتصال، وتتمثل هذه الأسس في الآيات الكريمة:

﴿وَلْتَكُن مِنْكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[3].

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب﴾[4].

﴿وَالْمُؤْمِنُون وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُون بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَلاَةَ وَيُؤْتُون الزَكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُم اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5].

وإن كان التشريع القرآني قد رسم على هذا النحو الأسس التي يقوم عليها الاتصال الحضاري القويم، فقد أكد أن تنكُّب هذا الطريق واختيار السير في طريق الفساد إنما ينتهيان بهدم البناء الاجتماعي والحضاري

---

(١) د. ابراهيم امام: الإعلام الإسلامي ص ٤٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.
(٣) سورةآل عمران، الآية ١٠٤.
(٤) سورة المائدة، الآية ٢.
(٥) سورة التوبة، الآية ٧١.

وتقويض أسسه، ويتمثل هذا الإنذار للحضارات المنحرفة في الآيات الكريمة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[2].

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[3].

والأمثلة على انهيار الحضارات كثيرة، فها هو محمد إقبال يقول: «مثلت حضارة الغرب دورها وقد شاخت وهرمت، أينعت كالفاكهة وحان قطافها، وسوف ينهار العالم الذي حوله مقامرو الغرب إلى حالة من الفساد، ولقد رأت أوروبا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث محمداً وإبراهيم قيادة العالم».

ولقد تنبأ المؤرخ الإنجليزي توينبي بانهيار حضارة الغرب المعاصرة كما انهارت حضارة روما، ويذهب كولن ويلسون إلى أن عالم اليوم يمر بنفس الظروف التي مرت بها حضارة الرومان، وكتب «جيبون» في كتابه «انهيار الأمبراطورية الرومانية وسقوطها» يقول: «إن روما تحولت إلى حضارة لا تفكر إلا في الجنس والحرب».

والتشريع القرآني يبين الأسس القويمة للاتصال الحضاري السوي كما

---

(١) سورة الرعد، الآية ١١.
(٢) سورة هود، الآيتان ١١٦ و١١٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية ١٦.

يبين عوامل هدم الحضارات المنحرفة، ويذكِّر المؤمنين على الدوام بنعمة قيام الأمة المتحدة المؤتلفة بعد تنازل، ويحذر من الجاهلية التي تعيد الفرقة بعد الوحدة، ويتضح ذلك في الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُون * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إِذ كُنْتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾(١).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَب رِيحُكُم وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين﴾(٢).

وتأسيساً على هذا الفهم نحاول استخلاص مظاهر الاتصال الحضاري في الإعلام الإسلامي فنجد أنه يقوم على الشورى والعدل كركنين أساسيين للوسيلة والهدف، وتبين الآيات الكريمة هذا التحول من النظام القبلي إلى الاتصال الحضاري في الإعلام الإسلامي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُم فَإِنَ تَنَازَعْتُم فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولَ إِن كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْم الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَن تَأْوِيلاً﴾(٣).

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُم وَلَو كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِن حَولِكَ فَاعْفُ عَنْهُم وَاسْتَغْفِر لَهُم وَشَاوِرْهُم فِي الأَمِر فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ﴾(٤).

والإسلام في تجدده وتجديده وانطلاقه وامتداده، ليس إلا تفسيراً حقيقياً للطبيعة المتجددة والطبيعة الممتده في الحياة، فالله جل شأنه قد مدَّ الظل ولو

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٠٢ و١٠٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية٤٦.
(٣) سورة النساء، الآية ٥٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

شاء لجعله ساكناً، كما قال في محكم آياته، والله لم يجعل الليل سرمداً ولم يجعل النهار سرمداً، ولكن جعلهما موصولين امتداداً وانطلاقاً إلى أبد الآبدين، ولو وقف الكونُ عند نهار دائم وحسب، أو ليلٍ دائم وحسب، لكان ذلك جموداً لا تصح به الحياة ولا يصح عليه الإحياء.

والإسلام من طبيعته التجديد وليس من طبيعته الجمود، وآية ذلك دعوته الدائمة إلى العلم وحثه عليه. وقد أعلى الإسلام من شأن العلم ولم يساوِ بين عالِم وغير عَالِم، لأنه يريد للناس والإنسانية أن يتجددوا مع الحياة، ولا يقفوا بها عند حد معين.

ولعل إيراد بعض آيات من مادة «العلم» في القرآن يساند هذه القضية، فالقرآن يقول: ﴿يَرْفَعُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1]، ويقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾[2]، ويقول: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُو ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِٱلْقِسْطِ﴾[3]. ويقول: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ﴾[4]، ويقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، فالعلم متغير، متجدد، قابل للتطور والارتقاء وليس كذلك العبادات، ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى العلم، لأنها دعوة إلى التجديد في الحياة.

وليس المقصود بالعلم هنا هو علم الدين كما فهمه بعض الجامدين من المسلمين، وجاراهم فيه خبثاء المستشرقين والباحثين في الإسلام، من أمثال «سيكار» الفرنسي الذي ملأ مجلة «مراكش الكاثوليكية» في الثلاثينات من هذا القرن بادعاءات وطعون في الإسلام زعم فيها أن الإسلام لم يَدْعُ إلى العلم بمفهومه العام، ولكنه دعا إلى علم الدين، وذلك ليجرد الإسلام من فضيلة الدعوة إلى العلم مطلقاً والحث عليه... ونسي المسكين الحديث النبوي:

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨.
(٤) سورة البقرة، الآية ٢٤٧.
(٥) سورة الزمر، الآية ٩.

«اطلبوا العلم ولو في الصين». فلو كان العلم هنا دينياً ما دعا النبي إلى طلبه في الصين، لأن أهلها من عباد الأوثان.. وهذا الحديث مما رواه العقيلي، وابن عدي، والبيهقي وابن عبدالبر عن أنس.

والإسلام ـ في دعوته إلى التجديد والانطلاق في آفاق الكون، والنظر في ملكوت السموات والأرض، وعدم الجمود عند حد معين ـ لم يجر على سنن غريب عليه، وليس منه... فهو في ذاته مجدد مصلح منذ أن دعا النبي إلى سبيل ربه... وهو أبو التجديد ورائده.. وخاصة في كثير من شؤون التشريع، فقد أتى على نظم الجاهلية وأدخل عليها من التجديد والإصلاح ما جعله حرياً بأن يوصل بالتجديد لا بالجمود...

لقد قلل من تعدُّد الزوجات وكان مطلقاً بلا قيود، وجعل نظام الميراث يتسع ليقبل المرأة والصغار من أبناء الميت، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: «لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها للولد الذكر والانثى والأبوين كرهها الناس وقالوا: «تعطى المرأة الربع والثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة». وهذا يدل على أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار من أبناء الميت، وإنما يورثون من يلاقي العدو ويقاتل في الحروب.

وإذا كان الإسلام قريناً للتجديد وداعياً له، فما بال المسلمين قد تأخروا ـ وخاصة في القرون الأخيرة إلى اليوم؟ ـ الحق أن هذا التأخر ليس من الإسلام، ولكنه من المسلمين حين جمدوا وركنوا إلى التوقف، بل مالوا إلى معاداة العلم ومحاربة الإصلاح وسدُّوا على أنفسهم باب الاجتهاد، وإلا فكيف نعلِّل ازدهار الإسلام وقوة المسلمين وتقدمهم في القرون الأُولى للإسلام، وتأخُّرهم وهوانهم على الناس وعلى أنفسهم في العصور الأخيرة مع أن الدين واحد والعبادات واحدة؟ الحق إن طرائق المسلمين الآن غير طرائق المسلمين السابقين، فليس غريباً أن تتفرق بهم السبل عن سبيل الله.

الأدب وتطور الاعلام الاسلامي

نحاول في هذا الفصل أن نعرض عرضاً سريعاً لتطور الإعلام الإسلامي، في إطار منهج الدعوة الإسلامية عبر التاريخ فيما بعد البعثة النبوية المباركة... في محاولة لتحليل الوسائل التي اتبعت في نَشْر الإسلام بالإعلام وحده، ودور الدعاة والتجار في هذا المجال تأسيساً على أن انتشار الإسلام لم يتم بالفتح وحده، لا سيما في الشرق الأقصى على شواطئ المحيط الهادي، وأواسط وجنوب أفريقيا ولذلك نحاول أيضاً أن نعرض عرضاً خاطفاً لكيفية دخول عشرات الملايين في الإسلام بدافع الاقتناع الذاتي عبر وسائل الإعلام المختلفة باختلال العهود والعصور.

منهج الإعلام الإسلامي

ذلك أن القرآن الكريم قد حدد منهج الدعوة الإسلامية، وهو المنهج الذي يدحض حجج بعض المستشرقين حول كون القوة عاملاً هاماً في انتشار الإسلام، فالمنهج القرآني في الإعلام الإسلامي يتضح من الآيات الكريمة التالية[1]:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾.

(١) ومرجعها على التوالي: سورة البقرة، الآية ٢٥٦؛ والنحل ١٢٥؛ والكافرون ٦؛ والنحل ١٤٢؛ والغاشية ٢١ و٢٢.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾.

وهذا المنهج القرآني هو الذي جعل الكثير من الناس يدخلون في الإسلام حباً وطواعية واقتناعاً لا خوفاً من السيف، بل إنهم احتملوا السيف في سبيل الله على نحو ما نعرف عن مسلمي مكة. أما مسلمو المدينة فقد أقبلوا على الإسلام مقتنعين. ذلك أن الإيمان بالله وحده هو أساس قيام المجتمع الإسلامي في الماضي والحاضر والمستقبل. وعن هذا الإيمان تتحقق أهداف الإعلام الإسلامي في تقوية أواصر الترابط وحسن العلاقات بين الأفراد والشعوب، والاستعداد والإعداد للدفاع عن الحق والمثل العليا.

الدعوة الإسلامية لم تنتصر بالسيف

من أجل ذلك لم تنتصر الدعوة الإسلامية في غزوة أول معركة فحسب، وإنما انتصرت انتصاراً كونياً غيَّر مجرى التاريخ، ونظَّم مسيرة الإنسان في العالم. ولقد سئل رسول الله ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى، فمن في سبيل الله؟. قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

ومن هذا الحديث ومن نهج القرآن الكريم في الدعوة الإسلامية يتكشف لنا منهج الإعلام الإسلامي في الإقناع بالحجة والمجادلة والموعظة الحسنة، ذلك أن الحروب والفتوحات في الإسلام لم يقصد منها إكراه أحد على الدخول في الإسلام، وبذلك استبعد الإسلام «جميع الحروب والفتوحات التي تثيرها العصبية الدينية بهذا المعنى والتي ذاق العالم من ويلاتها لا في الحروب الصليبية المعروفة فحسب، ولا في الاضطهاد

الاسباني للمسلمين في الأندلس فحسب، بل في كثير من بقاع الأرض، وفي كثير من أدوار التاريخ، والتي ما تزال البشرية إلى يومنا هذا تتجرع مرارتها وإن كانت تتخفى تحت عنوانات أخرى غير عنوان التعصب الديني»[١].

ولقد تبين في الفصل السابق كيف أن الإعلام الإسلامي إعلام إنساني، يستبعد من حسابه الحروب، كما يستبعد من سيادة عنصر أو تغليب جنس. فالناس قد جعلوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا، لا ليستذل بعضهم رقاب بعض، ولا ليسود جنس أو شعب. ومن ثم يتعين باعث واحد وهدف واحد للفتح الإسلامي هو الذي قال عنه الرسول ﷺ: لتكون كلمة الله هي العليا.

ويتضمن هذا المنهج الإسلامي في الإعلام أن يصبح الإسلام لله هو دين البشرية كافة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾[٢]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٣]. وما كان الجهاد إلا سبيلاً لبلوغ تلك الغاية السامية، بعيداً عن الإكراه في الدين، يقول الله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهِ ٱلنَّاسَ حَتَى يَكُونُوا مُؤْمِنِين؟﴾[٤]. فالاختيار والحرية من الظواهر الإنسانية في الإعلام الإسلامي، والإكراه والقسر من الوسائل الاستبدادية التي تتنافى وطبيعة الإسلام التي تكفل حرية الفرد فيما يعتقد، كما تكفل حرية الإعلام الإسلامي، لأن الإكراه على الإيمان يضاد طبيعة الحياة التي يعيشها الإنسان على الأرض، كما يضاد طبيعة الإنسان ذاتها التي يخاطبها الإعلام الإسلامي.

وهذه الطبيعة الإنسانية هي التي كرمها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حين قال جل شأنه ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم﴾[٥]، كما زود الله سبحانه وتعالى الطبيعة الإنسانية بالإدراك والشعور ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ

---

(١) سيد قطب: دراسات إسلامية، ص٣٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٨٥.
(٤) سورة يونس، الآية ٩٩.
(٥) سورة غافر، الآية ٦٤.

﴿نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾(١). وهذا الإدراك الإنساني هو الذي يتعامل معه الإعلام الإسلامي، تاركاً للإنسان الحكم على ما يرى أو يسمع أو يفكر، وأن يرجح بين أشياء أو أطراف ويختار ما يرجح لديه بأنه أصوب أو أفضل.

فالإكراه مرفوض في الإسلام الأمر الذي يجعل الإعلام الإسلامي ناهضاً على أسس من الحرية الإنسانية في الاعتقاد والإيمان، وهو لذلك يتوسل إلى الطبيعة الإنسانية بالإقناع الإنساني المهذب الذي حدَّد منهجه القرآن الكريم في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

والجهاد في الإسلام يمهد الطريق لحرية الإعلام الإسلامي، بقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾(٢). ذلك أن الجهاد يتيح للإعلام الإسلامي أداء الرسالة من خلال مقاومة القوى المادية التي تتمثل في الجبابرة والطغاة والأكاسرة، لتهيئة مناخ حرية الدعوة وحرية الاعتقاد وحرية الإعلام الإسلامي. فكل قوة مادية تقوم في وجه هذه الحرية هي قوة معتدية، وفي هذا السبيل كان الجهاد وكانت الفتوح الإسلامية في عهدها الأول حيث انتشر الإسلام داخل الجزيرة وخارجها. ولم يتقرر الجهاد إلا في حالة من حالتين: الوقوف بالقوة المادية في وجه الدعوة السلمية والإعلام الإسلامي، أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن دينهم أفراداً أو جماعات.

الفتوحات الإسلامية وانتصار الدعوة

فالفتوح الإسلامية إذن كانت تستهدف تحقيق رسالة الإسلام ليكون هو دين البشرية كافة، لا عن طريق الإكراه، ولكن عن طريق الدعوة والإقناع والإعلام، «وضمانا لحرية الدعوة، ولحرية العقيدة، ساقت الجيوش وخاضت

---

(١) سورة الإنسان، الآية ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

المعارك، وفتحت البلاد بعد أن قدمت الدعوة بين يـديها وأعلنت أنهـا الغايـة الأولى والأخيرة.

«ومن ثم تتهاوى جميع الأباطيل والمفتريات التي تقوّلها الغـربيون على الفتـوحات الإسـلامية، طبيعتهـا وبـواعثهـا، والتي نشـأ بعضهـا عن التعصب الديني ضد الإسلام والمسلمين، ونشأ البعض الآخـر عن سوء التفسيـر بسبب قيـاس المؤرخين الغربيين لفتـوحـات الإسـلام على فتـوحـاتهم هم، وقيـاس بواعث الفتوحات الإسلامية على الفتوحات الإمبراطورية الاستعمـارية عنـدهم في القديم والحديث»[1].

وقد نجح الإعلام الإسلامي في أداء رسالته النابعة من الإسـلام كعقيدة يقـوم عليها نـظام اجتماعي متميـز عن سائـر النظم الاجتمـاعيـة التي عـرفتهـا البشرية، ومن خصـائص الإسلام التي أدت إلى نجـاح الإعلام الإسـلامي أن الإسلام دين عالمي مبرأ من العصبية العنصرية ومن التعصب الديني، ومن ثم فهو يسمح لكل إنسان أن ينضم إلى مـوكبه في يسـر، وأن يتمتع فـور اعتناقـه بكافة الحقوق التي يتمتع بها أول مسلم من أي جنس ومن أي قبيلة. ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[2].

ومن الصور الرائعة في الإقناع عند الدعاة الأوائل في الإسـلام ما يـرويه المؤرخون حول قصة خالد بن الوليد والرومي جـورج أو جورجـة كما يـرد في بعض المصادر الإسلامية القديمة. وهي قصة تتضمن ثـلاث دلالات لهـا صلة بموضوعنا هذا من قرب، وتعني:

أولاً: إن الدعاة المسلمين على رغم من أنهم قـد أكرهـوا على القتال فـإنهم أبلوا بلاء حسناً، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وفي الـوقت نفسه لم يضرهم النصر بالسيف ويدفع بهم إلى الإمعان في القتال، بل كانوا

(١) سيد قطب: دراسات إسلامية، ص ٤٢.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

يؤثرون الدعوة السلمية بالإقناع والمجادلة والموعظة الحسنة على الاستمرار في القتال.

ثانياً: إن موقف خالد من القائد الرومي كشف عن منهج الإعلام الإسلامي من حيث التدرج في الإقناع والصبر عليه والصدق فيه، الأمر الذي يجعل المتلقي في هذه الحالة يقبل الدعوة الإسلامية إقبال المحب المقتنع الذي يتحول إلى مدافع عنها بكل ما يملك من غالٍ ونفيس.

ثالثاً: إن الحوار والجدل بين خالد وبين القائد الرومي جورج انتهى بالتأكيد على ما سبق أن ذكرناه حول عالمية الإسلام وتبرئته من العصبية العنصرية والدينية، فأكرم الناس عند الله أتقاهم في الإسلام.

فالقائد الرومي جورج يخرج من معسكره متحدياً أمير جيش المسلمين خالد بن الوليد أن يبرز له. فلما برز له وتقاربا بجواديهما وقد أمن كل منهما صاحبه دار الحوار الآتي بصوت خفيض:

ـ أصدقني ولا تكذبني يا خالد فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع.

ـ فيم يا جورج؟

ـ هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاه؟ فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟

ـ لا والله.

ـ لماذا سميت بسيف الله إذن؟

ـ إن الله سبحانه بعث فينا نبياً دعانا، فنفرنا ونأينا عنه، ثم إن بعضنا كذبه وباعده وقاتله.

ـ وهل كنت من ذلك البعض؟

ـ نعم، ثم إن الله أخذ بقلوبنا فهدانا به فتابعناه

ـ أهو الذي سماك سيف الله؟

ـ نعم. قال: . . . أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين.
ـ وإلام تدعوني؟
ـ إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، والإقرار بما جاء به من عند الله.
ـ ومن منزلة مَنْ يدخل فيكم اليوم؟
ـ منزلتنا واحدة فيما فرض الله علينا شريفنا ووضيعنا، أوَّلنا وآخرنا.
ـ وهل لمن دخل فيكم اليوم مثل ما لكم من الأجر؟
ـ نعم وأفضل.
ـ كيف يساويكم وقد سبقتموه؟
ـ إنَّا دخلنا في الإسلام وبايعنا نبيه وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات.. وحق لمن يرى ما رأينا ويسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع وأنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج.. فمن دخل اليوم في الإسلام بحقيقة ونية صادقة كان أفضل منا.
ـ والله لقد صدقتني... أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

بهذا التدرج في الإقناع يتضح ما نعنيه بإنسانية المنهج في الإعلام الإسلامي، واعتباره أن السيف مجرد وسيلة لتهيئة المناخ الملائم للدعوة التي تعتبر هي الأصل، والسيف هو الاستثناء.

ولذلك يمكن القول إن الإعلام الإسلامي ـ لكونه إنسانياً يحرص على إقناع البشر بقيم الإسلام الخالدة ـ استطاع أن يفيد من الفتوح الإسلامية في الإقناع الخالص، لأن هذه الفتوح هيأت حرية الإعلام والدعوة وحرية العقيدة والعدالة المطلقة لجميع الناس.

بل إن الصليبيين حينما جاؤوا إلى الشرق إبان ضعف الخلافة العباسية بهدف محاربة الإسلام والقضاء عليه، لم يتحقق لهم حلمهم، وإنما اعتنق

الإسلام جموع كثيرة منهم انخرطت في صفوف المسلمين تحارب أبناء دينها الأول من الصليبيين. يقول توماس أرنولد: «لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً حتى العهد الأول، أي في القرن الثاني عشر، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضاً إلى المسلمين حتى ساعات انتصار المسيحيين».

وحينما تعرض الإسلام لهجمات المغول الضارية وقف رجاله في مواجهتها بالعقيدة، وسرعان ما دخل المغول في الدين الذي حاربوه. يقول سير توماس أرنولد: «لا يعرف الإسلام من بين ما نزل من خطوب وويلات خطباً أعنف من غزوات المغول، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه».

ويذهب المؤرخون المنصفون[1] إلى أنه لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم، فقد كانت الحروب تشتعل وكان المسلمون ينتصرون، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف، وحينئذ يتقدم الدعاة ورجال الإعلام الإسلامي فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه، وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوب المغلوبة الفرق الكبير بين حكم قيصر وطغيانه وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه. وبالدعوة والإعلام الإسلامي دخل الناس أفواجاً في الدين الجديد، فمنهم مَنْ أسرع في اعتناقه، ومنهم مَنْ دخل بعد عام أو خمسة أعوام أو عشرة أو مائة.

ويقول أحدهم: «إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى في القرن التاسع

(١) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٧٩.

الميـلادي كانت لا تـزال مسيحية، على الـرغم من أن الإسلام كـان قد مضى عليه في هذه البقاع أكثر من قرنين»[١].

فالإسلام لا يُكره أحداً على اعتناقه، ولـذلك يجيء الإعـلام الإسلامي ليقـوم بالإقنـاع والموعـظة الحسنة، على نحـو ما نعـرف من دخـول الإسـلام إفـريقية كمـا يقول أحـد المستشرقين ذلـك أن الإعلام الإسـلامي قد تـوسـل بـالثقافـة والفكر والـدعوة فـانتشر الإسـلام بين شعوب البـربر، وقـامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت في التاريخ دوراً كبيراً[٢].

وعن انتشار الإسلام في إفريقية يقول الكاتب المسيحي الفرنسي هوبيـر ديشان[٣] حاكـم المستعمرات الفرنسية بإفريقيا حتى سنة ١٩٥٠:

«إن انتشار دعوة الإسـلام بإفـريقيا لم يقم على العكس وإنمـا قام على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طـولاً إلا إيمانهم العميق بدينهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قـوم فكان إذا مـا اعتنقته الأرستقـراطية وهي هـدف الدعـاة الأول تبعتها بقيـة القبيلة. وقـد يَسَّرَ انتشـار الإسلام أمـر آخر هـو أنه دين فـطرة بطبيعتـه، سهل التنـاول، لا لبس ولا تعقيد في مبـادئه، سهـل التكييـف والتـطبيق في مختلف الـظروف، ووسـائـل الانتسـاب إليـه أيسـر وأيسـر، إذ لا يـطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عـداد المسلمين. وقد حبب الإسـلام إلى الإفـريقيين مـظاهـره البعيــدة عن التكلف، مثـل الثــوب الفضفاض والمسبحة والكتـابة العـربية والـوقار الـديني وشعائـر الصلاة، ممـا يضفي على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة، فالـذي يدخـل في الإسلام ولو في الظاهر يشعر بأنه أصبـح ذا شخصية محتـرمة، وأنـه قد ازداد من القـوة والحيوية».

---

(١) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٧٩.
(٢) د. أحمد شلبي: المرجع السابق، ص ٢٨٠.
(٣) هوبير ديشان: الديانات في إفريقية السوداء، ص ١٢٨ ـ ١٢٩، د. أحمد شلبي، المرجع السابق ص ٢٨١.

تلك شهادة شاهد من أهلهم تؤكد الحقيقة التاريخية للانتشار الإسلامي بالإقناع والإعلام، وتدحض ما يزعمه الزاعمون حول انتشار الإسلام بالسيف.

الإعلام الدولي والاتصال التدويني في عهد الرسول

وهكذا دخل الناس ويدخلون إلى ما شاء الله في الإسلام أفواجاً فحينما كان الرسول ﷺ في حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة دان بالإسلام في حياته أكثر من مائة ألف، والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافاً مضاعفة، فلقد تمكّن الإسلام من أنفس هؤلاء جميعاً، ولما كان الإعلام الإسلامي عاماً بنص القرآن الكريم، توسل الرسول ﷺ بالإعلام التدويني إلى جانب الإعلام الشفهي والاتصال الشخصي والجمعي، فأرسل كتبه ودعاته إلى الملوك ورؤساء الأمم يدعوهم إلى الإسلام حتى لا يكونوا ممن يصد عنه أو يقف في سبيل دعوته.

وقد اختار عليه السلام من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة بالإعلام الإسلامي وأرسلهم ألى الملوك، فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولاً إلى ملك الروم وكتب له كتاباً هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك».

وتحفل المصادر بروايات مختلفة عن كيفية استقبال هرقل لدحية وإن كانت تجمع جميعاً على الأثر الإيجابي لرسالة النبي ﷺ ومن ذلك أن هرقل بمجرد أن قرأ الكتاب استدعى أعوانه ودعاهم إلى اتباع ما بشر به كتابهم المقدس من قبل من أمر محمد الوارد في الإنجيل، وكان رد الفعل من جانبهم مباشراً ومخالفاً لما أراد، فما كان منه إلا أن رجع عن قولته الأولى وخاطبهم بقوله إنما قال ما قال ليتأكد من مدى اقتناعهم بدينهم، وقد تبين له ذلك بما لا يدع مجالاً للشك.

وتذكر رواية أخرى عن ابن اسحاق، أن هرقل قال لدحية حين بلغه الكتاب: ويحك! والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته. فاذهب إلى ضغاطر الأسقف فاذكر له صاحبكم، فهو والله أعظم في الروم مني وأجوز قولا عندهم مني، فانظر ما يقول لك.

قال: فجاءه دحية فأخبره بما جاء به رسول الله ﷺ إلى هرقل وبما يدعوه إليه، فقال ضغاطر: صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتابنا باسمه، ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداء ولبس ثياباً بيضاء، ثم أخذ عصاه فخرج على الروم وهم في الكنيسة، فقال: يا معشر الروم إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عز وجل، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن أحمد عبده ورسوله. قال: فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال: قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولا مني.

واجتمع الروم على حرب المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومَنْ تبعه، وكانت وقعة مؤتة، كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الأمر قبل استفحاله ولكن القرآن الكريم كان قد حدث المسلمين من قبل عن هزيمة الروم في «سورة الروم». وفي ذلك صورة من صور الإعجاز الإعلامي في القرآن الكريم، وإخباره عن أمور وقعت في المستقبل وما كان لأحد أن يعلمها إلا من قبل العليم الحكيم اللطيف الخبير الذي لا يغيب عن علمه شيء من السماء ولا في الأرض. ومن ذلك إخبار القرآن الكريم عن هزيمة الفرس بعد غلبهم، فقال سبحانه ﴿**أَلم * غُلِبَت ٱلرُّوم فِي أَدْنَى ٱلأَرْضِ مِنْ بَعْد غَلَبِهِم سَيُغْلَبُون * فِي بِضْعِ سِنِين**﴾[1].

وقد حدث ما أخبر به القرآن... فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك

(١) سورة الروم، الآيات ١ - ٤.

وهزم الفرس في بضع سنين، وما كان النبي ﷺ ممن حضر هذه الحرب وعرف سبب الغلب وما يتوقع من بعده.

ولقد توسل النبي ﷺ بالإعلام التدويني في الدعوة الإسلامية والاتصال الدولي، فبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث بن شمر الغساني صاحب دمشق وكتب إليه: «سلام على من اتبع الهدى وآمن به. إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك». ولما وصله الكتاب قال: «من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه». ولم يسلم. وبعث عمرو بن أمية الضمري ومَنْ معه من مهاجري الحبشة. ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفراً وأجاب إلى الإسلام. كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة.

كما بعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ومعه كتاب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا. أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس».

فمزق كسرى كتابه، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «مزق الله ملكه». ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. فاختار باذان رجلين ممن عنده وبعثهما بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فلما قدما المدينة وقابلا النبي ﷺ قال أحدهما: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك مَنْ يأتيه بك. . وقد بعثني إليك لتنطلق معي. وقالا قولاً تهديدياً. في ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه، وعلم رسول الله الخبر من الوحي فأخبرهما بذلك فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنَّا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ قال: نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر،

وقولا له إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء. فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه: انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري. وكان ذلك سبباً في إسلام شيرويه ومَنْ معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء.

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم، وهو الذي بعث إلى رسول الله ﷺ بمارية القبطية أم إبراهيم، فكان بذلك رحم بين العرب وأهل مصر. وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين، وعمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزديين.

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلمهم بدعوته ويطلب منهم اتباعه، وكان هذا الإعلان سبباً في إجابة البعض وشاغلاً لفكر الآخرين. فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد دخلت في الإسلام، ومعظم الناس في البلدان الأخرى قد بدأوا يفكرون في هذا الدين الجديد ويتناقلون أخباره، إلى أن تمت الفتوحات فدخلوا فيه أفواجاً إذ كانوا قد هيئوا لذلك من قبل.

وهكذا يمكن القول إن انتشار الإسلام لم يتم بالفتح وحده، وإنما كان الفتح بمثابة تمهيد الطريق أمام حرية الإعلام الإسلامي وإتاحة الفرصة أمام رجاله ليبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة، لأن الرسول ﷺ بعث رحمة للعالمين، وكان العالم في تلك العصور يئن تحت نير ظلم الطغاة والأباطرة المستبدين الذين لا يقرون حرية الإعلام الإسلامي، ولا يمكّنون الرسول عليه الصلاة والسلام من أداء رسالته، ومن هنا كانت فريضة الجهاد. يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية ٧٦.

الجهاد وحرية الاعلام الاسلامي

فحرية الإعلام الإسلامي تقتضي الجهاد بهدف الحفاظ على الإيمان بالله ونَشْر كلمته، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كَلَّ خَوَّانٍ كَفُور * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِير * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللَّه ٱلنَّاسَ بَعْضهُم بِبَعْض لَهُدِّمَتْ صَوَامِعَ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّه مَنْ يَنْصُرُه إنَّ ٱللَّه لَقَوِيٌّ عَزِيز * ٱلَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُم فِي ٱلأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهوا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلأُمُور﴾(١).

فوعْد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بنصره أمْرٌ قرَّره القرآن الكريم، ويصفهم الله تعالى بأنهم إذا مكن لهم في الأرض وهيأ لهم حرية الإعلام الإسلامي حققوا إيمانهم بالله في مظاهره من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء رسالة الإعلام الإسلامي من أمر بالمعروف ونَهْي عن المنكر، يقول الله في كتابه الكريم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّه هُوَ ٱلْحَق وأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وإنَّ ٱللَّه هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِير﴾(٢).

ومن هنا كانت الفتوحات الإسلامية تمهيداً لحرية الإعلام الإسلامي، فأقبل الناس في مشارق الأرض ومغاربها على اعتناق الإسلام لقوته الذاتية، وما يتضمنه من مبادئ كريمة ومثل عليا. وكان أمام رجال الإعلام الإسلامي في عهد الرسول ﷺ ومن بعده، في حياته أسوة حسنة، وما تدل عليه من دلالة عميقة في مسيرة الدعوة الإسلامية... الدعوة إلى هداية الله. وليس هناك تغيير عن الإخلاص الكامل لله أبلغ من أن تكون حياة صاحب الدعوة إليه كلها وقفاً على عبادته والتوجُّه إليه، بحيث يصبح صاحب الدعوة المثل الأول للإنسان المؤمن منهجاً وتطبيقاً.

(١) سورة الحج، الآيات ٣٨ ـ ٤١.
(٢) سورة الحج، الآية٦٢.

ظهر هذا المغزى العميق في انتشار الإسلام داخل الجزيرة العربية أولاً ثم ما سمع عنه الفرس والروم وعن انتصاراته وعن مبادئه السمحة بعد ذلك، لأنهم لأول مرة يسمعون عن دين يدعو إلى المساواة بين الناس ولا يجعل فضلا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى فكان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون رغبة حتى اضطر القائد الفارسي في نهاوند أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا، وسميت هذه الموقعة «موقعة ذات السلاسل»، وفعل الروم مثل ذلك أيضاً.

وانتشر في فارس مبدأ الحق الإلهي المقدس، وكانوا مع الروم في معارك متصلة، وكانت الشعوب تضج تحت حكم الرومان، ولذلك كثيراً ما رحبوا بحكم المسلمين وانضموا إليهم في الكفاح.

يروي البلاذري أن المسلمين بعد أن أخلوا حمص أعدَّ الرومان جيشاً كبيراً ليستعيدوا به هذه المدينة، ولكن أهل حمص انضموا للمسلمين وقالوا: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم. ولندفعن جند هرقل عن المدينة معكم. وأقسموا ألا يدخل عامل هرقل المدينة إلا إذا غلبوا.

ويقول كيرك[1] Kirk إن غمار أهل المدن والريف في دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم كانوا يعيشون في ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين، فلم يدينوا بشيء من الولاء لهذا الحكم، ومن جهة أخرى نجد الكنيسة المسيحية باصطباغها الصبغة الرسمية دخلت في دور الجمود المسيطر على رجال الحكم. ولم يبق في الكنيسة شيء من الإخاء الذي امتاز به صدر المسيحية، وحصل انشقاق في الكنيسة كان عامل الوطنية من أسبابه، ولو أنه اتخذ شكلاً دينياً حول تفسير طبيعة المسيح. ولم تثمر محاولات التقريب بين الطوائف المسيحية لأن الكنائس المحلية بدول الشرق

---

(١) M. Kirk: A short History of The Middle East, p.29.
موجز تاريخ الشرق الأوسط، ص ١٤، د. أحمد شلبي، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

الأوسط كانت تبغض الأباطرة وحكوماتهم، فكانت النتيجة أن توقفت محاولات الأباطرة لاسترضاء شعوب الشرق الأوسط وحلت محلها اضطهادات شنيعة وحشية. فاتسعت الهوة بذلك بين الفريقين إلى الأبد، وتطورت الأمور في بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحد الذي يجعلها لقمة سائغة لأي فاتح يعرض عليهم من الحرية في شؤونهم ما لم ينالوه على يد أباطرة الرومان.

«وكانت الفرس تستعمر بلاد العراق، وكان الاضطهاد الديني ببلاد الفرس على أشده. وضعف سلطان الساسانيين الذي امتدَّ حوالي أربعة قرون، وزال حكم يزدجرد الثالث آخر ملوكهم وكان شاباً في الحادية والعشرين قليل التجارب ورث دولة ضعيفة لا يستطيع السير بها في ركب الحياة».

وفي ضوء هذه الاعتبارات كانت الفتوحات الإسلامية سبيلاً لتوفير حرية الإعلام الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ونذكر هنا ما قاله الدكتور حتي في كتابه تاريخ العرب:

«وكان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الأدنى مجده السامي الغابر، فقد جاء الإسلام مهيباً بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ما فيه لا في ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة أيضاً، حيث تسنَّى له أن يعيد قيادته الفكرية».

ويقول كيرك[١] Kirk: «ورأى الأهلون في المسلمين المساواة التي كانوا

---

(١) Kirk: A Short History of The Middle East, p.29.

لا يحلمون بها، وقام المسلمون بكثير من الاصلاحات التي تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والري والهندسة والجسور، وكان القانون الإسلامي يسري على المسلمين فقط، أما غير المسلمين فقد ترك الفصل في شؤونهم للقانون المدني الذي كان معمولاً به قبل الفتح، ووضع أمر تنفيذه في يد رؤسائهم الدينيين وهذا هو منشأ استقلال الطوائف الدينية بشؤونها المالية، ذلك النظام الذي ظل سائداً في البلاد الإسلامية إلى وقت انهيار الدولة العثمانية، والذي لا يزال معمولاً به في الشؤون المالية في معظم ممالك الشرق الأوسط التي لم يوجد فيها القضاء بجعله مدنياً بحتاً لا دخل فيه للشريعة».

وفي هذا المناخ الذي وفره الفتح الإسلامي، قام رجال الإعلام والدعوة الإسلامية يؤدون رسالتهم الإعلامية فيتحدثون عن الإسلام وأخلاقه ومبادئه ومن غير إكراه، فأقبل أهل هذه البلدان على الإسلام معتنقين، وانتشر الإسلام وانتشرت معه اللغة العربية... لغة القرآن والإعلام الإسلامي، وأفاد الإعلام الإسلامي من التنظيمات الحضارية في الدولة الإسلامية، ذلك أن الإسلام دعوة إلى الحق، وهو ما جاء به القرآن الكريم خاصاً بهداية الناس ويطلب الإيمان بما أنزل فيه من تحديد للصراط المستقيم، وهو في جانب الدعوة إلى الحق لا يجعل للمؤمنين ولاية على قوم، ويمنعهم من أن يمارسوا ضغطاً أو إكراهاً في أية صورة من صور الإكراه للإيمان والإسلام.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُم أَنفُسَكُم لاَ يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم إِلَى اللَّهِ مَرْجِعكُم جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

ومن هنا كان المنهج الإسلامي للإعلام واضحاً ومحدداً أمام رجال الدعوة الإسلامية، في توفير الحرية في مشيئة الإنسان عندما يدخل في الإسلام.

فالمنهج الإسلامي للإعلام والدعوة إذن يرفض الإكراه في الدين والعقيدة، كما يذهب إلى أن تكون الهداية واضحة تجعل قبول الإسلام

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٠٥.

لذاته، كما أن إطار الرسالة الإسلامية للإعلام والدعوة إطار سلمي، إطار قدوة للعمل الخير المستقيم، فلا يعظ الإعلامي الإسلامي بقول دون أن يحققه هو في سلوكه، ولا يرفع مبدأً أو شعاراً دون أن يطبقه التطبيق العملي في حياته.

وبهذا المنهج سار الدعاة ورجال الإعلام الإسلامي في كل البلدان يوجهون دعوتهم إلى الله، في إخلاص وتجرد عن الغل والحقد تجاه من لا يؤمن بهذه الدعوة بعد عرضها عليه، مسترشدين بقول الله تعالى ﴿فَإِنْ عَصوكَ فَقُلْ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُون﴾[1].

الاعلام الاسلامي في إفريقية

ونكتفي هنا بالحديث عن انشار الإسلام في إفريقية بالإعلام الإسلامي وحده والذي استغرق وقتاً أطول من الفتوحات الإسلامية الأولى، حيث زاد في إفريقية على عشرة قرون، وعن انتشار الإسلام بالإعلام والدعوة في إفريقية يتحدث الكاتب المسيحي هوبير ديشان الذي كان حاكماً للمستعمرات الفرنسية بإفريقية سنوات طويلة، وشاهد بنفسه تقدم الإسلام وانتشاره.

يقول: «إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم يقم على القسر، وإنما قام على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا إيمانهم العميق بدينهم.

«وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأول، تبعتها بقية القبيلة، وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين الفطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف ووسائل الانتساب إليه أيسر وأسهل، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٦

سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين[1].

وإذا كان «ديشان» قد أوضح أن نشر الإسلام بإفريقية كان بالسلم فإن كاتباً غربياً آخر يؤكد أن نشر المسيحية بهذه القارة كان يتم في أكثر الأحوال قسراً وبالعنف والإلزام.

يقول سير توماس أرنولد Sir Thomad Arnold: «في سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعاً يضم رجال الكنيسة الحبشية، وقرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد في كافة أنحاء المملكة، وإلزام المسلمين بالتعميد خلال ثلاث سنوات والوثنيين خلال خمس سنوات، بيد أن الملك سرعان ما استطال هذه المهلة، فأذاع بعد أيام قليلة مرسوماً أنذر فيه كل الموظفين المسلمين بأن المهلة الممنوحة لهم هي ثلاثة أشهر فقط».

ويعلق Massaia الذي ينقل عنه T. Arnold أن كثيرين من الموظفين خضعوا لهذا التنصير الإجباري ولكنه كان تنصيراً عديم الأثر، ويروي أنه شاهد بعضاً من هؤلاء يخرجون من الكنيسة بعد التعميد قاصدين المسجد يلتمسون فيه رجلاً مباركاً من رجال دينهم يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذي أرغموا عليه.

ويقول الرحالة روبل Rubell إنه كثيراً ما لاحظ أثناء رحلاته ببلاد الحبشة، أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص أميناً كل الأمانة موثوقاً به تمام الثقة، كان اختيارهم يقع على شخص مسلم[2].

وفي سنة ١٨٠٢ م أصدر مجلس العموم البريطاني بحثاً يؤكد فيه أن الإسلام قد سما بالإفريقيين الذين اعتنقوه إلى درجة جعلتهم قدوة للآخرين، وسبباً للدخول في الدين الإسلامي، ومن هذا البحث ما يلي:

---

(١). هوبير ديشان: الديانات في إفريقية السوداء، ص ١٢٨ - ١٢٩.
(٢) نقلا من توماس أرنولد: السابق، ص ١٣٩.

«منذ مدة لا تزيد على سبعين عاماً، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلاً، اسمها بلاد الماندنجو، وكما هي العادة عند فقهاء هذا الدين «الإسلام» فتح هؤلاء مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد، وجروا على عادات المسلمين وخاصة في عدم بَيْع أبناء دينهم بَيْع الرقيق، وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان، وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبياً، كما جلبوا إليها الاتحاد والطمأنينة، وكان من أثر ذلك أن ازداد السكان زيادة سريعة وانتقل إلى أيديهم شيئاً فشيئاً كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها، أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فإنهم يسيرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للماندنجو، ويعودون ومعهم قسط وافر من الدين والشريعة، وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير، ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشاراً سلمياً في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة الماندنجو، حاملا تلك المزايا التي تتغلب فيما يظهر دائماً على خرافات الزنوج»(١).

ولقد كان موقف الإسلام من الرق والتمييز العنصري سبباً من الأسباب القوية التي دفعت بالإفريقيين إلى اعتناق الإسلام الذي جعل الناس سواسية أمام الله، وكفل لهم الحرية، وأتاح لهم فرص الحياة الإنسانية الكريمة، وكل هذا لم يجده في غيره من الديانات أو النظم الوضعية.

وفي هذا المعنى يقول سير توماس أرنولد: «ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم في إفريقية الزنجية تقدماً جوهرياً، بسبب عدم أي إحساس باحتكار

---

(١) Claude George: The Rice of British West Africa, pp.130- 131.

الأسْوَد. وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسْـوَد قط على أنه من طبقـة منحطة كما كانت الحال لسوء الحظ في العالم المسيحي».

وإلى جـوار ما سبق ذكـره عن انتشار الإسـلام بقوتـه الذاتيـة وإمكانيـاته الطبيعية وما يدعو إليه من قيم عليا، نجد أن الداعية الإسلامي كان مثلاً أعلى أمام هؤلاء الإفريقيين، وكانت وسائله الإعلامية إسلامية في مضمونها وشكلها ومظهرها ومخبرها، مما يجعلنا نقرر أنهم قد سبقوا كل ما ذهبت إليه النظريات الحـديثة في الإعـلام حول ضـرورة أن يكون المصـدر محل ثقـة على النحـو الذي فصلناه في غير هذا الموضع.

وقـد وصـف D.J.E. Ast الـدعـاة المسلمين في إفـريقيـة بقـولـه «إنهـم يحظون بأوفر نصيب من الإجلال... وفي بعض قبائل إفـريقية الغـربية تضم كل قرية دارا لاستقبالهم والحظوة بهم. وهـم يعاملون بـأعظم مـظاهر الإقـدام والتقـدير، ففي دارفـور يحتلون أعظم مكـانة بعـد هؤلاء الـذين يشغلون أكبـر منـاصب الحكومـة، كما يحتلون بين المـاندنجـو مكانـة أعظم شـأناً وينـالون احتراماً يلي مكانة الملك، ولذلك يعتبر الرؤساء أقل منهم هيبة.

وفي الـدول التي اتخذ فيهـا القرآن أسـاسـاً للحكم في كـل المسـائـل المدنية تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجـاً شديـداً لكي يفسروا معـاني القرآن، وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين أنـه لا يتعرض لهم أحـد حين يجـوبون خـلال إمارات يعـادي بعضها بعضـاً، أو يباشـر أصحـابهـا مـع بعضهم البعض حـربـاً فعليـة، ويجلهم الناس مثـل هذا التبجيـل لا في البـلاد حيث يحتـرمهم الناس بـاعتبارهم معلمي أبنـائهم، ويعتبـرونهم واسـطة بينهم وبين الله، سـواء في الحصول على حـاجاتهم أو في درء المصـائب وصـرفهـا عنهم.

---

(١) Claude George: The Rice of British West Africa, pp.130- 131.

الاعلام الاسلامي في حاضره

نواصل في هذا الفصل دراسة الإعلام الإسلامي في حاضره تأسيساً على أنه حقق خلال عصور الدعوة الإسلامية وظائفه المنشودة، متوسلاً بكل الوسائل الإعلامية المتاحة شفهياً أو تدوينياً أو هما معاً.

تطوُّر الإعلام الإسلامي في وسائله

ومن ذلك مثلاً أن الإعلام الشعري كان من الوسائل التي تجمع بين خصائص الحضارة السمعية والحضارية التدوينية، فقامت قصائد حسان بن ثابت بدور كبير في مناصرة صاحب الدعوة الإسلامية، ثم في عصر بني أمية وجد ما يسمى بالشعر السياسي على نحو ما نعرف عن جرير والفرزدق والأخطل والراعي، وازدهر هذا الشعر في العصر السياسي الذي استخدم في الدعاية المذهبية للسنة، أو المعتزلة، أو الشيعة والخوارج، ثم في عهود الخلافة الفاطمية والسلطنة الأيوبية وعهد المماليك، وهي العهود التي شهدت الحروب الصليبية، كان للشعر المكان الأول في الإعلام والدعاية، وبالشعر كما بالسيف نجح الفاطميون في مصر، وبالشعر كما بالسيف نجح صلاح الدين وأولاده في محاربة الصليبيية وفي التغلب عليهم وطردهم من البلاد الإسلامية.

وبقيت للإعلام الشعري مكانته ووظيفته السياسية والاجتماعية والإعلامية والدعائية إلى يومنا هذا، ففي كل حادث هام أو موقف من المواقف السياسية والاجتماعية الخطيرة، نسمع صوت الشاعر إلى جانب صوت الصحفي.

أما الدور الذي لعبه الإعلام الخطابي دينياً وسياسياً في تاريخ العرب الديني والسياسي، فلا يقل في خطورته عن دور الإعلام الشعري ما لم يكن أكبر منه، فالإعلام الخطابي منذ ظهور الإسلام وسيلة أساسية للإعلام الإسلامي اعتمد عليها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام في نشر الدين الجديد، وفي شرح المبادئ التي نادى بها في الجزيرة العربية.

واعتمد الإعلام الإسلامي الخطابي عبر العصور وحتى عصرنا هذا، حيث أفاد من الوسائل التكنولوجية، وفي التراث الإسلامي نماذج رفيعة للإعلام الخطابي على نحو ما يتضح في خطب الإمام عليّ كرّم الله وجهه، وفي خطب الراشدين والدولة الأموية والعباسية، بل وفي خطب الحروب الصليبية حيث بلغ الإعلام الخطابي الديني السياسي مداه في إثارة المشاعر والخواطر، وفي التهيئة للحرب، وإذا ما انطلق النفير العام للقتال ارتفعت أصوات الخطباء في المساجد الكبرى في كل من القاهرة ودمشق أو القدس، وذلك لتحميس المسلمين وتهيئتهم للجهاد في سبيل الله، حتى إذا انتصر الجيش الإسلامي تسابق الخطباء إلى إلقاء الخطب التي كان أشهرها وأروعها إذ ذاك ما يُلْقى في المسجد الأقصى، وكما نجد الشعراء في الوقت نفسه يتسابقون كذلك إلى نظم القصائد التي تثني على الأبطال، وقد عرفت القصائد التي نظمت في تهنئة صلاح الدين مثلاً بانتصاراته على الصليبيين في يوم حطين، باسم مشهور في تاريخ الأدب العربي هو «القدسيات».

فالإعلام الخطابي في رأينا مظهر من مظاهر الاتصال الشخصي الذي هو أخطر وسائل الإعلام قديماً وحديثاً، ولذلك وجدنا هذه الوسيلة الإعلامية لا تختفي في عصر الوسائل التكنولجية، بل إن الإذاعة والتلفزيون والصحف

تحرص جميعاً على تسجيل هذه الخطب وإذاعتها بهدف توسيع الحوار ليشمل الناس جميعاً.

فلقد أفاد الإعلام الإسلامي إذن من هذه الوسائل ومن غيرها، كالكتاب والمناظرة والندوة، وكل وسائل الاتصال المتاحة في عصور الحضارة السمعية والتدوينية، وحينما يطل عصر الحضارة الطباعية تصبح الصحافة علامة من علامات الإعلام الحديث والمعاصر.

الإعلام الإسلامي في العصر الحديث

ولكن الإعلام الإسلامي إذ تتاح له وسائل اتصال جديدة، قد مر في العصر الحديث بثلاثة أدوار:

محمد بن عبدالوهاب... ويقظة الإعلام الإسلامي

الدور الأول: وهو ما يمكن أن نطلق عليه «يقظة الإعلام الإسلامي»، حيث انبعثت الدعوة الوهابية من قلب الجزيرة العربية مطالبة بتجديد العقيدة السلفية والرجوع بالدين إلى أصوله الأولى، والابتعاد عن البدع الدخيلة.. فكان لهذه الدعوة أثر كبير في نفوس المسلمين، إذ بعثت فيهم روحاً جديدة، وأحدثت يقظة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.

وفي توضيح هذا المغزى يقول العالم الإسلامي الشهير أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»:

«ورأى الشيخ محمد بن عبدالوهاب في أثناء إقامته في الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي، أن هذا التوحيد الذي هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ودخله الكثير من الفساد.

«فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم، والمسيطر عليه وواضع قوانينه التي يسير عليها، والمشرع له، وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ولا في حكمه ولا مَنْ يُعينه على تصريف أموره، لأنه تعالى ليس في حاجة إلى عَوْن أحد مهما كان من المقربين إليه، هو الذي بيده

الحكم وحده وهو الذي بيده النفع والضر وحده لا شريك له، فمعنى لا إله إلا الله ليس في الوجود ذو سلطة حقيقية تسير العالم وفقاً لما وضع من قوانين إلا هو، وليس في الوجود مَنْ يستحق العبادة والتعظيم إلا هو، وهذا هو محور القرآن ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١].

إذن فما بال العالم الإسلامي اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة، إلى أن يشرك مع الله كثيرا من خلقه! فهذه الأولياء يحج إليها وتقدم لها النذور ويعتقد أنها قادرة على النفع والضر، وهذه الأضرحة التي لا عداد لها تقام في جميع أقطاره يشد الناس إليها رحالهم ويتمسحون بها ويتذللون لها ويطلبون جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم. ففي كل بلدة ولي أو أولياء، وفي كل بلدة ضريح أو أضرحة، تشترك مع الله تعالى في تصريف الأمور ودَفْع الأذى وجَلْب الخير، وكأن الله سلطان من سلاطين الدنيا يتقرب إليه بذوي الجاه وأهل الزلفى لديه، ويرجحون في تغيير القوانين وقضاء الحاجات، أليس هذا كما كان يقول مشركو العرب ﴿مَا نَعْبُدُهُم إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٢] وقولهم ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[٣]؟ بل وأسفاه لم يكتف المسلمون بذلك بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد، فهؤلاء أهل بلدة منفوحة باليمامة يعتقدون في نخلة هناك أن لها قدرة عجيبة مَنْ قصدها من العرائس تزوجت لعامها، وهذا الغار في الدرعية يحج إليه الناس للتبرك، وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا، ففي مصر شجرة الحنفي ونعل الكلشني وبوابة المتولي[١]. وفي كل قطر حجر وشجر، فكيف يخلص التوحيد من كل هذه العقائد؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣.

(٣) سورة يونس، الآية ١٨.

(٤) شجرة الحنفي، شجرة كانت في جامع الحنفي بالقاهرة يتبرك بها، ونعل الكلشني نعل قديمة في تكية =

«إنها تصد الناس عن الله الواحد وتشرك معه غيره، وتسيء إلى النفوس وتجعلها ذليلة وضيعة مخرفة، وتجردها من فكرة التوحيد وتفقدها التسامي».

هكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شريك، وفكرة التوحيد في التشريع فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة.

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبدالوهاب، وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات.

اقتفى محمد بن عبدالوهاب في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو «ابن تيمية»، وهو ـ مع أنه حنبلي ـ كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة. وكان حر التفكير في حدود الكتاب وصحبة السنة، ذلق اللسان، قوي الحجة، شجاع القلب لا يخشى أحداً إلا الله، ولا يعبأ بسجن مظلم ولا تعذيب مرهق، فهاجم الفقهاء والمتصوفة ودعا إلى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها، وألف في ذلك الرسائل الكثيرة، ولم يعبأ بما ورد في الكتاب والسنة، وخالف إمامة أحمد بن حنبل حين أداه اجتهاده إلى ذلك.

ويظهر أن محمد بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية، فأعجب به وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها، وفي المتحف البريطاني بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب. دعا «محمد عبد الوهاب» مثله إلى ترك البدع والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة، ولا بوساطة توصل ولا شفاعة، وزيارة القبور تكون للعظة والاعتبار لا للتوسل والاستشفاع، فهم لا يملكون شيئاً بجانب الله وقوانينه الثابتة التي لا تختلف، والتي نظم الله بها الكون، فالذبح للقبور، والنذور لها، والاستغاثة بها، والسجود عندها شرك لا يرضاه

الكلشني يزعمون أن الماء إذ شرب منها ينفع للتداوي من العشق، وبوابة المتولي بالقاهرة أيضاً مملوءة بالمسامير بها تعلق الشعور والخيوط لقضاء حاجة من علقها.

الله، وهو هدم للتوحيد الذي جاء به الإسلام من أساسه، ومثل ذلك تجصيص القبور وبناية الأضرحة وتشييد الأبنية عليها وكسوتها بالحرير المذهب وما إلى ذلك، فكل هذه لا يعرفها الإسلام.

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام من عادات وتقاليد، فلا اجتماع لقراءة مولد، ولا احتفاء بزيارة قبور، ولا خروج للنساء وراء الجنازة، ولا إقامة أذكار يغنى بها ويُرقص، ولا محمل يتبرك به ويتمسَّح ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم وهو ليس إلا أعواداً خشبية لا تضر ولا تنفع.

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال، ويجب أن يعود إلى الإسلام بساطته الأولى ونقاؤه وجاذبيته، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك فلا إله إلا الله معناها كل ذلك، والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد كدلائل الخيرات وما في البردة من مثل قوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حدوث الحادث العممِ

وقوله؛

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلا وإلا فقل يا زلة القدمِ

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ونحو ذلك من أقوال فاسدة كاذبة، فلا التجاء إلى الله، ولا اعتماد إلا على الله سواء كان في الدنيا أو الآخرة.

لقد كان محمد بن عبدالوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسياتهم ليس له سبب إلا العقيدة، فقد كانت العقيدة الإسلامية في أول عهدها صافية نقية من أي شرك، وكانت لا إله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخوف من الموت في سبيل الحق، وعدم الخوف من استنكار المنكر، والأمر بالمعروف

مهما تبع ذلك من عذاب، ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت في رَفْعِ لواء الحق ودَفْعِ الظلم، وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام، وبهذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحموا، ثم ماذا؟

ثم لم يتغير شيء إلا العقيدة، فانحدروا من سمو التوحيد إلى حضيض الشرك فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد خشب وقبور أولياء! وركنوا إلى ذلك في حياتهم العامة، فالزرع ينجح لرضاء ولي، ويخيب لغضبه والبقرة تحيا إذا نذرت للسيد البدوي أو مثله، وتموت إذا لم تنذر، وهكذا في الأمراض والعلل والغنى والفقر كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية وإنما ترجع إلى غضب الأرواح ورضاها، ومثل هذه النفوس الضعيفة التي تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تقف أمام الولاة الحكام الظالمين تأمرهم بمعروف أو تنهاهم عن منكر، فذلوا للحكام والأغنياء، كما ذلوا للخشب والأحجار، وما زال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عدداً وتزداد النفوس ذلة، حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فَقْدِ سيادتها وانهيار عزتها، ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحقة، ولا بد من هدم هذه البدع والخرافات ـ باللين إن نجح وبالقوة إن لم ينجح ـ والله المتسعان»

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها، ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها، فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس هما القلب إن صلحا صلح كل شيء، وإن فسدا فَسَد كل شيء.

هذا هو جوهر الدعوة التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب.

وتناول الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية، الدعوة في بحث نشره سنة ١٣٥٤ هـ عن الحياة الأدبية في جزيرة العرب، وهذا ما قاله عنها:

«ولا يستطيع الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة العرب أن يهمل حركة عنيفة نشأت فيها أثناء القرن الثاني عشر الميلادي، فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب واضطرته أن يهتم بأمرها، وأحدثت فيها آثاراً خطيرة هان شأنها بعض الشيء، ولكنه عاد فاشتد في هذه الأيام وأخذ يؤثر لا في الجزيرة العربية وحدها، بل في علاقاتها بالأمم الأوروبية.

«هذه الحركة هي الحركة الوهابية التي أحدثها محمد بن عبد الوهاب شيخ من شيوخ نجد، نشأ محمد بن عبد الوهاب في بيت علم وفقه وقضاء، تثقف على أبيه ثم رحل إلى العراق فسمع من علماء البصرة وفقهائها، وأظهر فيها آراءه الجديدة القديمة معا، فسخط عليه الناس وأخرج من البصرة، وكان يريد أن يذهب إلى الشام فحال الفقر بينه وبين ذلك، فعاد إلى نجد وأقام مع أبيه حيناً يناظر ويدعو إلى آرائه، حتى ظهر أمره وانتشر مذهبه وانقسم الناس فيه قسمين فكان له أنصار وكان له خصوم، وتعرضت حياته آخر الأمر للخطر فأخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر ليجيروه، ويجمعوا دعوته، حتى انتهى به الأمر إلى الدرعية. وهناك عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود فأجاره وبايعه على المعونة والنصرة، ومن ذلك اليوم أصبح المذهب الجديد مذهباً رسمياً يعتمد على قوة سياسية تؤيده وتحميه. بل تنشره في أقطار نجد بالدعوة اللينة حينا وبالسيف والحرب في أكثر الأحيان.

«وعن هذا التحالف بين الدين والسياسة نشأت في الجزيرة العربية دولة سياسية عظم أمرها، واشتد خطرها حتى أشفق منها الترك أشد الإشفاق قاوموها ما وسعتهم المقاومة، فلما لم يفلحوا استعانوا بالمصريين، وكان أمرهم إذ ذاك إلى محمد علي باشا، فنجح المصريون في إضعاف هذه الحركة وإزالة هذه الدولة الجديدة ورَدِّ أمرائها إلى ما كانوا عليه من قبل ذلك الوضع. فلا بد من وقفة قصيرة عند هذا المذهب الجديد لنعرف ما هو وما مبلغ تأثيره في الحياة العقلية العربية في هذا العصر الحديث.

«قلت إن هذا المذهب جديد وقديم معاً، والواقع أنه جديد بالنسبة إلى

المعاصرين، ولكنه قديم في حقيقة الأمر، لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل الشوائب والشرك والوثنية، وهو دعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصاً لله وحده ملغياً كل واسطة بين الله وبين الناس، هو إحياء للإسلام وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب، فقد أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة... كانوا يعظمون القبور ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله، ويعظمون الأشجار والأحجار ويرون أن لها من القوة ما ينفع ويضر، وكانوا قد عادوا إلى سيرتهم إلى حياة العرب الجاهليين فعاشوا من الغزو والحرب ونسوا الزكاة والصلاة، وأصبح الدين اسما لا معنى له، فأراد محمد بن عبد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قوماً مسلمين حقا، على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً.

«ومن الغريب أن ظهور هذا المذهب الجديد في نجد قد أحاطت به ظروف تذكر بظهور الإسلام في الحجاز، فقد دعا إليه باللين أول الأمر فتبعه بعض الناس، ثم أظهر دعوته فأصابه الاضطراب وتعرض للخطر، ثم أخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض النبي نفسه على القبائل، ثم هاجر إلى الدرعية وبايعه أهلها على النصر كما هاجر النبي إلى المدينة، ولكن ابن عبد الوهاب لم يرد أن يشتغل بأمور الدنيا فترك السياسة وأصحابها أداة لدعوته، فلما تم له هذا دعا الناس إلى مذهبه فمن أجاب منهم نجا، ومن امتنع أغرى عليه السيف وشبَّ عليه الحرب، وقد انقاد أهل نجد لهذا المذهب وأخلصوا له الطاعة وضحوا بحياتهم في سبيله على نحو ما انقاد العرب للنبي وهاجروا معه.

«ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها، لكان من المرجو أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول.

«ولكن الذي يعنينا من أمر هذا المذهب أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب، وقد كان هذا الأثر عظيماً خطيراً من نواح مختلفة، فهو قد أيقظ النفس العربية ووضع أمامها مثلاً أعلى أحبته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان، وهو قد لفت المسلمين جميعاً - وأهل العراق والشام بنوع خاص - إلى جزيرة العرب».

وتناول الأستاذ عباس العقاد في كتابه «الإسلام في القرن العشرين» حركة الإصلاح هذه، وقال ما نصه:

«وظاهر في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقي في رسالته عنتاً فاشتد كما يشتد مَنْ يَدعو غير سميع، ومن العنت إطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع، والتماس المصالح بغير أسبابها، وإتيان المسالك من غير أبوابها، وقد مرَّ على البادية زمن كانوا يتكلمون فيه على التعاويذ والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين، ويدعون السعي من وجوهه توسلاً بأباطيل السحرة والدجالين، حتى الاستسقاء، ودفع الوباء، فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوانٍ من البدع والخرافات».

وقال أيضاً في الكتاب نفسه وهو يتكلم عن كتاب التوحيد تأليف الإمام ما يلي:

«إن الكتاب الذي تضمن دعوة الشيخ - وفيه يحصي الشيخ الذنوب التي تكفر صاحبها وتعتبر شركا بالله، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الأحبار والأولياء.

«ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.

«ومن الشرك اتخاذ الرقى والتمائم للوقاية، والتبرك بالشجر والحجر والذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستعانة بغير الله، والعبادة عند القبور، وأن الغلو في عبادة الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، وأن الكهانة

والعيافة والتبطير والتنجيم من الشيطان، وأورد الشيخ الآيات والأحاديث التي تحرم الاستسقاء بالأنواع وأنكر على الصوفية تأويلاتهم وخوارقهم، واستشهد على تحريم الصور بقوله عليه السلام فيما يرويه عن ربه: ومن أظلم ممن ذهب بخلق كخلقي؟ ويقول عن عائشة: أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله. وحذر من المغالاة في تعظيم النبي عليه السلام مستشهداً بقول أنس: إن ناسا قالوا: يا رسول الله يا خيرنا وابن سيدنا. فقال: أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل.

«وكان الشيخ ينكر الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام: إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو. وقوله عليه السلام: هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون».

وأدى الأستاذ أحمد حسين العالم المصري ومؤسس حزب مصر الفتاة فريضة الحج في سنة ١٩٤٨ م/ ١٣٦٧ هـ، ثم أصدر بعد عودته كتاباً فيما جعل اسمه «مشاهداتي في جزيرة العرب»، وهاك ما كتبه عن الدعوة ومؤسسها العظيم، قال بعد أن وصف ما كانت تخب فيه جزيرة العرب من جهالة قبل ظهور الدعوة ما يلي:

«وفي وسط هذا الجو ولد محمد بن عبد الوهاب، كان أبوه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان قاضي بلدة العيينة وكان شيخاً عالماً جليل القدر فقرأ على أبيه الفقه وسرعان ما ظهرت عليه علائم النجابة، وبدأ يدرك على الفور ما تردت فيه البادية من همجية وردة عن دين الإسلام، وبدأت تجيش نفسه بما تجيش به نفس كل مصلح من عزم على تغيير هذا الحال فما إن بلغ من العمر عشرين ربيعاً حتى بدأ يستخدم فصاحته وعلمه في مناقشة انداده وأضرابه ـ بل ومَنْ هم أكبر منه سنا ـ في فساد الحال، فلم يجد منهم أُذُناً مصغية، خوف بطش العامة وطغيانهم».

وبعد أن ذكر سفر الشيخ إلى الحجاز وأداءه فريضة الحج، وذهابه إلى

البصرة ورجوعه ثانية إلى نجد، وهجرته إلى الدرعية واستقراره فيها واتفاقه مع محمد بن سعود، ختم هذا البحث بقوله:

«تلك هي قصة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما بدأت والتي لم تكمل حتى الآن، فلا يزال أحفاد محمد بن سعود وأحفاد الشيخ محمد يحملون لواء التوحيد وينافحون عنه، وإذا كان العالم الإسلامي كله اليوم تحت تأثير النور والعرف فإنه قد بدأ يدرك بفطرته هذا الذي دعا إليه محمد بن عبد الوهاب ويتعشقه فسيظل التاريخ يسجل لآل سعود الذين كانوا أول من نصره واستجاب له».

وقال الأستاذ فيليب حتي وهو مؤرخ لبناني في كتابه «تاريخ العرب»:

«ولقد تأثر محمد بن عبد الوهاب بفكرة هي أن الإسلام كما يمارسه معاصروه قد انحرف كثيراً عملياً ونظرياً عن طريق السنة التي استنها القرآن، وقرر أن ينقيها هو بنفسه».

وقد تناول المستر لوثروب ستودارد الأميركي في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» وقد عرّبه الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان حركة الإصلاح الديني فقال:

«بلغ العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري أعظم مبلغ من التضعضع ومن التدني والانحطاط، فاربدَّ جوُّه، وطبقت الظلمة كل صقيع من أصقاعه ورجاء من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، أما الدين فقد غشيته غاشية سوداء فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة من الخرافات والقشور من الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء والجهلاء، وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويؤمون الناس بالأباطيل والشبهات، ويرغبون في الخروج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور.

«وغابت عن الناس فضائل القرآن، ونال مكة والمدينة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين، وهبطوا مهبطاً بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الإسلام لغضب.

«وبينما العالم الإسلامي مستغرق في هجعته، ومدلج في ظلمته، إذا بصوت يدوي من قلب الصحراء في شبه الجزيرة العربية مهد الإسلام، فيوقظ المؤمنين، ويدعوهم إلى الإصلاح والرجوع إلى سواء السبيل، والصراط المستقيم، فكان الصاروخ لهذا الصوت إنما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب، الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت، ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على إصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامي القويم».

وقد تناول المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» الحركة الوهابية بالدرس والتحليل في الجزء الرابع، وهذا ما قاله:

«واصطدم محمد علي باشا بحركة انبعاث وطنية كبرى... ومفصل ذلك أنه ولد في نجد المرتفعة في قلب جزيرة العرب محمد بن عبد الوهاب من قبيلة تميم، ما بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (م)، ونشأ محبا للعلم، واقفاً نفسه على دراسةالفقه والشريعة، وقصد وفقاً للعادة القديمة إلى عواصم الشرق الإسلامي طلباً للعلم في مدارسها، وفي بغداد درس فقه الإمام أحمد بن حنبل[1] مؤسس آخر المذاهب السنية الأربعة، والذي دافع بشدة وثبات عن مبدأ الأخذ بالحديث والاعتماد عليه اعتماداً كليًّا، ضد نزعة الفقهاء القائلين بالأخذ بالرأي.

«ثم درس مؤلفات الشيخ ابن تيمية الذي كان قد أحيا في القرن الرابع

(١) لم يثبت أنه زار بغداد.

عشر تعاليم ابن حنبل، والواقع أن دراسته لآراء هذين الإمامين انتهت بـه إلى الإيمان بأن الإسلام في شكله السائد في عصره، وخاصة بين الأتراك، مشرب بالمساوئ التي لا تمتُّ إلى الدين الصحيح بنسب. فلما ذهب إلى بلده الأول سعى أول مـا سعى إلى أن يعيد إلى العقيـدة والحيـاة الإسـلاميـة صفـاءهمـا الأصلي في محيـطه الضيق، ولكنه لم يكن ينكـر مظاهـر التقـديس التي كـان يحاط بها «سعد» وهو الولي الخاص بمسقط رأسه «العيينة» ويفرض بين أتباعه القصاص المفروض على الزانية، حتى نفي من البلاد فلجأ في سنـة ١٧٤٠ م إلى الـدرعيـة فلقي حفـاوة وتـرحيبـاً، حتى إذا انقضت فتـرة قصيـرة اكتسبت تعاليمه أنصاراً ومريـدين. ولقد أنكـر تقديس الـرسول والأوليـاء على اختلاف صوره وكان ذلك قد شاع بين المسلمين منذ قـرون تقليداً للنصـرانية ـ وبعض الطقوس الدينية الأكثر بدائية، رامياً بالشرك أولئـك المسلمين الذين يشـاركون في هـذا التقـديس، والـذين يـأذن القـرآن بحـربهم حتى يـرجعـوا عن غيهم أو يبادروا.

«وأخذ الشيخ اتبـاعه بـأداء صلاة الجمعـة في شدة لا تعـرف الرحمـة، ونهى عن كل زينة في اللباس، وعن لبس الحريـر خاصـة، وحرم أيَّمـا تزيين أو زخرفة للمساجد والأضرحة، وليس فحسب بل لقد توسع في فَهْم التحـريم الإسلامي فمختلف ضروب المسكـر، فحرم تـدخين التبغ الـذي أعلن جميع الفقهاء تقريباً من الحنابلة معارضتهم له أول دخوله إلى بلاد الشرق».

«والـواقع أن هـذا المصلح كان يتـأسى بسيرة الـرسول ويحـذو حـذوه، وينحو نحوه في التفكيـر، وكان الـرسول قـادراً على إلهاب نـار الحماسـة في قلوب أصحابه وعلى استثمار محبتهم العارمة للحرب في سبيل قضيته».

وقال الدكتور «اكوبرت فون ميكـوس» المؤرخ الألماني في كتـابه «عبـد العـزيز» وقـد صدر في ألمـانيا سنـة ١٩٥٣ ونقله إلى العـربيـة الـدكتـور أمين رويحة على الحركة الوهابية ما ننقله بحروفه:

«وكان لآل سعود إلى جانب سيفهم الذي يستخدمونه في الفتح، سلاح

معنوي آخر يدينون له بأعظم قسط من نجاحهم، ذلك السلاح من صنع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أحد رجال الدين المطاردين في سبيل عقيدتهم، والذي لجأ إلى «الدرعية» عاصمة آل سعود في ذلك الحين فلقي لديهم الحماية والأمان».

«وكانت تملأ قلب محمد بن عبد الوهاب فكرة تجديد القوى العربية على أساس ديني، ناسباً إلى ابتعادهم عن سيرة السلف الصالح وأنفاسهم إلى شيع، وإلى ابتعادهم عن خلقهم العربي الأصيل سبب تلاشيهم الذي جعلهم في متناول النفوذ الأجنبي، وقد لمس الشيخ محمد في رحلاته المتعددة، وشاهد بأم عينيه ضعف المسلمين وعجزهم عن مقاومة سلطان الغرب الذي كان يتغلغل أكثر فأكثر، حتى أصبحوا ضحايا رخيصة للمدنية الغربية».

«ورأى الشيخ أن سبيل الإنقاذ هو الرجوع إلى تعاليم الدين المشروعة.. إلى تعاليم الرسول الصحيحة، فراح يبشر بوحي من ضميره وعقيدته بمحاربة البدع التي أدخلت على الإسلام عبر العصور الغابرة، والضال المضل من تقارير علماء الدين، غير مقيم وزناً إلا لما نصَّ عليه القرآن صراحة، أو لما يمكن نسبته بصورة قاطعة للنبي محمد، وراح يحارب بكل قواه المستمدة من عقيدته الصلبة تقديس الأولياء وجعلهم واسطة بين الله والناس، وينادي بهدم الأضرحة ومزارات الأولياء وإزالة معالمها، اقتداء بالنبي الكريم الذي يحارب بدعة تقديس الهياكل وعبادة الأصنام الموروثة من الجاهلية، كذلك كان يحارب الميوعة والبهرجة في اللباس وطريقة العيش، والمظهر، والتنعم بالملاذ الدنيوية، وهي متع بخلت الطبيعة إلا بالقليل منها على الجزيرة العربية، لذلك كان الحصول عليها يقتضي الخضوع للأجنبي، وكان هدفه أن يجعل من بلاد العرب ومن موطن الإسلام مصدر بعثته الجديدة، فيتمرس أبناؤها بالحياة البدائية القاسية، ويتمسكون بوحدانية الله الذي هو مصدر كل شيءٍ في الوجود.»

«وكان مثل هذه الأفكار يجول في أذهان آل سعود عندما لجأ إلى

حماهم ذلك المبشر المطارَد، وتبنوا تعاليمه فقدموا لدعوته السيف الذي يحتاج إليه، والذي مهَّد لها طريق الانتشار، فإذا بالحركة الوهابية التي سُمِّيَتْ باسم مؤسسها عاصفة تجتاح البلاد العربية جميعاً».

«وبلغت الدعوة أوجها إبّان حكم سعود الكبير في القرن التاسع عشر، الذي تم له احتلال الجزء الأكبر من الجزيرة، حتى لكأن موكب النصر الوهابي يسير بحيث لا يتمكن أحد من الوقوف في وجهه، وفي نفس الوقت الذي كان فيه عرش السلطان «الخليفة» الذي داوم ٤٨٨ سنة مهدداً بالزوال، لاح أن نجم الحركة العربية الذي خبأ وتوارى وراء الغيوم مئات السنين يوشك أن ينبثق ولكن الوقت لم يكن قد حان، كما أن الإنسان العربي لم يكن قد تم نضجاً لذلك بعد».

وقال المستشرق الأستاذ ويلفرد كانتول في كتاب «الإسلام في نظر الغرب» ألفه جماعة من المستشرقين: «كان محمد بن عبد الوهاب يقول قبل كل شيء يجب أن تعيشوا حسب الشرع الإسلامي، وهذا هو معنى أن تكونوا مسلمين، لا ذاك الرغاء العاطفي والنفسي والحرارة التي يقدمها لكم الصوفيون، فأساس الإسلام هو الشرع، وإذا كنتم تريدون أن تكونوا مسلمين فيجب أن تعيشوا حسب أوامر الشرع».

وقال برنارد لويس في كتابه «العرب في التاريخ» ما يلي:

«وباسم الإسلام الخالي من الشوائب الذي ساد في القرن الأول، نادى محمد بن عبد الوهاب بالابتعاد عن جميع ما أضيف للعقيدة والعبادات من زيادات باعتبارها بدعاً خرافية غريبة عن الإسلام الصحيح».

وقال شيخ المستشرقين جولد تسهير النمسوي في كتابه «العقيدة والشريعة» ما يلي:

«وإذا أردنا البحث في علاقة الإسلام السنِّي بالحركة الوهابية، نجد أنه مما يسترعي انتباهنا خاصة من وجهة النظر الخاصة بالتاريخ الديني الحقيقة

التالية: يجب على مَنْ ينصف نفسه للحكم على الحوادث الإسلامية أن يعتبر الوهابيين أنصاراً للديانة الإسلامية على الصورة التي وضعها النبي والصحابة، أن الوهابية تريد إعادة الإسلام كما كان».

وقال المستشرق الفرنسي سيدو في كتابه «تاريخ العرب العام» وهو يتكلم عن الوهابية وسيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فرأى الشيخ أنه إذا حمل المسلمين على مراعاة أحكام القرآن بأحكام، رجعت إليهم تلك الحماسة التي تعود بها شريعة الرسول الخالصة إلى سابق عهدها».

وقال المستشرق البريطاني «جب» في كتابه «المحمدية»:

«وفي جزيرة العرب قام حوالي سنة ١٧٤٤ م (١١٥٧ هـ)محمد بن عبد الوهاب مع أمراء الدرعية آل سعود، لتحقيق الدعوة إلى المدرسة «المذهب» الحنبلية التي دعا إليها ابن تميمة في القرن الرابع عشر».

وقال أيضاً في كتابه «الاتجاهات المدنية في الإسلام»:

«أما في مجال الفكر فإن الوهابية بما قامت به من المقاومة ضد التدخلات العداونية، وضد الأصول القائلة بوحدة الوجود في الإسلام، فقد كانت عاملاً مفيداً للخلاص الأبدي، وحركة تجديد أخذت تنجح في العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً».

وجاء في دائرة المعارف البريطانية وهي تتكلم عن الوهابية ما يلي:

«الوهابية اسم لحركة التطهير في الإسلام، والوهابيون يتبعون تعاليم الرسول وحده ويهملون كل ما سواها. وأعداء الوهابية هم أعداء الإسلام الصحيح».

النهضة الإعلامية الإسلامية

الدور الثاني: وهو ما يمكن أن نطلق عليه «دور النهضة الإعلامية الإسلامية» وفي هذه المرحلة قام كثيرون من دعاة الإصلاح في معظم بلاد

العالم الإسلامي، حيث أثارت دعوة الحق التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب بعثاً جديداً في الأمة الإسلامية بأسرها، وسرت تعاليمها إلى اليمن والعراق والسودان وشمال أفريقيا، وانتشرت كذلك في بقاع نائية مثل نيجيريا وسومطره[1]، فظهر في اليمن الإمام الشوكاني[2] وسار على نهج الإمام محمد بن عبد الوهاب في دعوته واجتهاده، وأصبح له في اليمن تلاميذ ومريدون، وكانت دعوة «السيد أحمد» في الهند دعوة وهابية خالصة[3] فكان يدعو إلى نظام الإسلام الكامل، وتنفيذ الشريعة في الأرض، ومحاربة البدع والخرافات.

«ومع أن حركته لم تنجح في إقامة نظام الإسلام وتأسيس بنيان الحمية الإسلامية الراشدة المنشودة، فإنها نجحت في إيقاظ الحمية الإسلامية وبعث الهمم الراكدة»[4].

وانتشرت في الأمة الإسلامية الحركات الإصلاحية التي تدعو إلى العودة إلى المنابع الإسلامية الأولى، وكان بعض هذه الحركات الإصلاحية متأثراً بالدعوة الوهابية، مثل السيد أحمد في الهند، والإمام الشوكاني في اليمن، وكان البعض الآخر متأثراً بالحضارة الغربية التي بدأت تتسرَّب إلى البلاد الإسلامية، مثل السيد أحمد خان، والسيد أمير علي، ومدحت باشا، ومليكم خان، وغير هؤلاء كثيرين، كما تأسست الطرق الدينية المختلفة مثل السنوسية والقادرية والتيجانية والشاذلية[5].

الإعلام الإسلامي والجامعة الإسلامية

الدور الثالث: وهو الذي تطورت فيه التيارات الفكرية والحركات

(١) د. عبد الباسط محمد حسن: ص ٦٨.
(٢) عبد المتعال الصعيدي: المجددون في الإسلام من القرن الأول، ص ٤٧٢ - ٤٧٥.
(٣) د. عبدالباسط محمد حسن: ص ٦٨.
(٤) الندوي: نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، ص ٥٣
(٥) د. عبدالباسط محمد حسن: ص ٦٩.

الإصلاحية حتى أخذت صورتها الأخيرة التي عرفت باسم «الجامعة الإسلامية»، وفي هذا الدور ظهر جمال الدين الأفغاني ولاءَم بين مختلف التيارات التي ظهرت في الأمة الإسلامية، ودعا إلى تكوين جامعة إسلامية بعد أن تبلورت آراؤه في الإصلاح في المرحلة الأخيرة من حياته، حينما أصدر جريدة «العروة الوثقى» في باريس، وهذه الدعوة إلى الجامعة الإسلامية كان لها مظهرها السياسي من جهة، والاجتماعي من جهة أخرى، فمن الناحية السياسية دعا إلى الوحدة الإسلامية وتمكين الألفة بين المسلمين، وتقوية الروابط بينهم حتى يعودوا كما كانوا إخواناً متآلفين يجمعهم لواء دولة واحدة عظيمة، يقول جمال الدين من مقال «الوحدة الإسلامية» المنشور بجريدة «العروة الوثقى» ص ١٥٣ :

«فالمسلمون لا يحتاجون في صيانة حقوقهم إلا إلى تنبيه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع، واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه، وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار».

وعلى المسلم أن يأخذ بيد أخيه وأن ينظر إليه بما حكم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١)فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب».

«وإن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الإسلام، كل هذه الصفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة».

ثم يسأل الله تعالى «ثباتاً للمسلمين على أصول الاتحاد وقواعد الألفة، وأن لا يميل بهم الهوى إلى جَعْل الاختلاف في المسائل الثانوية سبباً في حلِّ الجامعة الإسلامية التي قوامها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن لا يجعلوا هذا الخلاف ذريعة العدو إلى مَحْق ملتهم وإفساد ولايتهم. . والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل».

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٠.

ومن الناحية الاجتماعية اتجه جمال الدين إلى التجديد الديني لمواجهة الحملات العنيفة التي شنها الأوروبيون على الإسلام، وما تضمنته من أكاذيب ومفتريات، وما ذهب إليه مبشروهم المسيحيون إلى إتهام الإسلام بأنه غير قابل للإصلاح والتجديد.

جمال الدين الأفغاني وتجديد الإعلام الإسلامي

وتأسيساً على هذا الفهم اتجه جمال الدين بدعوته إلى التجديد الديني، وطالب المسلمين في «الرد على الدهريين» بتحقيق نهضة دينية تلائم مقتضيات العصر الحديث، وذلك بأن «تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة»، وقال: «إن الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبراهين في أصول دينهم، وكلما خاطب العقل، كلما احتكم إلى العقل»، ثم طالب جمال الدين بأن يكون في كل أمة تنظيم إعلامي إسلامي تتولاه طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة، وطائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيفها، ذلك أن الإعلام الإسلامي عند جمال الدين يقوم على أساس أن «الإسلام لم يكن عقبة في سبيل أي لون من ألوان المعرفة»، بخلاف أكاذيب «رينان» الذي قال: «إن الإسلام لا يشجع على العلم والبحث الحر»، ولذلك رد عليه جمال الدين ردًّا علمياً أفحمه وجعله يتنازل عن كثير من هذه الترهات.

فالإعلام الإسلامي ـ إذن ـ في هذا الدور دعا على يد جمال الدين المستنيرين من المسلمين إلى النظر في حالتهم لتحقيق نهضة دينية تلائم مقتضيات العصر الحديث، وتبين لهم أن الإسلام إذا فهم على وجهه الصحيح يستطيع أن ينمو نمواً طبيعياً، وأن يتقدم تقدماً يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العلمية وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية.

ولقد كانت «الجامعة الإسلامية» نتاجاً للإعلام الإسلامي في هذا الدور التاريخي، وهي الجامعة التي تنظر لوحدة العالم الإسلامي على أساس من رابطة الدين، ورابطة الحج، ورابطة الخلافة.

فالإسلام دين وجامعة، آخى بين المسلمين وجعلهم بنعمته إخواناً، فهو يسمو بهم فوق مستوى الأمم والعصبيات والأجناس، ويدعوهم إلى الاتحاد بقوله: ﴿إِنَّما ٱلْمُؤْمِنُون إِخْوَةٌ﴾، «لا عصبية في الإسلام».

يقول جمال الدين: «وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول، إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملَّتهم، وذلك أيسر ما يكون عليهم من بعد تمكين الجامعة الدينية بينهم، . . . وإن لدى المسلمين شدة في دينهم، وقوة في إيمانهم وثباتاً على عقيدتهم وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض».

«وإن اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق من أصول دينهم».

«وما هذا بغريب على المسلمين، فإن رابطتهم الملِّية أقوى من روابط الجنسية واللغة، وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته ما لا يصعب على افهام قارئيه، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم».

فالإعلام الإسلامي ـ عند جمال الدين ـ عامل أساسي من عوامل تحقيق الإعلام الإسلامي لأغراض الاتحاد بين المسلمين وتعاطفهم، ففي كل عام يلتقي في مكة عدد كبير من المسلمين من مختلف أرجاء العالم، وفي القرن الماضي كانت بلاد الحجاز قبلة كل قاصد علم يبغي التفقه في أمور الدين والانقطاع للعبادة، كما كانت موطن التفكير الديني الخالص، ومنبت كل دعوة وإرشاد حتى قيل «إن الدارس للثقافة العربية ليدهش من السرعة التي كانت تنتقل بها المعلومات بين أطراف العالم الإسلامي»، وذلك لأن مكة هي واسطة العقد في الإعلام الإسلامي الذي ينتشر منها إلى أقصى أرجاء العالم، وقد قصد جمال الدين مكة لأداء فريضة الحج، وظل بها نحو سنة فأدرك أهمية الحج في الإعلام الإسلامي، ولذلك يقول: «إن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع البعض لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت، وليس بعسير عليهم ذلك

بعـدما اختص الله من بقـاع الأرض بيته الحـرام بالاحتـرام، وفرض على كـل مسلم أن يحجـه مـا استـطاع، وفي تلك البقعـة يحشـر الله من جميـع أجيـال المسلمين ـ عشائرهم وأجناسهم، وما هي إلا كلمـة تقال بينهم من ذي مكـانة في نفوسهم حتى تهتز لها أرجاء الأرض، وتضطرب لها سـواكن القلوب وهذا ما أعدتهم له العقائد الدينية»(١).

وهو يطالب رجـال الإعلام الإسـلامي في جميع أنحـاء الأمة الإسـلامية بأن يرتبطوا معاً «ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شؤون وحدتهم ويجمعوا أطراف الوشـائج إلى مقعـد واحد يكـون مركـزه في الأقطار المقدسة وأشرفها بيت الله الحرام»(٢).

ومن ذلك يتضح مكان الحج في الإعلام الإسلامي عند جمال الـدين، وأثره في تقوية الروابط بين المسلمين، والاعتماد عليه كـوسيلة إعلام عـظمى عن الجامعة الإسلامية.

الأمـر الذي يـرتبط في رؤياه كـذلك بـالخلافـة كوسيلة لجمـع الكلمـة وإعادة الوحدة بين المسلمين، ولذلك أراد أن يعيد لها مكانتهـا القديمـة حتى تستعيد الأمة الإسلامية مجدها وقوتها، ومن قوله:

«كانت الملة كجسم عظيم قـوي البنية، صحيـح المزاج، فنـزل به من العوارض ما أضعف الالتئام، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام: عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الأنـدلس، تفرقت بهذه كلمة الأمة، وانشقت عصاها، وانحطت رتبة الخلافة»(٣).

ثم اتجهت آمال جمال الدين نحو إيران فطالب بالقضاء على الخلافات

---

(١) جمال الدين الأفغاني. مقال «الوحدة والسيادة» في «العروة الوثقى»، ص ١٦٨.

(٢) جمال الدين الأفغاني. مقال «انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك»، في «العروة الوثقى»، ص ٩٤

(٣) جمال الدين الأفغاني. مقال «انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك»، في «العروة الوثقى»، ص ٩١ و ٩٢.

المذهبية بين السنة والشيعة، ليكون ذلك بداية لاتحاد الإيرانيين والأفغانيين. . وكان يطالب بأن يكونوا للوحدة الإسلامية دعامة، كما كانوا للنشأة الإسلامية وقاية، فليس ببعيد على همم الإيرانيين أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية وتقوية الصلات الدينية»[1].

العروة الوثقى والصحافة الإسلامية

ويعنينا في صدد دراستنا للإعلام الإسلامي، أن نخصص جانباً لجريدة «العروة الوثقى» على اعتبار أنها من الصحف الرائدة للإعلام الإسلامي في العصر الحديث، والذي نعم بالطباعة كوسيلة من وسائل النشر والإعلام، ذلك أنه قد تبين مما سبق أن جمال الدين قد توسل بالوسائل الإعلامية المعروفة في عصره وقبل عصره، ولذلك ذهب إلى باريس ليصدر هذه الصحيفة التي أراد لها أن تعبر عن آراء «جمعية العروة الوثقى» وهي جمعية إسلامية تكونت في ذلك الوقت، وكان القائمون عليها جماعة من أهل مصر والهند سعوا إلى إعادة الحكم الإسلامي، ودعوة الأمم إلى الاتحاد والتضامن ومقاومة الاستعمار في الهند ومصر، وأخذوا ينشرون الدعوة بوسائل الإعلام المعروفة في ذلك الحين، واتخذوا من موسم الحج وسيلة إعلامية بين المسلمين، ثم لجأوا إلى الصحافة كوسيلة حديثة في الاتصال بالمسلمين، وأرادوا أن تكون لهم صحيفة، وتصدر بلسان عربي، في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع شريعتهم، وتذهب مذهبهم[2].

وكان الشيخ محمد عبده ـ في ذلك الحين ـ بمنفاه في بيروت، وكتب رسالة إلى السيد جمال الدين قال فيها:

---

(١) جمال الدين مقال «دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغانيين» في «العروة الوثقى» ص ٢١٦.
(٢) العروة الوثقى خاتمة المقالات، العدد اول، ص ٤٢ ـ ٤٣.

«وها نحن سالكون في سننك وعلى سننك، وكنا كذلك ولا نزال إلى انقضاء الأجيال، ولولا أطفال لنا رضع، ونساء لنا طوع، أبَيْنا لهم الذل، وأنفنا لهم الضيم، فأتينا بهم إلى هنا - إلى حيث أقمنا - لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس».

ولم يلبث السيد جمال الدين أن بعث للشيخ محمد عبده ليوافيه في باريس، وليعملا معاً في جريدة العروة الوثقى وليكون محررها الأول، فأجاب الشيخ محمد عبده السيد جمال الدين، وسافر إلى باريس في أوائل عام ١٨٨٤ م، ووسع الشيخ محمد عبده صيغة القسم الذي يربط أعضاء جمعية العروة الوثقى وقد جاء فيه:

«واقسم بالله العالم بالكلي والجزئي، والجلي والخفي، والقائم على كل نفس بما كسبت والأخذ لكل جارحة بما اجترحت، لأحكمن بكتاب الله في أعمالي وأخلاقي بلا تأويل ولا تضليل، ولأدعون لنصرته.. أقسم بالله لأبذلن ما في وسعي لإحياء الأخوة الإسلامية..».

وكانت هذه الجمعية تنفق على الجريدة لتوزع مجاناً على كل من يطلبها، ولقد صدر العدد الأول من العروة الوثقى في ٥ جمادى الأول من عام ١٣٠١ هـ - الموافق ١٣ مارس من عام ١٨٨٤ م، وكان السيد جمال الدين مديراً للجريدة والشيخ محمد عبده محرراً لها، ولذلك جمعت مقالاتها بين روح السيد جمال الدين وقلم الشيخ محمد عبده، فجمعت بين قوة المعنى ورصانة الأسلوب وكان يقوم بالترجمة من الصحف الإنجليزية فارسي اسمه «مرزا محمد باقر» تعلَّم في مدارس الهند الإنجليزية وهو صغير، فتنصر وسُمِّي «ميرزا يوحنا»، وكان السيد جمال الدين قد عرفه من قبل في ثغر «بوشير» في إيران، وكان يقول الأشعار في هجاء الرسول، ولكنه لم يلبث أن جعل يتردد على السيد جمال الدين من وقت إلى آخر إلى أن وافاه بباريس وأخبره برجوعه إلى الإسلام، وأظهر استعداده لخدمة الإسلام والمسلمين،

وعرض على «السيد» رغبته في العمل بجريدة العروة الوثقى، فكلفه بالترجمة عن اللغة الإنجليزية التي كان يتقنها نثراً ونظماً.

ولقد لخصت الجريدة إغراضها في عددها الأول، ومنها:

١ - إفهام الشرقيين واجباتهم التي كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات.

٢ - إفهامهم كذلك أن الأمل في النجاح قريب، وإزالة ما حل بهم من اليأس.

٣ - دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما يصلح به أوله.

٤ - الدفاع عما يُرْمَى به الشرقييون عموماً - والمسلمون خصوصاً - من التهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم.

٥ - إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

٦ - تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية.. وتمكين الألفة بين أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينهم.

ومن تحليلنا لمضمون العروة الوثقى يتضح أنها عنيت بهذه الأغراض جميعاً، في إطار الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

يقول السيد جمال الدين:

«إذا تصفحنا تاريخ كل جنس، واستقرأنا أحوال الشعوب في حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظة على حسب تطاولها في الغلب.. وما أهلك الله قبيلاً إلا بعد ما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق».

ويقول أيضاً:

«وليس على المسلمين في استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى

مقـامهم الأول، إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعـاونوا على مـا يقصدون من إعـزاز ملتهـم».

وكان يبدأ مقالاته بآيات من كتاب الله وأحاديث الرسول، معظمها يـدعو إلى الاتحاد ويحض على تَرْك المنازعات بين المسلمين، من ذلك ما افتتح به بعض مقالاته:

﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(١).

﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢).

ولقـد أحسَّ بعض سـاسـة الإنجليـز بخـطر «العـروة الـوثقى» وأخـذت الجرائد الإنجليزية تنادي بضرورة وقفهـا ومنعها عن الصـدور، فرد عليهم في العروة الوثقى بقوله:

«ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنـا بث أفكارنـا في البلاد الشـرقية، سـواء بهـذه أو بـوسيلة أخـرى إذا دعـا الحـال، فـإن أنصـار الحق كثيرون».

وكانت العروة الـوثقى توزع في مختلف أنحـاء العالم الإسـلامي، كما عنيت الجرائد الهندية بترجمة مقـالاتها ونقلهـا إلى اللسان الهنـدي، وخاصـة جريدة «أخبار دار السلطانة» التي تطبع في كلكتـا وجريـدة «مشير قيصـر» التي تطبع في الكهنوا».

ولم تلبث الحكومة الانجليزية أن أمرت بمنع العروة الوثقى من الدخول في مصر والهند، وانعقد مجلس النظار المصـري في القاهـرة، واهتم بالبحث في شأن «العروة الوثقى»، ثم أصدر قـراره إلى نظارة الـداخلية المصـرية بـأن تتشدد في منع الجريدة من دخول الأقطار المصرية «حفظا للنظام العمـومي». وقد علقت «العروة الوثقى» على هذا القرار بقولها:

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٦.

«وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر التي أعلنت أن كل من توجد عنده «العروة الوثقى» يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً، أما نحن فلا نظن أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوى على كرسي الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الحكم.

«فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلم أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها السلطة الانجليزية الظالمة، ذلك بعزائم أُولي العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى».

ولكن العروة الوثقى لم تلبث أن احتجبت، وسافر الشيخ محمد عبده إلى بيروت بينما بقي السيد جمال الدين في فرنسا، ومع ذلك ظل أثرها عميقاً في الأمة الإسلامية، يقول الشيخ رشيد رضا:

«سمعت أستاذنا الشيخ حسين الجسر ـ عالم سوريا الوحيد في الجمع بين العلوم الإسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية ـ يقول: ما كان أحد يشك في أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيما في العالم الإسلامي لو طال عليها الزمن».

انطلاقة جديدة للإعلام الإسلامي

ومن العروة الوثقى انطلق الإعلام الإسلامي إلى مرحلة جديدة على يد الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رضا، والشيخ مصطفى عبدالرازق، والأستاذ محمد فريد وجدي، والشاعر محمد إقبال، من الذين جعلوا الإعلام الإسلامي في العصر الحديث قائماً على تحكيم العقل، والرجوع إلى القرآن الكريم، فلفت الإعلام الإسلامي في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن أنظار الأوروبيين والمهتمين منهم بالإسلام بصفة خاصة.

فكان على الإعلام الإسلامي في هذه المرحلة أن يدافع عن الإسلام ضد أعدائه من الذين رموه بشتى التهم، على نحو ما فعل السيد

جمال الدين، وعلى نحو ما فعل الشيخ محمد عبده في رده على «جابرييل هانوتو» وزير الخارجية الفرنسية، وفي رده على فرح انطوان محرر مجلة «الجامعة»، وكان رده على خصومه قوياً وقائماً على أساس من التفكير المستقيم، كما كانت صحيفتا «اللواء» لمحررها مصطفى كامل و«المؤيد» لمحررها الشيخ علي يوسف في مصر معبرتين عن هذا الاتجاه أصدق تعبير وأحسنه.

إقبال والإعلام الاسلامي

أما إقبال فقد قام بدور كبير في الإعلام الإسلامي، يقول:

«إن على المسلم اليوم عملاً شاقاً، عليه أن يعيد النظر في الإسلام كله دون انقطاع عن الماضي، وقد أدرك جمال الدين الأفغاني خطر العمل وسمعته، وكان حرياً أن يكون حلقة حية بين اله اضي والمستقبل بنظره الثاقب، ونفاذه إلى حقيقة تاريخ المسلمين وتاريخ ثقافتهم، إلى ما أوتي من إدراك واسع يسَّرته له تجاربه في الناس والأخلاق، فلو قصر جهاده الدائب على الإسلام من حيث هو نظام للعقائد والأعمال الإنسانية لكانت قواعد الفكر الإسلامي اليوم أقوى وأَقْوَم».

إقحام القومية والعنصرية على الإسلام

ويمكن النظر إلى مواقف وأفكار جمال الدين الأفغاني على أنها كانت في نطاق مقاومة الاستعمار الذي كان يستهدف الانفراد بالتوجيه داخل الشعوب الإسلامية، والتبشير بالفكر الأوروبي وبالمسيحية، وتيئيس المسلمين من مستقبلهم وفي علاقتهم بإسلامهم، وكان للاستعمار دوره في دخول الاضطراب والبلبلة في جوهر أهداف الإعلام الإسلامي في مطلع القرن الحالي، بإقحام القومية والعنصرية وخلط بينهما وبين الإسلام، بصورة تفاعلت بعد ذلك بشكل خطير جداً أدَّى إلى ما نراه اليوم من تضارب في الأهداف وتباين في وجهات النظر واختلاف في الوسائل.

ولذلك وجدنا جمال الدين الأفغاني يحمل على السيد أحمد خان وينقد اتجاهه الطبيعي نقداً مرًّا في كتابه «الرد على الدهريين». وفي الوقت نفسه يدعو المسلمين جميعاً إلى العودة إلى القرآن الكريم، ونبذ الخصومة المذهبية، والرجوع إلى حال المسلمين الأول قبل انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة، وقتما قنع العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقُّه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه، كما كان الراشدون رضي الله عنهم[1].

إقبال يهاجم القاديانية

ووجدنا محمد إقبال يهاجم القاديانية هجوماً عنيفاً من الوجهة الإسلامية، وفي الوقت نفسه يكتب كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام».

ويوضح فيه محاولته لتقرير «علم الكلام» الإسلامي في صورة حديثة، كما يوضح مزايا التعاليم الإسلامية في خلق جماعة حية قوية، ويطلب إلى المسلمين أن يفهموا الإسلام في ضوء الحياة المعاصرة، وأن يسعوا في تكييفها وطبعها بطابع إسلامي، بدلاً من وقوفهم عند حد مفاهيم عصر الركود للمبادئ الإسلامية.

محمد عبده يهاجم الاستشراق

ونرى الشيخ محمد عبده يهاجم الاستشراق، ثم يضطره هذا الهجوم إلى الكتابة عن مزايا الإسلام بالنسبة للمسيحية، وفي الوقت ذاته يضع منهجه التربوي لفهم الإسلام في ضوء القرآن والسنة الصحيحة، بدلا من إسلام المتكلمين وإسلام أرباب الكتب المتأخرة التي كانت تعيش في عزلة عن الحياة العامة نفسها، وهذه الحياة العامة نفسها طابعها هو الانقسام إلى شيع، والتعصب والتقليد الضار، والضعف السياسي والاقتصادي، وسينعكس هذا كله على كتابات العصر لو عاشت فيه.

(١) العروة الوثقى، ص ٧٨.

حملات الاستشراق الصليبي

ولقد واجه الإعلام الإسلامي حملات شرسة من جانب الاستشراق الصليبي الذي تستر بدوره بستار البحث العلمي والمعرفة الفعلية، فيحدثنا المستشرق النمساوي «ليوبولد فايس» الذي أسلم وتسمى باسم «محمد أسد»، وتولى رئاسة قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الباكستانية فترة من الزمن، يحدثنا في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» عن أثر الحملة الصليبية في تشويه الإسلام، وعن دراسة الاستشراق لتعاليمه، يقول:

«إلا أن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شرًّا ثقافيًّا! لقد نشأ تسميم العقل الأوروبي عما شوهه قادة الأوروبيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلية في الغرب! في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوروبيين. . . من أن الإسلام دين شهواني، وعنف حيواني، وأنه تمسك بفروق شكلية وليس تزكية للقلوب وتغييراً لها، ثم بقيت هذه حيث استقرت!

«إن من أبرز الحقائق على ذلك، الفيلسوف والشاعر الفرنسي فولتير، وهو من ألد أعداء النصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر - لكنه كان في الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام»[1].

أما وصفه لعمل «المستشرقين» فيودعه في عباراته الآتية: «لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة. . . كما هو الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات عدا الإسلام، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على مدد من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فقط، ولكنه أيضاً يصطبغ بصبغة عاطفية قوية.

«وقد لا تقبل أوربا تعاليم الفلسفة «البوذية» أو «الهندوكية» ولكنها

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٥٨، د.

تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير!

«إلا أنها طالما تتجه إلى «الإسلام» يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي في التسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التخريب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام... ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن «الإسلام» لا يمكن أن يعالج على أنه «موضوع» بحث في البحث العلمي، بل إنه «متهم» يقف أمام قضاته!

إن بعض المستشرقين يحتلون دور «المدعي العام» الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام «المحامي» في الدفاع!! فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له ـ مع شيء من الفتور ـ اعتبار «الأسباب المخففة»!!

«وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع «دواوين التفتيش»، تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى! أي تلك الطريقة التي لم يتفق لها أبداً أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد وغير تحزب، ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل أملاه عليها تعصُّبها لرأيها، ويختار المستشرقون «شهودهم» حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً، وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفي للشهود عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون، ثم فصلوها عن المتن، أو تأولوا الشهادات بروح غير علمي من سوء قصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر. أي من قبل المسلمين أنفسهم»[1]...

وهكذا نرى أن الإعلام الإسلامي بعد بداية القرن الحاضر قد عني

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢.

بدراسة المستشرقين وواجه تشويههم للإسلام، كما واجه من جانب آخر الفكر المادي المنكر للروحية أو المستخف بها، وواجه ويواجه كذلك الدعوات المنحرفة التي أوجدها الاستعمار والصهيونية، وسخر لها القوة المادية والفنية ودعمها بشتى الوسائل لإيقاع البلبلة في أفكار المسلمين على نحو ما يتضح في القاديانية والبهائية بوجه خاص.

ونقدم فيما يلي نماذج من أبحاث المستشرقين نعرض لموقفهم وآرائهم وأثرهم في تشويه جوهر الإعلام الإسلامي:

١ - يتابع يوسف شاخت أستاذ، «جولد تسيهر»، وهما مستشرقان يهوديان الغض من شأن الشريعة الإسلامية، ويحاول الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراف الجاهلية، وهو ادعاء باطل تصدّى له كثير من الباحثين.

ومن أكاذيب شاخت وأضاليله: الادعاء بأن للفكر الإغريقي فضلاً على الفكر الإسلامي، وقد أثبت علماء الغرب أنفسهم مثل «سيديو، درايبر، وسارطون» وغيرهم أن الإسلام هو الذي أدخل إلى الغرب المنهج التجريبي، وأن الحضارة العالمية المعاصرة مدينة للمسلمين بهذا المنهج الذي هو أساس الحضارة الإسلامية.

٢ - أنكر برتلو أن تكون الكتب الكيمائية اللاتينية التي تحمل اسم جابر بن حيان هي كتب عربية الأصل كتبها عالم مسلم، لمجرد أن أصولها العربية فقدت، وقد تصدى لبرتلو علماء راسخون ردوا عليه خطأه، بل اتهمه بعضهم بالجهل والتحيز، وقال سارطون: إن أي شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقاً في اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية، إذ تبدو الأساليب العربية واضحة من الترجمة اللاتينية، سواء كانت لجابر أو لغيره.

٣ - ويزعم سدرسكي أن جانباً مما ورد في القرآن أو التفاسير والسير من الأخبار يرجع إلى الإجادة اليهودية والتوراة والأناجيل، وقد أعلن الدكتور بشر

فارس فساد هذا الرأي وقال: إن بين النصوص الإسلامية والنصـوص اليهودية والمسيحية مسافات، وإن اتفق بعضها أو تقارب. .

٤ ـ وحاول نلينو أن ينفي حقيقة أن قريشاً كانت أفصح العرب، وله في ذلـك مغالـطات واسعة تـرمى إلى التشكيـك في هـذه الحقيقـة، ويقـول: إن تفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب العرب للرسول.

٥ ـ وزعم لـويس شيخو اليسـوعى أن معـظم شعـراء الجـاهليـة وصـدر الإسلام كانوا نصارى، وهو قول لا يسلم به المطلعون على أخبار العـرب في عهد الجاهلية، لأن من الغساسنة من كان على الوثنية ومنهم من دان باليهودية وطـائفـة كـانت تـدين بـالنصـرانيـة، وممن عـداهم نصـارى من الشعـراء. . الأخنس بن شهاب وامرؤ القيس وأمية بن أبي الصلت والسموأل.

وهكـذا جرت بحـوث المستشرقين وراء الشبهـات حول القـرآن الكريم ولغته والحديث الشـريف والتشريـع الإسلامي، ولا يتسـع المقام للتـوسع في ضرب الأمثال(١).

لا نكران أن طائفـة من المستشرقين اتسمـوا بالاعتـدال والإنصاف على تفاوت فيما بينهم، فمنهم من أخطأ وأصاب ومنهـم من انتهى بـه البحث الحر النزيه إلى الإيمان والإسلام، ويعتبر من الفريق الأول «رينان» الذي انتهى بـه بحثه عن المسيح عليه الصلاة إلى إثبات أنه لم يكن إلهـاً ولا ابن إله، وإنمـا هـو إنسان يمتـاز بالخلق السـامي والروح الكـريمة، وأن السيـر العربيـة للنبي محمد ﷺ كسيرة ابن هشام لها ميزة تاريخيـة أكبر من الأنـاجيل المتـداولة بين النصارى.

ومنهم: «كارلايل» الذي عد «محمداً» ﷺ في الأبطال وخصه بصفحات كثيرة من كتابه «الأبطال» يقول فيه: «من العار أن يصغي أي إنسان متمدن من

---

(١) راجع: «دفاع عن العقيدة والشريعة» للشيخ محمد الغزالي، الإسلام في وجه التغريب ومخططات الاستشراق والتبشير للاستاذ أنور الجندي، د. عبدالباسط محمد حسن: السابق.

أبناء هذا الجيل إلى وَهْم القائلين أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً لم يكن على حق، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيرا أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس، وما الرسالة التي أداها محمد «ﷺ» إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت صدق صادر من العالم المجهول، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

ومنهم «تولستوي» أكبر كتاب روسيا، فإنه لما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ورسوله، كتب رأيه معرباً عن الإعجاب بالإسلام، وتحدث عن المسيحية فأنكر على المسيحيين اعتقادهم بألوهية المسيح، وخلص إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح بل طمسها، والكنيسة زادت تعاليم المسيح في العقيدة غموضاً. . ويقول إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقد جميعهم بالوحي الإلهي، فالمسلمون يعتقدون نبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانتين، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء، وأنه أوضح في القرآن تعاليم موسى وعيسى، كما قالاها دون زيادة ولا نقصان. . وينتهي بالحديث عن رسول الله محمد ﷺ حديث الإكبار والتعظيم، وكان مما قاله تولستوي:

«لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا، ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلما، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال»، وقد كان جزاؤه على كلمة الحق التي قالها أن حرمه البابا من الرحمة[1].

---

(١) «التبشير والاستشراق» أحقاد وحملات المستشار محمد عزت اسماعيل الطهطاوي، ص ٥٩، ٦٢.

ومن المستشرقين الذين انتهى بهم البحث عن الحق إلى الإسلام اللورد هيدلي، وإتيين دينيه «ناصر الدين»، والشاعر الألماني الكبير جوتيه، والدكتور جرينييه الذي كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال: «إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعة والتي درستها من صغري وأعلمها جيداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأني تيقنت أن محمداً، أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر، ولو أن كل صاحب فن من الفنون، أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً كما قارنت أيضاً، لأسلم بلا شك إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض»[1].

وصدق الله العظيم ﴿**سَنُرِيْهِم آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَهُ ٱلْحَق**﴾[2]. .

أيقن أعداء الإسلام. . أنه لا سبيل إليه وعقيدته حية في قلوب المسلمين فكان بداية التبشير. . مع نهاية الحروب الصليبية فشلاً في مهمتها، وهو ما صرح به «ملخص تاريخ التبشير». .

ويقول القسيس المبشر زويمر إن جزيرة العرب التي هي مهد الإسلام لم تزل نذير خطر للمسيحية، ويكمل وليم جيفورد بالكراف المعنى فيقول: متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه.

واتخذ التبشير لدعوة المسلمين أساليب عديدة. . أظهرها لنا:

(أ) ـ المدارس المختلفة التي فتحت في أرجاء العالم الإسلامي ولم تنجح منها حتى عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها، وباشرت تلك المدارس

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ و«أوروبا والإسلام» للدكتور عبد الحليم نويرة.
(٢) سورة فصلت، الآية ٥٣.

التأثير على الطفولة البريئة والشبيبه الغضة . . من أبناء المسلمين، وكانت لها نتائج إيجابية محدودة . . لكنها إن لم تنجح في المجموع في تبديل عقائد التلاميذ فيكفي أنها بذرت فيها بذور الشك أو الانحراف، ولا يزال من آثار تلك المدارس . . الجامعة الأمريكية في مصر، والجامعة الأمريكية في بيروت، الأمر الذي لا ينكره رجالات الغرب أنفسهم .

ويلحق بهذه الوسيلة تغريب التعليم أو علمانيته، وهو ما فعلته إنجلترا في مصر والهند .

(ب) ـ ومن أخطر هذه الوسائل البعثات إلى الدول المسيحية الغربية، وأول مثل لأثر البعثات ما حدث لرفاعة الطهطاوي الذي أقام في باريس من سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) إلى سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) فقد عاد ذلك الشيخ . . بغير العقل الذي ذهب به .

ورسول الله ﷺ يقول: «لكل بني آدم حظ من الزنا . . فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرِّجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القبل، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» . . صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وتحدث عن المشاعر الوطنية ليحلها محل المشاعر الدينية، وراح يثير الجاهلية القديمة فيتحدث عن مصر الفرعونية وينسى مصر الإسلامية، وأعجب الطهطاوي بالحرية لكنه لم يفهمها الفهم الإسلامي، الذي تتحقق به عبودية المسلم لله وحده، ويحقق تحرره من كل عبودية لسوى الله، لكنه فهمها الفهم الغربي الذي يؤدي إلى التحرر من الأخلاق ومن الدين نفسه!

وقس على الشيخ رفاعة من ذهبوا بعده . .

(جـ) ـ ثم تأتي سائر وسائل التبشير . . فتح المستشفيات وبعث الإرساليات الطبية . . التي يقر كثير من المبشرين في مؤتمراتهم وكتاباتهم أنها أدت إلى نتائج أسرع وأفضل من عمل القسس التبشيرية .

(د) ـ ثم المحاضرات والندوات.. والكتب والمجلات والصحف والنشرات.. إلخ..

أما مؤتمرات التبشير فقد تعددت.. نذكر منها:

١ ـ مؤتمر القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) المنعقد في منزل زعيم الثورة العربية المسلم في باب اللوق، تحت سمع الحكومة وبصرها!

٢ ـ مؤتمر ادنبرج سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) في إنجلترا.

٣ ـ مؤتمر لكنوه سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) بالهند.

٤ ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م).

٥ ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م).

٦ ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م).

وما بلغنا عنها إلا القليل، وأشهره ما نشرته مجلة «العالم الإسلامي».

ولا نعتقد أن ما نشر هو كل ما قيل وحدث..

ومع ذلك تشير الدراسات إلى نماذج من المؤتمرين الأول والثالث.

وقد تناول المؤتمر وسائل تبشير المسلمين بالنصرانية في كتاب خاص عليه «نشرة خاصة»، ليكون قاصراً على فئة من المبشرين.. وهو من إعداد القسيس الأمريكي فليمنج.

ثم تعرض المؤتمر للأزهر فنعى أن باب التعليم مفتوح للجميع، خصوصاً وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجاناً.

وطالب سكرتير المؤتمر في مواجهة ذلك بإنشاء معهد مسيحي لتنصير الممالك الإسلامية. (قيل إن أساس تكوين الجامعة الأمريكية في مصر كان تنفيذاً لتلك الوصية).

ثم عرض المؤتمر لخريطة العالم الإسلامي في هذا العصر.

وقدم القسيس زويمر «رئيس المؤتمر» بمعاونة بعض زملائه كتاباً تحت

عنوان «العالم الإسلامي اليوم» أشار إلى صلابة عقيدة المسلمين «وهو ما يقتضي الاشتداد في حربها»، وقال ما نصه: «لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامي الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقية، وبث في مائتي مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية».

ثم قدم القسيس زويمر بعض النصائح من بينها:

(أ) ـ وجوب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداءهم.

(ب) ـ وأخطرها يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها.

وأخيراً بشر المبشرين ألا يقطنوا، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وإلى تحرير النساء..

وفي مؤتمر لكنوه المنعقد في الهند سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م)، كانت مواده كثيرة أخطرها:

(أ) ـ النظر في حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها وطرقها والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين.

(ب) ـ الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات «يلاحظ اختيار الألفاظ المهذبة لتغطية المعنى المقصود... فإن المبشرين المسيحيين لا يهمهم في شيء ارتقاء النساء المسلمات».

وكان أخطرها حديث زويمر الذي أشار إلى أن عبد الحميد «خليفة المسلمين» سجين في سلانيك... أشار إلى أنه لم يبق غير ٢٧،١٢٨،٨٠٠ مسلم تحت سلطة الحكومات الإسلامية.. وانتقلت السلطة على الباقين من الخلافة الإسلامية إلى أيدي كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا، أشار إلى أن عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيرا عقب انقلابات قريبة الحصول؟؟

وكان من بين قرارات المؤتمر:

«من الضروري العاجل تأسيس مدرسة في مصر خاصة بالتبشير».

«دخول النساء في أعمال التبشير لتنصير النساء المسلمات وأولادهن».

وهم الآن لا يدعون المسلمين إلى المسيحية، بل يحاولون تشويه الإسلام وإضعاف قيمه.

سلبيات الاعلام المعاصر في الأمة الاسلامية

ومما تقدم جميعاً نحاول في ما يلي استخلاص الإيجابيات والسلبيات التي تكتنف الإعلام الإسلامي في حاضره، ومنها:

(أ) - إنه كان من الضروري لتصدي بقوة لإقحام المفاهيم المستوردة على جوهر الإسلام.

(ب) - التصدي للبلبلة التي وقع فيها العالم الإسلامي نتيجة لكثرة الآراء والاتجاهات وإدخال الكثير من الضلالات والمفتريات التي سبقت الإشارة إلى بعضها، مثل الدعوات المنحرفة التي أوجدها الاستعمار والصهيونية، وسخر لها القوة المادية والفنية ودعمها بشتى الوسائل لإيقاع البلبلة في أفكار المسلمين: القاديانية والبهائية بوجه خاص، مع العلم بأن هناك صلات قائمة إلى الآن بين الدعوات المنحرفة وأعداء الإسلام «الاستعمار والصهيونية».

الصهيونية الخطر الدعائي الإعلامي

والصهيونية من أخطر أعداء الإسلام، بما تفرضه من قهر سياسي وقسر فكري وتمايز عنصري، وفي بروتوكولات صهيون يتضح هذا المعنى تماما، فهي تعتمد على تقويض أركان المجتمع العالمي وبث عناصر للانحلال تعبث في كيانه. وتعمل على إشاعة الفوضى الاجتماعية والفكرية، وسبيلها إلى ذلك الدعاية المنظمة التي تتوسل بأجهزة الإعلام والاتصال بالجماهير بهدف

اغتصاب العقل البشري والسيطرة عليه، سواء كانت هذه الأجهزة منظمات يهودية سافرة، أم منظمات اجتماعية سرية أو علنية، كالجمعيات الماسونية وفرسان المعبد وجماعات الصليب الوردي ويهود يهوه والكباك وغيرها من الهيئات والمنظمات والجمعيات التي بثوها في أقطار العالم، يعملون فيها على وأد الشعور الديني لدى المنتمين إليها من شتى الأجناس والأديان، ويسيطر على وسائل الإعلام كالإذاعة والصحافة والسينما ووكالات الأنباء، يستخدمونها في الحرب النفسية وإشاعة الفوضى وزعزعة القيم الأخلاقية.

ومن بروتوكولات حكماء صهيون التي تعتبر الدستور العلمي للحركة الصهيونية يتضح أن أهدافها تتلخص فيما يلي:

١ ـ إشاعة الفوضى الشاملة

جاء في البروتوكول الخامس: «إننا نقرأ في قاموس الأنبياء أن الله اختارنا لحكم العالم، وقد وهبنا الله العبقرية لنقوم بهذا العمل»، وقد تركزت هذه العبقرية ـ مع الأسف ـ في الافتتان في وسائل الفساد والتخريب، وفساد الحكومات والمجتمعات، وتخريب الدول والنفوس، وعلى هذا الأساس فضلت البروتوكولات المناهج العلمية لتقويض الحكم القائم في شتى الدول، وإقامة حكومة يهودية جامعة على أنقاضها: «أروع النتائج التي يمكن الحصول عليها في سبيل حكم العالم، يتحقق باستخدام العنف والتهديد لا بالمناقشات الأكاديمية.. «وإن الذي يحكم يجب أن يلجأ إلى الحيلة والنفاق وفي السياسة تستحيل الصفات الإنسانية من أمانة وصدق إلى رذائل تؤدي إلى سقوط الملك عن عرشه»... «يجب أن يكون شعارنا: جميع رسائل القوة والنفاق تحتم أن يكون البطش هو المبدأ، والحيلة والنفاق هما القاعدة لدى الحكومات التي لا تريد أن تضع تاجها تحت أقدام أعوان أي حكم جديد. وهذا الشر هو السبيل الوحيد لبلوغ الخير، فعلينا ألا نتردد أمام شراء الذمم والغدر والاحتيال إذا كان ذلك يخدم قضيتنا».

وتنشأ عن هذه الخطط والوسائل الصهيونية إشاعة الفوضى في العالم

والتسلل اليهودي من خلالها، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم، فوضى عاتية جائحة، سياسية وفكرية وروحية واجتماعية واقتصادية.

٢ ـ اثرة الفتن والوقيعة بين شعوب العالم ودوله

كشف الحاخام عمانوئيل راينوفتش عن خطة الصهيونية في خطابه بمؤتمر الربانيين بمدينة بودابست سنة ١٩٥٤ م (١٣٧٣ هـ) حيث قال: «هل تذكرون حملاتنا الدعائية الناجحة عام ١٩٣٠؟ لقد أثارت الحقد على الأمريكيين في ألمانيا والألمانيين في أمريكا وهذا هو ما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية، وقد شرعنا شن حملات مماثلة في سائر أنحاء العالم فأثرنا في روسيا موجة من حقد ضد الولايات المتحدة، وفي نفس الوقت أثرنا في الولايات المتحدة شعورا بالخوف والتوجس إزاء الشيوعيين، وتؤدي هذه الحملات إلى دفع الدول الصغيرة إلى تحديد موقفها إما مع روسيا وإما مع أمريكا».

وهذا تطبيق لما رسمته البروتوكولات صراحة، ففي البروتوكول العاشر: «يجب بث الاضطرابات بصفة مستديمة في العلاقات القائمة بين الشعب والحكومات، وإشاعة الأعمال العدوانية والأحقاد، وحتى عذاب الجوع والحاجة والأمراض، لدرجة لا يرى معها غير اليهود مخرجا للأرزاء التي تحل بهم سوى الالتجاء إلى أموالنا وإلى سيادتنا المطلقة».

وفي البروتوكول الحادي عشر: «غير اليهود كقطيع من الأغنام، أما نحن فإننا الذئاب، وهل تعلمون ما تفعل الأغنام إذا اقتحم الذئاب حظيرتها؟ إنها تغمض عينيها وسندفعهم إلى ذلك».

ويتضح في البروتوكول الخامس عشر كيف يعمل الصهيونيون لتحقيق أهدافهم: «وإذا ما تولينا السلطة بما نكون قد أعددناه من انقلابات تحدث في جميع الدول في وقت واحد ـ بمجرد أن يعلن رسميا عجز حكومات تلك الدول عن حكم الشعب، وقد يمضي على ذلك وقت طويل ربما يبلغ قرنا ـ سنبذل كل جهدنا لمنع المؤامرات ضدنا».

وإعمالاً لهذه التعاليم نلاحظ أن اليهود دائماً ضالعون مع كل حركة تخريب في العالم، فقد كانوا وراء الحرب العالمية الأولى يظاهرونها ويذكون أوارها انتقاما من روسيا التي تصدت لليهود وانتقمت منهم... وقد استغل اليهود تلك الحرب الضروس لفائدتهم المالية بإقراض الدول بالربا الفاحش، وترويج تجارتهم في مواد القتال التي يحتكرونها، والقضاء على شعوب أوروبا وتقويض دولها.

كما حاول اليهود استغلال الثورة البلشفية في روسيا، وفرضوا وصايتهم عليها لتحقيق مآربهم العنصرية التي فشلوا في تحقيقها في عهد القياصرة.

وقد نجحت العناصر الصهيونية في حكومة البلاشفة في ممالأة اليهود والتستر على ما قد يسيء إليهم ويفضح نواياهم، فلما طبعت البروتوكولات في روسيا سنة ١٩١٧ باللغة الفرنسية صودرت هذه الطبعة رسميا، ولم يسمح بطبعها بعد ذلك.

٣ ـ الإرهاب الفكري وإفساد الرأي العام

يشرح البروتوكول الخامس كفية إفساد الرأي العام وبلبلة الأفكار فيقول: «ولكي نطمئن إلى الرأي العام يجب أن نربكه تماما، فنسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراء متناقضة الدرجة يضل معها غير اليهود الطريق»... ويوصي بـ«مضاعفة الأخطاء التي ترتكب، والعادات والعواصف والقوانين الوضعية في البلاد لدرجة يتعذر معها على الناس التفكير تفكيراً سليماً وسط تلك الفوضى، وهكذا يكف الناس عن فهم بعضهم بعضا... وسوف تساعدنا تلك السياسة على بث الفرقة بين جميع الأحزاب، وعلى حل الجماعات القوية، وعلى تثبيط عزيمة كل عمل فردي يمكن أن يعرقل مشروعاتنا».

وفي البروتوكول السابع: «يجب أن نقوم بالتأثير على الحكومات غير اليهودية عن طريق ما يسمونه الرأي العام الذي هيأناه عن طريق أعظم قوة

وهي الصحافة، التي - فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية التي لا قيمة لها - توجد كلها في قبضتنا».

وفي البروتوكول الثامن: «لا يتيسَّر إسناد المناصب الرئيسية في الحكومة إلى إخواننا اليهود، فإننا سنسند المناصب الهامة إلى أناس من ذوي السمعة السيئة حتى تنشأ بينهم وبين الشعب هوة سحيقة، أو إلى أناس يمكن محاكمتهم والزج بهم في السجون إذا حالوا دون تنفيذ أمرنا».

ولقد بلغ من جرأة اليهود أن استباحوا جلال العلم لإشباع حقدهم ونزواتهم وإفساد العقول والأخلاق، والعبث بالقيم والفضائل الإنسانية، فابتدعوا نظريات علمية تسوغ لهم ما يبيتون من مكر وكيد وما ينفثون من آراء هدامة... فاليهود وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها المجتمع الإنساني، فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان... واليهودي دركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب.. واليهودي سارتر وراء الوجودية التي جنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعات بآفات السقوط والانحلال[١].

وفي البروتوكول الثاني: «... نحن الذين هيأنا دارون وماركس ونيتشه، ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود».

٤ - إشاعة الفوضى والفساد في المجتمع

رسم البروتوكول الأول لليهود كيف يكيدون لسائر شعوب الأرض، ويبذرون الفوضى والانحلال فيقول: «إن الشباب لدى المسيحيين أضحى متبلد الذهن تحت تأثير الخمر، كما أن الشباب قد انتابه العته لانغماسه في الفسق المبكر الذي دفعه إليه أعواننا من المدرسين والخدم والمربيات اللاتي

---

(١) العقاد: الصهيونية العالمية.

يعملن في بيوت الأثرياء والموظفين، والنساء اللواتي يعملن في أماكن اللهو، ونساء المجتمع اللواتي يقلدنهن في الفسق والترف».

وفي البروتوكول التاسع: «لقد أتلفنا الجيل الحاضر من غير اليهود، وأفسدنا خلقه بتلقينه المبادئ والنظريات التي نعلم أنها مبادئ فاسدة، وعملنا على ترسيخها في ذهنه، ودون أن نعمل على تعديل القوانين القائمة فعلاً أمكننا التلاعب بها وتفسيرها التفسير الذي لم يخطر على بال واضعيها للحصول على نتيجة فعالة».

٥ ـ افتعال الأزمات الاقتصادية

يفصل البروتوكول الثالث السلاح الاقتصادي الذي يستعين به اليهود على تقويض الحكومات، «وسنعمد إلى خلق أزمة اقتصادية عالمية بكافة الطرق الملتوية الممكنة بواسطة الذهب الذي يجري بين أيدينا».

وفي البروتوكول الرابع: «يجب أن نقيم التجارة على أسس المضاربة، ويكون نتيجة ذلك منع اليهود من الاحتفاظ بالثروات التي انتجتها الأرض، وعن طريق المضاربة تدخل تلك الثروات خزائننا».

ويوضح البروتوكول السادس كيف يعمل اليهود على الإضرار بالإنتاج، «وسنعمل على تقويض الإنتاج من أساسه عن طريق نشر الفوضى بين العمال وتحريضهم على شرب الخمر، كما أنه لا بد من استخدام جميع الوسائل الممكنة لطرد الأذكياء من غير اليهود من وجه البسيطة».

٦ ـ القضاء على الأديان

في البروتوكول الرابع عشر: «عندما نصبح أسياد الأرض لا نسمح بقيام دين غير ديننا... من أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد. وإذا كانت النتيجة التي وصلنا إليها مؤقتا قد أسفرت عن خلق الملحدين، فإن هدفنا لن يتأثر بذلك... بل يكون ذلك مثلا للأجيال القادمة التي ستستمع إلى دين موسى،

هـذاالدين الـذي فرض علينـا مبدؤه الثـابت النابـع وضـع جميـع الأمم تحت أقدامنا».

وفي البروتوكول السابع عشر: «لقد عنينا عناية خاصة بـالعيب في رجال الـدين غير اليهـود، والحط من قدرهم في نـظر الشعب، وأفلحنا كـذلـك في الاضرار برسالتهم التي تنحصر في تعويق أهدافنـا والوقـوف في سبيلها، حتى لقد أخذ نفوذهم ينهار مع الأيام.

«إن حرية العقيدة معترف بها اليوم في كل مكان، ولا يفصلنا عن انهيار المسيحية إلا بضع سنـوات، وسيكون القضـاء على الأديان الأخـرى أيسر من ذلك، لكن الوقت لم يحن بعد لمناقشة هذه الرسالة. . .

«وسنعمـل على أن يكون دور رجـال الدين وتعـاليمهم تافهـا، ونجعـل تأثيرهم في نفوس الشعب فاتراً إلى حد يجعل أثر تعاليمهم عكسيا».

ومن هنا كان الإسلام بعد المسيحيـة المجال الـرئيسي الذي كـرست له الصهيونية نشاطها للنيل منهما بـدأب حثيث، وكانت محـاربتهما هـدفاً لليهـود منذ أزمان سحيقة، ففي التلمود: «حيث أن المسيح كذاب، وحيث أن محمداً اعترف به، والمعترف بالكذاب كذاب مثله، فيجب أن نقـاتل الكـذاب الثاني كما قاتلنا الكذاب الأول»(١).

وقد جاهر حاخام إسرائيل في الحفل الذي أقيم لوضع الحجر الأساسي للمحفـل الماسـوني في تل أبيب سنـة ١٣٧٧ هـ بقولـه: «إننـا نعمـل جميعـاً لهدف واحد هو العودة لكل الشعوب إلى أول دين محتـرم أنزلـه الله على ظهر هذه الأرض، وما عـدا ذلك فهي أديـان باطلة. . . أديـان أوجدت الفـرقة بين أهـل البلد الواحـد، وبين أي شعب وشعب ونتيجة لمجهـوداتكم سيـأتي يـوم يتحـطم فيـه الـدين المسيحي والـدين الإسـلامي، ويتخلص المسلمـون والمسيحيون من معتقدتهم المتعفنة، ويصل جميع البشر لنور الحق».

---

(١) د. محمد الزعبي: «دفائن النفسية اليهودية»، ص ١٢٨، د. عبدالباسط محمد حسن. السابق.

وينبغي ألا ننسى أن الحاخام يـوجه خـطابه ويوعز بتحريضـه إلى المحفل الماسـوني الذي تـزعم تقاليـده أنه بنجـوة من التعصب الديني، يتحلى بالجهاد تجاه العقائد.

محاربة الصهيونية للاسلام

حـرصت دولـة إسـرائيـل على محـاربـة الـدين الإسـلامي في نـ المحلي، تطبيقا للمبـادئ التي نص عليها البـروتوكـولان السابقـان، فـ إلى إجبار التلامذة المسلمين على دراسة اللغة العبرية والديانة اليهـودية التوراة، ومنعتهم من حفظ القرآن الكريم ودراسة التاريخ الإسلامي.

وتـطاولت إسـرائيـل على القـرآن الكـريم فـطبعت في عـامي و١٣٨٨ هـ نسخا مزورة من المصحف الشريف، أسقطت منهـا بعض أو بعض الأيات وأحياناً سورة بحذافيرها، أو تناولت بعض الألفـاظ بالتـ ـ تبتغي بذلك تحريف بعض المعاني القرآنية والتشكيك في سلامة كتاد بيد أن المسلمين كانوا بالمرصاد حريصين على تعقب كل ما يصدره أعـ من طبعات محرفة من المصحف، والحيلولة دون تداولها.

ودأب اليهود منذ ظهور الإسلام على محـاولة إفسـاد شرائعـه، مصـدر أحكامه، فدسوا كثيراً من البـدع المضللة، ومنهم من انتحل ا نفاقاً ليفتري على الإسلام مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان، ليكيد بها ويثيـر الفتنة بين جمهرة المسلمين. وقد عـرفت هذه الـزيـوف عنـد الـ بالإسرائيليـات وهي كل مـا دسه اليهـود على تفسير القـرآن الكريم أو الـ النبـوي من تأويلات فاسدة وأساطيـر خرافيـة فيهـا إغـراب وزيـغ عن المقصود، قصد بها التضليل والإرهاب والبلبلة وإثارة الشبهـات بتشويـ الإسلام الناصعة[1].

---

(١) من ذلك تفسيرهم الروح في قوله تعالى ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ بأنه ملك هائـ السموات السبع والأرضين السبع، كانت له لقمة واحدة، وغير ذلك.

ومن دهاة اليهود عبد الله بن سبأ الحميري «ابن السوداء» الذي ترجع إليه طوائف غلاة الشيعة، وهو القائل بمذهب الرجعة ومذهب الحلول، يزعم أن عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل عليًّا، وإنما المقتول شيطان تصور للناس في صورة علي، أما علي رضي الله عنه فقد صعد إلى السماء على أن يرجع إلى الأرض بوصفه «المهدي المنتظر» حيث ينتقم من أعدائه ويقيم العدل والحق.

الأدب الاسلامي مهمة إسلامية

وإذا كان المسلم ينظر إلى العالم العربي بغير العين التي ينظر بها الأوروبي، وبغير العين التي ينظر بها المواطن العربي، فإنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره، ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة العالمية. ومن هنا يصبح الكشف عن استراتيجية للأدب الإسلامي وسط الظروف التي تخوضها الأمة العربية والإسلامية، مهمة إسلامية من الطراز الأول، وبصرف النظر عن المعنى الأصلي لكلمة «استراتيجية» في الاصطلاحات العسكرية، لأنها استخدمت فيما بعد للدلالة على المهارة في التخطيط والإدارة، بل إن العلوم الاجتماعية حين استعارت هذا الاصطلاح أضفت عليه مفهوماً شاملاً يعني «الخطة العامة لوسائل تحقيق الأهداف».

الأدب بين الاعلام الانساني والاعلام الدولي

نواصل في هذا الفصل دراسة الإعلام الإسلامي في مسيرته المستقبلية، فنلاحظ ابتداء أن الإعلام الإسلامي قد أرسى دعائم تتفوّق على ما يعرف اليوم بالإعلام الدولي، ذلك أن الإسلام قد أرسل للناس كافة، وأكد على الاتصال والتفاهم بين الأمم والشعوب والقبائل فقال الله جل شأنه في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(١).

فالإعلام الإسلامي أشمل من مفهوم الإعلام الدولي بالمصطلح الدولي الحديث ذلك أن القرآن يؤكد أن الإنسانية كلها أمة واحدة. .

ويقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِين وَمُنْذِرِين وَأَنْزَلَ مَعَهُم ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا مِنْ بَعدِ مَا جَاءَتْهُم ٱلْبَيِّنَاتِ بَغْياً بَيْنَهُم فَهَدَى اللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾(٢).

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية٢١٣.

ومن ذلك يتضح ما نعنيه بشمولية الإعلام الإسلامي في المصطلح الحديث، ذلك أن القرآن الكريم الذي تنبع منه نظرية الإعلام الإسلامي يؤكد على وحدة الإنسانية.

يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُم ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجها وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلأَرْحَام إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً﴾(١).

فالإعلام الإسلامي يقوم على أساس من صلة الرحم بين بني الإنسان، وعلى أساس من التعارف والمودة وإقرار السلام، ولذلك فإن الأصل في الإعلام الإسلامي هو الودُّ والتراحم لا العداوة القاطعة، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا فِي ٱلسِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَات ٱلشَّيْطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُم ٱلْبَيِّنَاتِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم﴾(٢).

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن القول إن الإعلام الإسلامي يتجاوز مصطلح «الإعلام الدولي» إلى أن يكون هو «الإعلام الإنساني» الأشمل الذي يدعو إلى دين الوحدانية والوحدة الإنسانية في آن معا، وإن اختلف الناس أجناساً وقبائل، قال جل شأنه في القرآن الكريم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَوات وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلاَف أَلْسِنَتِكُم وَأَلْوَانِكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِين﴾(٣).

---

(١) سورة النساء، الآية ١.
(٢) سورة البقرة، الآيتان ٢٠٨ و٢٠٩.
(٣) سورة الروم، الآية ٢٢.

ونظرية الإعلام الإسلامي الإنسانية، التي تتجاوز مصطلح الإعلام الدولي المعاصر، تقوم على أساس المساواة كما جاء في قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1].

فالمساواة هي أساس الإعلام الإنساني في الإسلام، كما أن التعارف يقتضي من وسائل الإعلام إشاعة المودة والتعاون في كل أنحاء العالم.

والعدالة أساس العلاقات الإنسانية في الإعلام الإنساني، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُم أو الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِين إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَأَنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرا﴾[2].

ودستور الإعلام الإسلامي في العلاقة الإنسانية العامة، قول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يُجرِمَنكُم شَنْآن قَوْم عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾[3].

وقوله جل شأنه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَان﴾[4].

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٢) سورة النساء، الآية ١٣٥.
(٣) سورة المائدة، الآية ٨.
(٤) سورة النحل، الآية ٩٠.

الإعلام الإسلامي والرأي العام العالمي

وليس من قبيل التعصب أن نذهب إلى أن الإعلام الإسلامي قد وضع الحلول الناجعة لكل المشكلات التي يعاني منها اليوم الإعلام الدولي بالمصطلح الحديث International Communication والذي يسعى إلى تكوين الرأي العام الإنساني في إطار من الوحدة الإنسانية، وعلى أسس من العدالة والتعاون والتواد والسلام.

وهنا تتضح الفروق بين ما نعنيه بمصطلح «الإعلام الإنساني» في الإسلام، ومصطلح الإعلام الدولي المعاصر، ذلك أن الأخير يعاني من الاحتكاك والصراع الدولي، وفي كثير من الأحيان يصبح من أهم عوامل هذا الصراع الذي قد يؤدي إلى الحروب والدمار، لأن الإعلام الدولي المعاصر يسعى إلى السيطرة على العقل البشري من خلال عملية الاتصال التطويعية Persuasive Communication وغيرها من العمليات الاتصالية، فالإعلام الدولي تعبير عن طبيعة العلاقات الدولية المعاصرة والتي يغلب عليها طابع الحرب النفسية وتحطيم الروح المعنوية لدى الشعوب الأخرى، على نحو ما نعرف اليوم من دلالات المصطلحات التي شاعت في عصرنا كالحرب الباردة والحرب الإيديولوجية وحرب الأعصاب والحرب السياسية وحرب القوة الفكرية وما إلى ذلك، مما يكشف في جموعه عن عدم موضوعية ما يطلق عليه تجاوزاً بالإعلام الدولي، واستهدافه التأثير على آراء وسلوك وعواطف جماعات أو دول أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة، وذلك من أجل متابعة سياسة الدولة ومصالحها.

وعلى هذا الفهم يمكننا أن نتعرف على الحلول الشاملة والجذرية التي يقدمها الإعلام الإنساني في الإسلام لمشكلات الإعلام الدولي، والتي تظهر من خلال المؤتمرات الدولية للصحفيين في شيكاغو وبلجيكا عام ١٨٩٣، والتي لم تحقق شيئاً يذكر غير بعض التوصيات التي محتها الدعاية والرقابة

خلال الحربين العالميتين[1]. ويمكن أن نجد هذا الصدق كذلك في اهتمام عصبة الأمم بمشكلات الإعلام الدولي من خلال المؤتمرات التي عقدت تحت رعايتها عام ١٩٢٧ في جنيف وعام ١٩٣٢ في كوبنهاغن وعام ١٩٣٣ في مدريد. . . وكانت أهداف مؤتمر خبراء الصحافة الذي عقد في جنيف ما يلي:

أولاً: البحث في الوسائل التي تكفل الانتقال السريع للأعمال الصحافية بأقل النفقات، مع نظرة إلى تقليل مخاطر سوء التفاهم الدولي.

ثانياً: مناقشة جميع المشاكل الفنيةالتي يرى الخبراء أن علاجها سيؤدي إلى تهدئة الرأي العام الدولي في الدول المختلفة وقد ظهرت رغبة عصبة الأمم في القضاء على انتشار المعلومات الكاذبة عن الدول في مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذي عقد في عام ١٩٣٢، وقد أصر المجتمعون على ألا تكون الإجراءات التي تتخذ لتحقيق هذا الأمر ماسة بالحريات الأساسية للصحافة، وقد نوقشت هذه المشكلة ذاتها في مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذي عقد عام ١٩٣٣ ولكن شيئاً محدداً لم ينبثق عن هذه المؤتمرات[2].

الاعلام الاسلامي وحقوق الانسان

واهتمت هيئة الأمم كذلك بعد الحرب العالمية الثانية بمشكلة حريةالإعلام، وجاء ذلك في ذكر حقوق الإنسان ومن بينها حرية الإعلام سبع مرات في ميثاق الأمم المتحدة، كما نوقشت هذه الكلمة في الجمعية العامة والمجلس الاقتصادي والاجتماعي مرات عديدة. وتضمن دستور اليونسكو أنه «لما كانت الحروب تبدأ في عقول الرجال فينبغي أن تبنى دفاعات السلام في عقول الرجال أيضاً» وأشارت إلى ضرورة الاهتمام بالاعلام عن حقائق العلم والثقافة والتربية من أجل بناء وتدعيم السلام.

---

(١) William Read, «50 Years of Resolutions from States for U.N. Talks.» Editor and Publisher, V.80, No., 16 , April 12, 1947, p.17

(٢) د. أحمد بدر: الإعلام الدولي، ص ١٣٦.

وهنا نجد أن النظرية الإعلامية في الإسلام تقوم على أساس إنساني، وتؤكد حقوق الإنسان قبل كل الإيديولوجيات والمواثيق الدولية تأكيداً ينبع من مخاطبة الفطرة الإنسانية، وأن دستور الإعلام الإسلامي يتجمع ويتبلور في قول الله تعالى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]. وفي قوله الكريم الموجه إلى الرسول الكريم ﷺ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[2]. فالإسلام ليس دين إكراه ولكنه يفرض على الإعلام الإسلامي أن يبشر بالهداية والدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، ومن الحقائق الثابتة أنه ما أكره على الإسلام فرد واحد من أصحاب العقائد السماوية، في حين أن الدعاية الدولية اليوم تحرص على اغتصاب عقول الجماهير باسم الإعلام الدولي تارة، والاتصال الثقافي تارة أخرى، ولكنها تتفق في عمليات غسل المخ الجماعية، وممارسة أسباب الضغط على الجماهير لاعتناق أفكار معينة ومعتقدات جديدة، وهذه الأساليب يطلق عليها أساليب قتل العقل Menticide كما يقول العالم النفسي الهولندي ميرلو، لأنها تحيل الإنسان إلى كائن لا حول له ولا قوة، وتخضعه إخضاعاً للتعاليم الجديدة، إذ تتضافر فنون الضغط الثقافي والعاطفي مرتبطة بالضغط البدني للسيطرة على الإنسان.

فالإعلام الدولي بالمصطلح الحديث لا يخرج عن مفهوم الدعاية كنشاط أو فن لإغراء الغير بالتصرف بطريقة معينة، على نحو ما نعرف عن الدعاية التبشرية في المسيحية، والدعاية السياسية في وسائل الإعلام العالمية، والدعاية الرمزية في الحرب النفسية... على نحو ما نعرف عن عمليات الانتقام النازية التي كان يقصد منها إرهاب الفئات الأخرى التي قد تحاول المقاومة، وما نعرفه عن الغارة الإنجليزية التي وجهت إلى برلين أثناء القاء الوزير جورنج خطاباً له من الإذاعة، كانت أصوات القنابل الإنجليزية وهي تفجر في سماء برلين تكذب ما كان يزعمه جورنج من أن سماء برلين لا يمكن أن تقهر. وكذلك ما قامت به العصابات الصهيونية يومي ٨، ٩ أبريل سنة

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة يونس، الآية ٩٩.

١٩٤٨ إبان الحملة التي شنها اليهود لتعبيد طريق تل أبيب - إلى القدس الذي وقع فيه أعنف قتال شهدته الحرب، فقد احتل أعضاء عصابتي أرجون وشتيرن القرية العربية «دير ياسين» التي تقع بالقرب من القدس، ولقد زعم مناحم بيجين فيما بعد أن قوات الأرجون فعلت ذلك لبث الرعب في قلوب عرب فلسطين.

فالدعاية الدولية مفهوم متدهور لا يرمي إلى الإقناع بقدر ما يرمي إلى الاغتصاب النفسي وانتهاك حقوق الإنسان، ولكن الإعلام الإنساني في الإسلام ينطلق أساساً من الحرص على حقوق الإنسان، ويتوسل بالإقناع والتعبير الموضوعي عن عقلية البشر في وضوح وصدق وأمانة، وهو لذلك يقوم على التنوير والتثقيف، وضمان حريات الناس وأمنهم على أرواحهم وأموالهم وأغراضهم، فالإسلام الذي حرر العبيد، هو نفسه الذي رسم السبيل لتحرير الإنسان وضمان حقوقه، ولذلك فإن نظرية الإعلام في الإسلام هي النظرية المثلى في معالجة مشكلات الإنسان المعاصر التي حار في علاجها المفكرون والفلاسفة في شتى بقاع العالم... إذ أن الإعلام الإسلامي هو الذي يسكب في النفس الطمأنينة والرضا ويحفظ على الإنسان كرامته وحريته، وينشئ لديه رقابة ذاتية تحميه وتحمي مجتمعه وأمته الإنسانية.

ولذلك يمكن القول إن النظريات الإعلامية المعاصرة هي نظريات تهتم بالجانب المادي للإنسان، والتقدم العلمي للسيطرة على عقول الناس، وتروج للفلسفات المادية والإلحادية والنزوات الشريرة تَطْغَى على الإنسان، فأصبح الإنسان أسيراً لوسائل الإعلام المعاصرة التي جعلته يعيش في فراغ وضياع، وفقد جوهر إنسانيته فأصبح على الرغم من التكنولوجيا الحديثة مفتقداً لإنسانيته، وهنا لا مفر من الرجوع إلى الإسلام في الوصول إلى نظرية إعلامية تواجه حقوق الإنسان، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(١).

(١) سورة الصف، الآية ٩.

وفي سورة الفاتحة الدعاء الذي يتغياه الإعلام الإنساني في الإسلام:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ﴾(١).

الاعلام الانساني في الاسلام

والإعلام الإنساني في الإسلام إعلام إيجابي يصل بين الإنسان وخالقه، ويوضح حقائق الهداية، ويوجه الإنسان إلى البناء من أجل الدنيا والآخرة.

ويقوم الإعلام الإسلامي على أساس من الخير الشامل الذي لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية الإعلامية أن يكفله مبرأ من الإنسانية، أو الاستجابة لنوازع الأهواء الدعائية سياسياً أو دينياً، ذلك أن الإعلام الإسلامي ينهل من الأخلاق المثلى التي وضعها الإسلام لتحقيق الخير المحض للإنسان في كل زمان ومكان، كما تمتاز نظرية الإعلام الإسلامي بأنها نظرية صالحة لكل الشعوب في كل زمان ومكان، لا إرهاق فيها ولا أعنات.

يقول الله تعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٢).

ويقول جل شأنه:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٣).

ويقول تبارك وتعالى:

﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٤).

---

(١) سورة الفاتحة، الآيتان ٦ و٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٥.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

هذه الصلاحية وهذا اليسر محققان في الإعلام الإسلامي، على حين أن مذهب السلطة الإعلامية أو مذهب الحرية أو المسؤولية الاجتماعية في الإعلام هي مذاهب ضيقة المجال في بنيانها وزمانها، ولكن الإسلام يصلح لكل المجتمعات لأنه دين المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، وفي الثواب والعقاب، وفي الحسنات والسيئات، الأمر الذي يجعل الإعلام الإسلامي مستهدِفاً الحض على الأخلاق الكريمة، والفضائل العليا التي تصلح للأفراد والمجتمعات في كل مكان وزمان.

هذ الصورة المثلى التي نشَدَها علماء الإعلام لا تتحقق إلا في نظرية الإعلام الإسلامي، ذلك أن النظريات الإعلامية الوضعية في عالم اليوم إنما هي خضم عجيب... الأخلاقيات أصبحت تحكمها المصالح، والوطنية أناشيد رنانة يطرب لها الناس، والمصالح المشتركة شباك تطلق من الجانبين يصطاد بها كل جانب ما وسعه أن يصطاد على حساب الطرف الآخر، والوفاق الدولي شبكة كبيرة تقع تحت طائلتها مصالح الدول والدويلات المسكينة التي يسمح لها بالعيش في إطار حماية العملاق أو العملاقين أصحاب الشبكة التي تمَّ صنعها بالوفاق، وكذلك حماية المصالح.

الاعلام الاسلامي والمذاهب الوضعية

يتعثر تشكيل النظام الإعلامي بالبيئة الفكرية إلى حد كبير، فالأفكار السائدة في مجتمع ما تشكل مؤسساته، كما تشكلها كذلك القوى الاقتصادية والاجتماعية، ولذلك شاع اصطلاح «النظام الإعلامي» وخاصة منذ اتخذه البعض معياراً للتفرقة بين البلاد التي تعتنق أي أيديولوجيات مختلفة، كالرأسمالية والاشتراكية مثلا.

و«النظام الإعلامي» اصطلاح متشعب العناصر، يكاد يشمل كافة جوانب الحياة المجتمعية، بِغَض النظر عن الأيديولوجية التي يدين بها سواء عن اقتناع بضرورتها أو كانت مفروضة عليه بفعل القهر والإكراه من قوى في الداخل أو بالضغط من الخارج «نقول هذا لأنه كثيراً ما تكون ظروف المجتمع العامة

لا تسمح بالأخذ بمذهبية معينة، إما لأن الذين يدعون إليها قلة، وإما لأنها مستوردة من مجتمع خارجي، ولكن تنجح قوى معينة، لسبب أو لآخر، في القفز إلى ذرى السلطة فتكره الناس على اتباع هذه المذهبية فيرضخون ويستسلمون»[١].

من أجل ذلك نرى أن العصر الحديث أحوج ما يكون إلى دراسة النظم الإسلامية بعامة والإعلامية بخاصة، لعدد من الأسباب منها:

أولاً: الهجوم السياسي والثقافي على العالم الإسلامي بسبب الدعايات الرأسمالية (الليبرالية) والاشتراكية، فإن كلاً من المعسكرين ـ الرأسمالي والاشتراكي ـ يحاول جاهدا أن يضم البلاد الإسلامية إليه، وكانت أخطر هذه المحاولات هي التي تحاول التقريب بينها وبين الإسلام، وادعاء كل الفريقين ـ الرأسمالي الليبرالي والاشتراكي ـ أن الإسلام ينتمي إليه، فلما رفض المسلمون ذلك احتاجوا إلى إظهار النظام الإسلامي في الإعلام والسياسة والاجتماع والاقتصاد وبيان الفرق بينه وبين هذين النظامين[٢].

ثانياً: إن ميل بعض الدول الإسلامية المعاصرة إلى النظام الرأسمالي الليبرالي وميل بعضها الآخر إلى النظام الاشتراكي أدى إلى الخلاف والشقاق، بل والصراع المسلح أحياناً مما كان له أسوأ الأثر في التضامن الإسلامي وأدى إلى عجز المسلمين عن مواجهة المشاكل التي تبدد مصالحهم المشتركة، وقد فطن المسلمون أخيراً إلى خطورة هذا الانقسام وحاجتهم إلى كلمة سواء تجمعهم جميعاً[٣].

ثالثاً: فشل الشعارات القومية والعنصرية في تجميع المسلمين العرب وعدم كفايتها في إقامة صرح الدفاع عن مصالحهم... ففي مستهل القرن

(١) د. راشد البراوي: القرآن والنظم الاجتماعية المعاصرة، ص ٩.
(٢) د مصطفى كمال وصفي: خصائص النظام الإسلامي، ص ٤.
(٣) المرجع نفسه، ص ٥.

الحالي ـ عندما أزمعت الدول الأجنبية تصفية الدول العثمانية ـ جنح المسلمون إلى إحياء أصولهم القديمة ـ كالفرعونية والحثية والفينيقية ونحو ذلك ـ فقضوا بذلك على وحدتهم الإسلامية، ثم عادوا وتمسكوا بالقومية العربية ولكنها لم تثمر كثيرا، لأن العروبة ليس لها نظام أو نظرية خاصة بها، بخلاف الإسلام الذي ينطوي على جميع القيم الحضارية بدون عنصرية.

ولذلك فقد تطلبت هذه الظروف مجتمعة ـ وغيرها ـ الاهتمام بإبراز النظام الإسلامي وتحديده لصد الغزو السياسي والفكري ـ من ناحية ـ وإقامة أساس للتكامل السياسي والاقتصادي بين المسلمين العرب من ناحية أخرى.

ولم تتقبل الأفكار الوضعية في الدول الإسلامية هذا المنافس الجديد ـ وهو النظام الإسلامي ـ بسهولة، بل واجهته بالعنف والشدة أحياناً، أو بالممالأة أحياناً أخرى.

ويمكن القول بأن هذه المواجهة اتخذت ثلاثة أدوار متميزة[1]:

الدور الأول: الإنكار التام لوجود نظم إسلامية سياسية أو اقتصادية أو غيرها، والادعاء بأن الدين عقيدة وعبادة فقط ولا شأن له بالحياة العامة. وكان ذلك في بدء ظهور الوعي الإسلامي بالنظم الإسلامية والمطالبة بأن تطبق هذه النظم على البلاد في الثلاثينات من هذا القرن، وكان المنكرون لوجود النظم الإسلامية من أصحاب الثقافة الأوروبية التي تشبعت بالفصل بين الدين والدنيا بعد انتصار الحكومات على الكنيسة في صراعها الطويل على السلطة.

فلما تبين ـ من مراجعة الكتب الفقهية الإسلامية ـ أن الحقيقة هي أن الإسلام هو نظام اجتماعي ومنهج للحياة، وأنه ليس قاصراً على العقيدة والعبادة فقط، لم يجد المنكرون بداً من التسليم بهذه الحقيقة الواقعة والاعتراف بوجود النظم الإسلامية.

(١) المرجع نفسه، ص٦.

الدور الثاني: الادعاء بأن النظم الإسلامية هي نظم قديمة رجعية، وكان ذلك عقب التسليم بوجود هذه النظم، وقالوا إنه لا يعقل أن نظاما ظهر منذ أربعة عشر قرنا يصلح للتطبيق في هذا الزمان.

ولكن تبين من الحوار الذي دار حول هذه المسألة الهامة أن النظام الإسلامي ليس متخلفا ولا متأخرا وأنه صالح لهذا الزمان، بل هو أفضل من سائر النظم المطبقة في العصر.

الدور الثالث: محاولات التقريب بين الإسلام والنظم المعاصرة فإنه لما تبين فضل النظام الإسلامي ومتانته، اتجهت الأفكار الوضعية إلى تملُّق الإسلام والالتصاق به، فأشاد الرأسماليون الليبراليون بما يتميز به الإسلام من الحرية في القول بالتشابه بين النظامين، وأشاد الاشتراكيون بما يتميز به الإسلام من النظام والتضامن للقول بتشابههما واستند كل فريق بحجج من آيات القرآن والأحاديث وأقوال الفقهاء لتدعيم ما يذهب كل منهما إليه.

وإزاء هذا اللبس اتجهت جهود علماء الإسلام ومفكريه إلى الفصل بين الإسلام والنظم الحديثة والتمييز بينهما، وصدر في مصر دستور عام ١٩٧١ ناصا على أن مبادئ الشريعة مصدر أساسي للتشريع وأعدت مشروعات قوانين متعددة على الأساس الإسلامي، وأسست بنوك إسلامية ونشطت فكرة التضامن الإسلامي، ثم فكرة الإعلام الإسلامي من بعد.

الأدب والأسس الاعلامية للدعوة الاسلامية

تمهيد

نتناول في هذا الفصل الأسس الإعلامية للدعوة الإسلامية، على النحو الذي تيسر لنا استقراؤه من دراسة الإعلام في صدر الإسلام، وما أسفرت عنه الدراسة من نتائج تفيد الدراسات الإعلامية المعاصرة فتؤكد على إيجابياتها، وتعالج سلبياتها بهدف الوصول إلى النظرية المثلى المستقرأة من الإعلام الإسلامي. . . استنادا إلى جوهر الدعوة الإسلامية ذاتها التي خاطبت الإنسانية كلها برسالة واحدة، على نقيض ما اتسمت به الدعوات السابقة للإسلام من خصوصية، حيث كان الرسول قبل الإسلام يأتي لقومه فقط، فكان ما يناسب بيئة لا يناسب أخرى، ومن هنا تعددت الرسالات قبل الإسلام وفقا لتعدد البيئات.

وبنظرة موضوعية في تاريخ الرسالات نرى أن الدعوة الإسلامية هي الرسالة العامة إلى كل الخلق، وأن الرسالات السابقة تعتبر تمهيدا للإسلام، وقد صور النبي ﷺ هذه الحقيقة بقوله: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: أهلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[1].

(١) صحيح مسلم، ج٧، ص ٦٤ و٦٥.

ومع هذا الترابط بين دعوات الله في الناس فإن الدعوة الإسلامية تتميز عن سائر الدعوات الإلهية بميزات نرى أنها تمثل سمات الإعلام الإسلامي، ومنها:

١ ـ أن الإعلام الإسلامي وسيلة لدعوة اكتملت فيها نعمة الله باكتمال دعوته في العالمين، ومناسبتها لرقي الإنسان في أرقى مظاهره في كل زمان ومكان.

٢ ـ أن الإعلام الإسلامي يحقق التعادلية بين المادة والروح في الحياة الفردية والجماعية، وبذلك يخالف الماديين الذين يتجهون إلى نيل أكبر قسط من المادة مع إغفال كثير من المعاني الإنسانية ويخالف الروحانيين الذين ينادون بقتل النفس بالزهد والحرمان.

وعلى ذلك فإن التحليل الوظيفي للإعلام الإسلامي يذهب إلى أن يُرضي ضرورات الجسد والروح معاً: النفس والنسل والعقل والدين والمال، وهي الضرورات التي تتعلق بها مصالح الدنيا والآخرة، ويتحقق بها السلام والسعادة، يقول الشاطبي «ومجموع الضرورات خمس: وهي حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد والرجوع بالخسران المبين».

٣ ـ أن الإعلام الإسلامي ـ كما تقدم ـ ينبع من شمول التشريع الإسلامي لأنواع الناس ولكافة مراحل تطور الإنسان، وبذلك تشمل كيان الفرد كله والمجتمع بأسره، ولا تفرقة بين ذكر وأنثى ولا ميزة للون أو لجنس، أو لعارض من عوارض الدنيا، وبذلك يسعى الإعلام الإسلامي لتحقيق الإخاء والعدل والحرية والمساواة.

٤ ـ يراعي الإعلام الإسلامي طبيعة الإنسان ويتفق مع فطرته في كل أمور دينه ودنياه، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾(١).

---

(١) سورة الأحزاب، الاية ٧١.

الاعلام الاسلامي والفطرة الانسانية

تقوم الأسس الاتصالية للإعلام الإسلامي على قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي القوانين التي تدفع بمفكري العصر إلى المناداة بدراسة الإنسان، فالإعلام الإسلامي إذن يقوم على «إنسانية الإنسان»، يقول سبحانه وتعالى في سورة العلق:

﴿إِقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ ٱلرُّجْعَى﴾.

فعبادة الإنسان لله سبحانه وتعالى إرادية وواعية في جانب منها على الأقل، بخلاف عبادة غيره من الكائنات، فإذا كانت الذرة تعبد الله بالطاعة لا إرادة فيها ولا وعي، وإذا كان الكون والأرض وما عليها من نبات وحيوان تعبد الله على نفس الطريقة، فإن الإنسان إلى جانب هذا اللون من الطاعة قد ألهم طريقين لا طريقاً واحدة: طريق الطاعة وطريق العصيان، وأعطي القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما والمضي فيه ﴿وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[2]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[3].

ومن ثم فالإنسان هو المخلوق الوحيد - من مخلوقات الأرض - الذي يعبد الله عن وعي وفهم وإدراك، وهو كذلك المخلوق الوحيد في الأرض الذي يعصي الله حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان. ولكنه في الحالتين «يدرك» وجود الله سبحانه وتعالى، ويدركه بالفطرة...

---

(١) سورة البلد، الآية ١٠.
(٢) سورة الإنسان، الآية ٣.
(٣) سورة الشمس، الآيات ٧ - ١٠.

﴿وَأَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلْ شَهِدْنَا﴾(١).

وللفطرة طريقة خفية في إدراك وجود الله سبحانه وتعالى، والإيمان بوجوده، والاتصال به، والاستعانة به، والزود من زاده(٢).

وانطلاقاً من هذا الفهم، فإن الإعلام الإسلامي يقوم على الفطرة، ويخاطب العقول ويقنعها بالدليل، ذلك أن الإسلام يقدر العقل المدرك، وقد حفل القرآن الكريم بخطاب «العقل» بل ملكة من ملكاته، قبل أن يصبح العقل «درسا» يتقصاه الدارسون كنهاً وعملاً، وأثرا في داخله وفيما يخرج عنه، وفيما يصدر منه، وما يؤول إليه... على حد تعبير العقاد... فالعقل وازع «يعقل» صاحبه عما يأباه التكليف، والعقل فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور... والعقل رشد يميز بين الهداية والضلال، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا﴾(٣).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾(٤).

فالإيمان بالعقل المسؤول، إذن، هو أساس الإعلام الإسلامي على نقيض ما يحدث اليوم في أنحاء العالم من ضغوط على الجماهير لاعتناق أفكار معينة والإيمان بمعتقدات جديدة، وعلى نقيض ما يسميه عالم النفس الهولندي ميرلو بأساليب قتل العقل Menticisal، وهنا يصبح الإعلام الإسلامي هو النموذج الأمثل في تحقيق ما تسعى إليه النظريات الإعلامية من جعل الإعلام يزود الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.
(٢) محمد قطب: دراسات في علم النفس الإنسانية، القاهرة، دار الشروق، ص ٢١٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٩١.
(٤) سورة الروم، الآية ٨.

تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم.

فالإعلام الإسلامي يقوم على الوضوح والصراحة ودقة الأخبار والمعلومات، لأنه يخاطب العقل في المحل الأول، انطلاقاً من فهم القرآن الكريم، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾[1].

ومن فهم الآيات الكونية التي خاطبت العقل، والتي منها قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾[2].

ويعيب القرآن الكريم على من يهمل عقله، يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾[3].

فتراه سبحانه ينكر تعطيل العقل عند من يفعل ذلك، ويوضح الزمخشري في تفسيره هذا وهو يقول: أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول فإنها في الواقع تأباه وتدفعه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُون﴾[4].

ومن أجل ذلك يشترط الإعلام الإسلامي الالتزام بمعايير الصدق والأمانة، وتزويد الناس بالمعلومات الصحيحة والحقائق الواضحة التي يمكن التثبت من صحتها أو دقتها بالنسبة للمصدر الذي تنبع منه أو تنتسب إليه، وقد

---

(١) سورة يوسف، الآية ١.
(٢) سورة النحل، الآية ١٢.
(٣) سورة البقرة، الآية ٤٤.
(٤) سورة الأنفال، الآية ٢٢.

بيّن الله تعالى ذلك فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلاَف ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لآيَاتٍ لأُولِي ٱلأَلْبَاب﴾(١).

يقول ابن كثير بعد أن عدد بعض ما في هذه الآيات من عجب إنها لأصحاب العقول التامة التي تدرك الأشياء بحقائقها على طبيعتها، ذلك لأن اللب هو كمال العقل.

وتأسيساً على هذا الفهم يمكن القول إن الإعلام الإسلامي يخاطب الفطرة الإنسانية، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات وابتلاه بالخير والشر فتنة، ونفخ فيه من روحه، ووهبه العقل، ومنَّ عليه بالرسل والأنبياء ينيرون له طريق الحياة ويهدونه سواء السبيل، ثم جعله مسؤولا، وإن أحسن فلنفسه وإن أساء فعليها.

والصفات الآتية هي الصفات التي فطر الله الناس عليها كما وردت في القرآن الكريم:

* كرّمه ورزقه وفضله على كثير من خلقه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٢).

* خلقه الله تعالى في أحسن تقويم... خَلْقا وخُلُقا وعقلا: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيم * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَك * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَك * كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّين * وَإِنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِين * كِرَاماً كَاتِبِين * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون﴾(٣).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين * إلاَّ

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٠.
(٣) سورة الانفطار، الآيات ٦ ـ ١٠.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُم أجر غَيْر مَمْنُون﴾(١).

* نفخ الله فيه من روحه: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيم * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ وَخَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانَ مِنْ طِين * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِن مَاءٍ مَهِين * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُون﴾(٢).

* استخلفه الله تعالى في أرضه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَة إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَل فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾(٣).

* مكّنه الله تعالى في الأرض: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُون﴾(٤).

* الصالحون منهم يرثون الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعدِ الذِّكرِ إِنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُون﴾(٥).

مسؤول: ﴿وَمَنْ يَكْسَبُ إِثْماً يَكْسَبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمَاً حَكِيما﴾(٦).

﴿وَقُلِ الْحَقّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾(٧).

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلّ أولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولا﴾(٨).

---

(١) سورة التين، الآيات ٤ ـ ٦.
(٢) سورة الحج، الآيات ٦ ـ ٩.
(٣) سورة البقرة، الآية ٣٠.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٠.
(٥) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.
(٦) سورة النساء، الآية ١١١.
(٧) سورة الكهف، الآية ٢٩.
(٨) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

﴿وأنْ لَيْسَ لِـلإنْسَان إلاَّ مَـا سَعَى * وأنَّ سَعْيَهُ سَـوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْـزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلأوْفَى﴾[1].

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسِبَتْ رَهِينَة﴾[2].

* فقيـر إلى الله: ﴿يَا أيُّهَـا ٱلنَّاس أنْتُم ٱلْفُقَـرَاء إلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُـوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيد﴾[3].

* خلق في كبد: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا ٱلْبَلَد * وَأنْتَ حل بِهَذَا ٱلْبَلَد * وَوَالِـدٌ وَمَا وَلَد * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإنْسَانَ فِي كَبِد﴾[4].

مبتلى من الله تعـالى: يبتليه الله بـالخير والشـر فتنة، ليعجم عـوده ويبين الغث من السمين، والمؤمن الصـابر من الكـافر الجـزوع: ﴿إنَّا خَلَقْنَـا ٱلإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشَـاجٍ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعـاً بَصِيرا * إنَّـا هَدَيْنَـاهُ ٱلسَّبِيلَ إمَّـا شَاكِـراً وَإمَّا كَفُورا﴾[5].

﴿وَلِنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَـوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلأمْـوَالِ وَٱلأنْفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِين﴾[6].

﴿وَلِنَبْلُوَنَّكُـمْ حَتَّـى نَعْـلَم ٱلْمُـجَـاهِـدِينَ مِـنْكُـم وَٱلصَّـابِـرِيـن وَنَبْـلُو خِيَارَكُم﴾[7].

ومن هذه الآيات القـرآنية الكـريمة يتضـح لنا أن لـلإعلام الإسـلامي في مخاطبة الإنسان خصائصه المميزة، التي تفرده من سائـر النظريـات الإعلاميـة، وتجعل له الريادة والكشف والسبق لكـل ما يستحـدث من نظريـات، تتطور في إطاره وتنمو وتتقدم.

---

(١) سورة النجم، الآية٣٩ ـ ٤١.
(٢) سورة المدثر، الآية ٣٨.
(٣) سورة فاطر، الآية ١٥.
(٤) سورة البلد، الآيات ١ ـ ٤.
(٥) سورة الإنسان، الآيتان ٢ و٣.
(٦) سورة البقرة، الآية ١٥٥.
(٧) سورة محمد، الآية٣١.

وهـذه الخصـائص التي تخـاطب الفـطرة الإنسـانيـة، هي التي جعلت الدراسات الإعـلامية المعـاصرة تـذهب إلى أن الناس يقبلون على الإعـلام إذا كانوا يجدون فيه فائدة محققة لهم، أو إشباعـا لحاجـاتهم، وقد تفيـد المعلومات فائدة عاجلة كما قد تفيد فائدة آجلة، على النحو الذي يجعل الناس في وسائل الاتصـال بالجمـاهير يجـدون معلومات تـرشدهم وتفيـدهم، وفضـلا عن ذلـك تسـاعـد المعلومـات على تـأكيـد الثقـة بـالنفس وتحقيق الانسجـام الـداخلي والائتلاف الاجتماعي، وهو الأمر الـذي تحققه مبـادئ الإعلام الإسـلامي التي تنبع من الإيمان بالله، من حيث تنظيم علاقة الفرد بنفسه، وعلاقة الفـرد بالفـرد الآخـر، ثم علاقـة الفرد بـأمته ومجتمعـه، وبالكـون الذي يعيش فيـه. كما أن الإعـلام الإسلامي يخـاطب المجتمع العـالمي الإنساني بـالوشـائج القـوية من الإخاء والمحبة والتسامح والتعاون والتكامل.

وإذا كانت الدراسات الإعلامية الحديثة تذهب إلى أن الرسالة الإعلاميـة التي يحتاجها المستقبل ويشعر بأنها تلبي حاجاته، تظفر منه بـالتقبل والاهتمـام والسعي للحصـول عليهـا.. فـإن الإعـلام الإسـلامي يـدور في إطـار يشمـل الإنسانية في كافة أقطارها وأزمانها، ويمنح قلب المستقبل راحة وهدوءا، ويتيح لعقله طمأنينة واستقرارا، حيث يجد أنه - إذ يتصل بالله سبحانه وتعالى - يتصـل بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود، كما هي في عالم الحقيقـة والواقـع، كما يصفي ضمير المستقبـل من الغرور، ويخلص نفسـه من الكبريـاء، ويمحو ما أصاب عقله من جهالة، ومن ثم يدور الإعلام الإسلامي في صور متعـددة، تتناول كل صورة منها بعداً من أبعاد الإنسان المستقبل بالتهذيب والتـوجيه حتى تتنـاسق الجماعـة كلها، وتتـلاقى في مجتمع حي الضميـر، متماسك البنيان، واعي الفكر، مرهف المشـاعر، واقعي النـظرة، خيِّر النـزعة، مستقيم السلوك، يشيـع بين أفـراده إحسـاس بـالمسؤوليـة، ويسـودهم شعـور بـالتسـاوي يلزمهم بالحرية.

وإذا كان الإعلام يقبل عليها النـاس في عصرنـا لأنه يعـطيهم من الأفكار والمعلومات ما يستخدمونـه في رفع مستـوى معارفهم، فـإن الإعلام الإسـلامي

قد أكد على ذلك، وأدى إلى دعم اتجاهاتهم النفسية وتعزيز قيمهم ومعتقداتهم، قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»[1].

فعن هذا الحديث الشريف يتضح أن الإسلام الذي ينبع منه الإعلام الإسلامي يعني التصديق بالقلب والتصديق باللسان، مع الوفاء بالفعل والاستسلام لله في جميع ما قضى وقدّر. والشهادة قول صادر عن علم حصول المشاهدة بصرا وبصيرة، وتقال لمطلق الإقرار والاعتراف بالإله المعبود والصلاة في الأصل الدعاء، وتقال للعبادة المعروفة لما فيها من الدعاء. والتوجه إلى الله، وإقامتها وتقويمها بالخشوع فيها، والتفكر في معانيها، وتذكر مَنْ أُقيمت له، فهي من أقام العود إذا قَوَّمَهُ. والصلاة إذن توثق صلة العبد بربه، فيفيض عليه من خيره، وتطهر نفسه من التكالب على أغراض الدنيا، وتعوده الإخلاص والابتعاد عن النفاق. أما الزكاة فقد أطلقت في عرف الشارع على ما يخرجه الإنسان من ماله حقا لله تعالى ليصرف لذوي الحاجات وفي المصالح العامة. والصوم يذكي في الإنسان روح التفكير، إذ البطنة تذهب بالفطنة، ويذكر في كل لحظة بالله رب نعمته، فترطب بذكره لسانه. والحج في اللغة القصد، والمراد به في لسان الشارع قصد البيت الحرام ـ الكعبة ـ وفيه يتجلى الإعلام الإسلامي في أوضح صوره، والوقوف على حال المسلمين في الأقطار المختلفة، والإعلام أول خطوة إلى العمل بدعائم الإسلام وقيمه الأصلية.

الأسس الاتصالية في الاعلام الاسلامي

وانطلاقا من هذا الفهم يتضح أن الإعلام الإسلامي يقوم على أسس اتصالية رائدة بالقياس إلى النظريات الإعلامية المعاصرة، ذلك أنه خاطب

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الفطرة الإنسانية على نحو غير مسبوق، وهو الأمر الذي تسعى إليه جاهدة نظريات الإعلام في عصرنا هذا بهدف دراسة وتحليل محددات السلوك Deter-minants Behavior وبعض هذه المحددات هي:

المحددات الوراثية الخاصة بالجنيات Genetic: المحددات البيولوجية والفسيولوجية، المحددات اللاواعية أو اللاشعورية... إلخ.

ومن هذه الدراسات المعاصرة يحاول علماء الاتصال (من أمثال البورت ١٩٤٧(١) وبارتليت ١٩٥٨(٢) - وبرونر ١٩٥٨(٣) وهوفلاند(٤) وشرام ١٩٦١(٥)، التعرف على التعرض للاتصال وتفسير المضمون، وتذكر الاتصال والنتائج السلوكية والوقفية المترتبة على الاتصال، كل ذلك بحكمة - بصفة خاصة - الاستعداد المسبق لدى الشخص المستقبل.

وتركز هذه الدراسات على التغيير السلوكي من خلال دراسة مكونات عملية الاتصال والمتغيرات التي ترتبط بكل منها، وتتضمن عمليةالاتصال كما سبق وأوضحنا في الفصل الأول:

(أ) - المصدر.

(ب) - الرسالة.

---

(١) Allport, 6, W., «The Historical Background of Modern Social Psychology» in Lindsey G. (Ed.), Handbook of Social Psychology, vol., 1, Reading Mass: Addison Wesley, 1959.

And Postman, L., The Psychology of Rumor N.U.: Hal, 1947.

(٢) Bartlett, F.C., «Social Factors in Recall» in Maccoby, E.E. Neucomls, T.M. Eds., Reading in Social Psychology, N.Y. Rinehart and Winston, Inc., 1958, pp.47- 54.

(٣) Bruner J.S., «Social Psychology and Perception» in Maccoby, E. E., (Eds.) Reading in Social Psychology N.Y.: Alot, Rinehart and Winston, 1950, pp.85- 94.

(٤) Hovland, C. I., Janis, I.L., and Kalley, H A., Communication and Persuasion, New Haven, Cann., Yale University Press, 1953.

(٥) Schramm, W. ED.. The Process and Effects of Mass Communication, Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 1961.

(ج) ـ المستقبل.
(ج) ـ قناة الاتصال.

ونحاول في هذه الصفحات دراسة العناصر المتعلقة بالمصدر، مرجئين دراسة قناة الاتصال لكتابنا التالي على اعتبار أنها تمثل القاسم المشترك بين العصور المختلفة في تطور الإعلام الإسلامي، وعلى اعتبار أننا درسنا عنصر الرسالة في الفصول المتقدمة.

مصدر الاتصال

إن مصدر الاتصال ـ كما تقول الدراسات الحديثة ـ هو منشئ الرسالة وفي مجال الإعلام الإسلامي فإن المصدر هو القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويكون الدعاة الإعلاميون هم الذين يمثلون عناصر «المرسل» الذي يؤدي رسالة المصدر، ولذلك فإن الدراسات الحديثة تركز في هذا العنصر على قابلية المرسل والمصدر للتصديق، فقد وجد هوفلاند ووايس (١٩٥١)[١] وكليمان وهوفلاند (١٩٥٣)[٢] في تجاربهم على المصادر، أن المعرضين للاتصال يكتسبون نفس الكمية من المعلومات بغض النظر عن درجة قابلية المصدر للتصديق.. وإذا كان الاتصال منسوبا بالمصدر قليل القابلية للتصديق، فإن المعرضين للاتصال سيحكمون على المعلومات بصورة أقل عدلاً وسيجدون أن الاستنتاجات تبريرها أساسه ضعيف.

وتوضح هذه الدراسات أن أمانة المصدر وجدارته بالثقة جانب هام من جوانب قابلية المصدر للتصديق.

---

(١) Hovland, C.I. and Weiss, W., «True influence of Soakx and Credibility on Communication Effectiveness» Public Opinion Quarterly Vol. 15 (1951, pp. 635-650).

(٢) Kelman, H.X. and Hovland, C.I., «Reinstarement of the Communication Delayed Measurement of Opinion Change Journal of Abicor Wal and Social Psychology, Vol., 1053, pp.327- 335.

ولقد أكد الإعلام الإسلامي على ضرورة توافر الصفات المثلى في الدعاة ورجال الإعلام لكي يكونوا موضع تصديق، ذلك أن هؤلاء هم ورثة النبي ﷺ في مهمته الإعلامية، والقائمون مقامه في إبلاغ دين الله، وكان النبي ﷺ يؤكد للمسلمين على ذلك، فقال لأصحابه: «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب»(١).

وانطلاقاً من هذا الفهم نتناول هنا في ضوء دراسة هذا العنصر الإعلامي المبادئ التي قام عليها الإعلام الإسلامي وفي مقدمتها:

الصدق

ذلك أن الإسلام جعل الصدق فضيلة للإنسان، بوجه عام، وهي بالقياس إلى الإعلام الإسلامي تكون أهم مقومات تصديق المصدر أو المرسل الذي يبلغ دعوة الله كما جاءت، ويبين غوامضها، وينقل كل بيان قيل في شأنها. ولذلك كانت أهم صفة اشتهر بها الرسول ﷺ هي صفة «الصادق الأمين».

ولما سَأَلَ هرقل أبا سفيان ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ عن محمد قائلا: وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجابه: لا... فقال هرقل: أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله(٣).

وهرقل هنا يمثل دور المستقبل الذي يشترط الصدق في المصدر، لأن من يلتزم الصدق مع الناس يكون صادقاً مع ربه سبحانه وتعالى، وكان النبي ﷺ يؤكد على هذا المعنى الاتصالي في بدء الدعوة والجهر بها حينما قال للناس: «لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقيَّ؟»، قالوا جميعاً: «ما جرينا عليك كذباً»(٤).

---

(١) صحيح البخاري، ج ١، ص ٣٧، كتاب العلم، باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب.
(٢) الفتح الرباني، ج ١، ص ٢٦٤، كتاب العلم، باب فضل تبليغ الحديث.
(٣) صحيح البخاري، ج ١، ص ٥ - ٦، با بدء الوحي.
(٤) صحيح البخاري، ج ٦، كتاب التفسير.

وفي القرآن الكريم يؤكد الله تعالى في أكثر من آية على التزام الصدق في كل شيء، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِين﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَيَنْصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُون﴾[3].

وقال جل شأنه: ﴿وَٱلَّذِي جَاءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُون﴾[4].

ويقول النبي عليه الصلاة وأزكى السلام: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة»[5].

والمرسل في الإعلام الإسلامي يظهر صدقه في وجهه وصوته وما يخطه قلمه، فقد كان ﷺ يتحدث إلى من لا يعرفونه فيقولون: والله ما هو بوجه كذاب ولا صوت كذاب[6].

وليس من شك في أن ظهور أثر الصدق في القائم بالإعلام الإسلامي يؤثر في الجمهور المتلقي ويحمله ذلك على قبول رسالته الإعلامية واحترامها.

الصبر والثبات

فالمثابرة على الدعوة من أهم صفات الإعلامي المسلم، وهذه المثابرة تقتضي الصبر الذي يعد نصف الإيمان، وهو لغة: الحبس والكف، وشرعا على ثلاثةأنواع: صبر على طاعة الله، وصبر على معصية الله، وصبر على

---

(١) سورة التوبه، الآية ١١٩
(٢) سورة مريم، الآية ٥٤.
(٣) سورة الحشر، الآية ٨.
(٤) سورة الزمر، الآية ٣٣.
(٥) موطأ مالك، ح ٤، ص ٢٢٧، ما جاء في الصدق.
(٦) تذكرة الدعاة، للبهي الولي

المصائب والبلاء. ذلك أن الإعلاميين والدعاة مبتلون بأذى الكفار والمارقين بالقول والكيد. . . قال تعالى: ﴿وَلَقَد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ ٱلْمُرْسَلِين﴾(1).

وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُون * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِين * وَٱعْبُدْ رَبَّك حَتَّى يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِين﴾(2).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْد ٱللَّهِ حَقّ وَلَا يَسْتَخِفَنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُون﴾(3).

فالصبر والثبات هما عدة الإعلاميين والدعاة في الإسلام، وقد أوذي أصحاب الرسول عليه السلام في قلة أشد الأذى، وكان ﷺ يأمرهم بالصبر (صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة)، فالإعلاميون والدعاة المسلمون يقابلون الأذى بالصبر الجميل، ولذلك يؤكد الدارسون المسلمون في علم الدعوة على ضرورة توافر عدد من الشروط في المرسِل وفي المرسَل في نظرية الإعلام الإسلامي:

1 ـ أن يدعو الإعلامي المسلم إلى الله على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة التي بينها القرآن الكريم وطبقها النبي عليه السلام، فإذا أدت هذه الوسائل إلى أذى
وبالثبات لا بالفرار.

2 ـ إذا كان الإعلامي المسلم قادرا على ...
الظروف والأحوال، لأن فيه فتنة مهولة العاقبة، جاء في ...

---

(1) سورة الأنعام، الآية 34.
(2) سورة الحجر، الآيات 97 ـ 99.
(3) سورة الروم، الآية 60.

«لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: يتحمل من البلاء ما لا يطيق»[١].

٣ - من الأدعية المأثورة أن يسأل المسلم ربه العفو والعافية، وفي وصيته عليه السلام لأسامة بن زيد وقد جعله أميرا على الجيش لغزو الروم قبل وفاته عليه السلام بأيام، قال له: «ولا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا اللهم اكفناهم واكفف بأسهم»[٢]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[٣]، ولقد هاجر المسلمون من مكة إلى الحبشة فرارا بدينهم وتخلصا من أذى قريش، فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى وعدم الاستسلام له، لأن نفس المسلم ليست ملكه وإنما هي ملك لله، فلا يجوز اتلافها بلا فائدة تعود إلى الإسلام، والإعلامي أو الداعي المسلم لا يستدعي الأذى لنفسه، بل يعمل على عدم وقوعه. وإذا وقع عَمِل على دفعه بكل وسيلة مشروعة في ضوء القرآن والسنة.

٤ - إذا وقع الضرر والأذى على الإعلاميين والدعاة المسلمين رغم التزامهم بالسِيَر المشروعة في الدعوة والإعلام الإسلامي، فعليهم أن يستعينوا بالله ويصبروا الصبر الجميل، وليعلموا أن الأمور كلها بيد الله تعالى[٤].

الرحمة والعفو والتواضع

وهذه الأخلاق الإسلامية جميعا تعد من صفات الداعية المسلم ورجل الإعلام الإسلامي، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»، «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»، «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء».

---

(١) إمتاع الأسماع، ص ٢٨.
(٢) سيرة ابن هشام، ص ٣٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢٥.
(٤) د. عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة، ج ١، ص ٥٣.

ذلك أن رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام وقد وصفه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١).

فالرحمة إذن مبدأ من المبادئ المثلى في الإعلام الإسلامي، لأنها تؤدي في نهاية الأمر إلى تحقيق التواصل في كيان الأمة الإسلامية على أرفع مستوى، تحكم به كل نظريات الاتصال والإعلام في القديم والحديث.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»(٢).

والتراحم لغة: التواد والتعاطف، وكلها من باب التفاعل الذي يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل، وكذلك التواصل، وبينها ـ وإن تقاربت في المعنى ـ فرق لطيف، فالتراحم: رحمة بعضهم بعضا بأخوة الإيمان لا بسبب آخر، التواد: التواصل الجالب للمحبة، والتعاطف إعانة بعضهم بعضا كما يعطف الثوب على الثوب تقوية له. وتداعوا: دعا بعضهم بعضا، وهكذا يستخدم الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الألفاظ الدالة على جوهر الاتصال والإعلام ودلالة التراحم فيهما، فيمثل ﷺ المؤمنين في هذه الخلال بالجسد الواحد إذا مرض منه عضو تألم له كل أعضائه. فكذلك المؤمنون يسعون بالتعاطف لدفع الألم عن أي مصاب فيهم، ويجلبون له الخير، فالمسلمون في نظرية الاتصال الإسلامي كشخص واحد، وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كعضو بالنسبة للشخص، فالخير يصيب الواحد منهم كأنما أصاب كلهم والشر يصيبه كأنما أصاب جميعهم.

ونخلص مما تقدم إلى أن نظرية الإعلام الإسلامي تذهب إلى العمل على نشر الدعوة الإسلامية بكل الوسائل المشروعة، لأفراد الأمة الإسلامية ولغيرها من الأمم الأخرى.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

فهرس موضوعات الكتاب

الباب الثاني

مصادر الأدب الإسلامي للدكتور محمد خفاجي

الباب الثالث

الإعلام في الأدب الإسلامي،

للدكتور عبدالعزيز شرف